

الشرق الإسلامى

قبيل الغزو المغولى

تأليف

حافظ أحمد حميدى

ليسانس فى الآداب ، وماجستير فى الآداب بدرجة جيد جدا
ودبلوم معهد الفزياء العالى

obeykandi.com

الہدایہ

الی من کان لم یفہم فضل تنبیہی
والی من کان لم یفہم فضل تشجیبی

obeykandi.com

تقديم الكتاب

بقلم

سعادة الدكتور مسعود ابراهيم حسن

مدير جامعة محمد علي

وأستاذ التاريخ الإسلامي ، والعميد السابق لكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

في شهر يناير سنة ١٩٤٩ قدمت رسالة « الدولة الخوارزمية والمغول ، التي نال بها تلميذي الأستاذ حافظ أحمد حمدي درجة الماجستير في الآداب من جامعة فؤاد الأول بتقدير جيد جداً ، ورجوت أن يكون ذلك البحث بداية لأبحاث أخرى في التاريخ الإسلامي .

ويسرني أن أقدم له اليوم كتاباً لا يقل أهمية عن الرسالة التي قدمها من قبل ، من حيث مادته وطريقة بحثه ، هو : « الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي » ، ويشتمل على خمسة أبواب وخاتمة . وقد أفرد المؤلف الباب الأول للكلام عن حال الخلافة العباسية قبل العصر السلجوقي وبعده ، وبين ما كان للنفوذ الفارسي والتركي من أثر في ضعف الخلافة العباسية في بغداد ، وضعف نفوذ الخلفاء في أقاليم الدولة العباسية المتداعية ، ولا سيما قبيل الغزو المغولي على يد جنكيز خان . وما أعجبنى في هذا الباب تصوير الحضارة الإسلامية في العصر السلجوقي ، ولا سيما في عهد ملوك شاه ، ذلك العهد الذي يعد بحق العصر الذهبي للدولة السلجوقية ، واستعان على تصوير هذه الحضارة بكثير من اللوحات الفنية القيمة .

وفي الباب الثاني قسم المؤلف النزاع بين أبناء البيت السلجوقي إلى ثلاثة أدوار ، صور فيها ما كان لذلك النزاع من أثر في ضعف الدولة السلجوقية بوجه خاص وفي ضعف الدولة العباسية بوجه عام ، وبين في جلاء كيف اتخذ الخلفاء العباسيون في ذلك العصر من ضعف السلاجقة فرصة لمحاولة استرداد ما كان لهم من نفوذ وسلطان . وفي الباب الثالث

عاج المؤلف العوامل التي أدت إلى نجاح الدعوة الإسماعيلية في بلاد المشرق وما بذله الحسن بن الصباح ، داعي دعاة الإسماعيلية في فارس ، من جهود متصلة في تكوين هذه الطائفة حتى استفحل أمرها وأصبحت خطراً يهدد كيان كافة أرجاء الشرق الإسلامي تقريباً ، كما صورّ جهود كل من السلاجقة والخلفاء العباسيين في الحد من نفوذ الإسماعيلية الذي وضع المغول بقيادة هولاكو ، حداً له قبيل سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وقد بحث المؤلف في الباب الرابع من هذا الكتاب كيف قامت دول الأتابكة في دمشق وحلب والموصل والجزيرة وديار بكر وأرمينية وأذربيجان وكرمان وخوارزم وغيرها ، نتيجة لضعف الدولة السلجوقية . وفي الباب الخامس عاج المؤلف حالة مصر والشام قبيل الغزو المغولي ، فصور الصراع بين الصليبيين وأمراء المسلمين وبخاصة نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وخلفائه ، وبين ما كان لذلك الصراع من أثر في ضعف كل من بلاد الشام ومصر إبان غزوات المغول ، وخلص من ذلك إلى الحديث عن غزو كل من جنكيزخان وهولاكو للبلاد الإسلامية ، وأجاد في وصف نظم المغول من الناحيتين الاجتماعية والحربية ، وضعف حالة المسلمين إبان ذلك الغزو ، وما كان لذلك من أثر في سرعة زوال الدولة العباسية .

ولا شك أن الأستاذ حافظ أحمد حمدي قد سار في هذا البحث على منوال بحثه الأول ، من حيث توخي الدقة في أسلوب علمي حديث مبني على دراسة عميقة للبصادر الأصلية العربية والفارسية والأوربية ، واستطاع بذلك أن يضيف إلى العلم حقائق علمية طريفة كشفت عن كثير من المسائل التي كانت لا تزال غامضة مهمة . وأرجو أن ينال هذا البحث الجديد ما ناله بحثه الأول من تقدير القراء وثنائهم ، لما بذل المؤلف من جهد وأنفق من عناء ، فله من أجل ذلك كل ثناء وتقدير .

مقدمة

في مستهل القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، ، أغار المغول على بلاد الشرق الإسلامي فأتوا على كل ما صادفهم فيه ، ثم عادوا إلى حيث جاءوا وقد كلل مسعاهم بالنجاح . والعوامل التي ساعدت المغول على ما أحرزوه من نصر ، كثيرة ومتعددة ، فقد ترجع انتصاراتهم إلى قوة روحهم العسكرية واعتمادهم بتنظيم جيوشهم ، فضلاً عما استخدموه من آلات الحرب . وقد يكون الفقر الذي كان يعانيه المغول في وطنهم الأصلي هو الذي أكسبهم ذلك الحماس فتطلعوا إلى غنم يأتهم من البلاد التي اندفعوا إليها . ومن المحتمل أن يكون ذلك كله شيئاً قليلاً بالنسبة إلى ما صادفوه في أقاليم الشرق الإسلامي من انحلال سياسي . واضطراب اقتصادي ، وفوضى اجتماعية ، بحيث يمكن القول إن الشرق الإسلامي كان في الوقت الذي عوّل المغول على غزوه في طور الاحتضار . وإن الانحلال السياسي الذي صادفه المغول في بلاد الشرق الإسلامي هو ما قصدت تصويره في هذا الكتاب .

صادف المغول خلافة فقدت سلطانها القديم بحيث أصبح نفوذ الخلفاء قاصراً على العراق العربي ، ومع ذلك فقد كان نفوذهم في هذه الرقعة الضيقة أيضاً لا يعدو أن يكون نفوذاً دينياً ، إذ كانت العناصر الفارسية والتركية ، فضلاً عن الحركات الدينية الهدامة ، قد حدثت تدريجياً من نفوذ الخلفاء ففقدوا نفوذهم السياسي في أقاليم الدولة العباسية ، بل وفي بغداد نفسها . وقد تعاقب على حكم هذه الأقاليم عدد كبير من الحكام والأسرات تنازعوا السلطة فيما بينهم دون أن يقيموا وزناً للخليفة العباسي في بغداد . وقد نتج عن ذلك كله أن أصبحت البلاد الإسلامية عندما تطلع المغول إلى غزوها أشبه ما تكون بأشلاء متناثرة .

وإذا كانت قد ظهرت هناك بعض محاولات لتوحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم ، فإنها كانت محاولات فاشلة ، ما كانت تقوم وتهض حتى يقضى عليها .

لست هنا في معرض التحدث عن موضوع الكتاب ، فإنى أترك ذلك لتقدير الفاحص ، كما أترك جانباً الكلام عن المصادر التى استقيت منها مادة البحث ، ولكن من المهم أن أذكر أن دراسة حالة الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى ، يقتضى دون شك تصوير حال هذه البلاد من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، وإنى لأرجو أن يكون ذلك موضوع بحث مستقل . وإذا كنت قد تعرضت فى هذا الكتاب لتاريخ عدد كبير من الأسرات والحكام والأتابكة الذين توالوا على حكم أقاليم الشرق الإسلامى واستقل بعضهم بحكمها ، فقد حرصت على أن أتبع نسب هؤلاء الحكام والأتابكة ، فذيلت الكتاب بجداول تمثل نسب هؤلاء جميعاً ، وأرجو أن تكون عوناً للقارئ على تتبع مجريات الحوادث السياسية التى تناولها البحث .

وبعد ، فإنى أتقدم بجزيل الشكر إلى حضرة أستاذى الجليل الدكتور حسن إبراهيم حسن ، مدير جامعة محمد على وأستاذ التاريخ الإسلامى ، الذى كان له فضل توجيهى إلى دراسة التاريخ الإسلامى ، والذى غمرنى بكثير من فيض تشجيعه وإرشاده ، وأشكر له بصفة خاصة تفضله بمراجعة هذا الكتاب . كما أتقدم بخالص الشكر إلى حضرة الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن ، عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وأستاذ الآثار الإسلامية بها ، فقد تفضل فأمدنى ، من مكتبته الخاصة النفيسة ، بكثير من اللوحات الفنية التى لها أهميتها التاريخية البالغة .

والله أرجو أن يوفقنى إلى ما أنا بسبيله من أبحاث متواضعة ، وما توفيقى إلا بالله ٩

محتويات الكتاب

صفحة	الإهداء
٣	تقديم الكتاب
٥	مقدمة
٧	

الباب الأول

حالة الخلافة العباسية

- نفوذ الفرس السياسى فى الدولة العباسية : ١٧ — نفوذ الفرس الدينى :
١٩ — نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية : ٢٠ — انتقال مركز الخلافة إلى
سامرا : ٢٣ — إعادة مركز الخلافة إلى بغداد : ٢٤ — تقلص نفوذ الخلفاء
فى أقاليم الدولة العباسية : ٢٥ — نفوذ البويهيين فى بغداد : ٢٧ — حالة أقاليم
الدولة العباسية فى عهد البويهيين : ٣٠ — ظهور السلاجقة ودخولهم بغداد :
٣٢ — العصر الذهبى للدولة السلجوقية : ٣٤ — انحلال الدولة السلجوقية بعد
وفاة ملكشاه : ٣٧ — ضعف مركز الخلافة فى العصر السلجوقى : ٣٨ — حالة
أقاليم الدولة العباسية فى أواخر العصر السلجوقى : ٤٦ . ➔

الباب الثانى

النزاع بين أبناء البيت السلجوقى

- نشأة النزاع وعوامله : ٥١ — الدور الأول ، عقب وفاة ملكشاه :
٥٤ — الدور الثانى ، عقب وفاة محمد بن ملكشاه : ٥٩ — الدور الثالث ،
عقب وفاة محمود بن محمد بن ملكشاه : ٦١ — أثر النزاع بين السلاجقة فى انحلال
دولتهم ، ومحاولة الخلفاء العباسيين استعادة نفوذهم : ٩٣ .

الباب الثالث

استفحال شأن طائفة الإسماعيلية

- جهود الفاطميين في نشر المذهب الإسماعيلي : ٦٧ — عوامل نجاح الدعوة :
٦٨ — نشأة الحسن بن الصباح : ٧١ — مراتب الدعوة : ٧٢ — طبقة الفدائيين :
٧٤ — الإسماعيلية بعد وفاة ملكشاه : ٧٦ — جهاد محمد بن ملكشاه ضد
الإسماعيلية : ٧٨ — سياسة سنجر بن ملكشاه إزاء الإسماعيلية : ٨١ — سياسة محمود
ابن محمد بن ملكشاه : ٨٢ — مقتل الخليفين المسترشد والراشد : ٨٣ — غارات
الإسماعيلية على البلاد الإسلامية : ٨٤ — سياسة المغول تجاه الإسماعيلية : ٨٧

الباب الرابع

قيام دول الأتابكة

- ضعف الدولة السلجوقية وأثره في قيام دول الأتابكة : ٩١ — اتساع نفوذ
الأتابكة بعد وفاة ملكشاه : ٩٥ — دول الأتابكة : دمشق ٩٧ ، الموصل ٩٨ ،
حلب ١٠١ ، سنجار ١٠٣ ، الجزيرة ١٠٥ ، إربل ١٠٦ ، ديار بكر ١٠٦ ، أرمينية
١٠٧ ، أذربيجان ١٠٨ ، لورستان ١٠٩ ، فارس ١٠٩ ، كرمان ١١١ ، دولة خوارزم ١١٢

الباب الخامس

حالة مصر والشام

- مصر والشام قبل مجيء الحملة الصليبية الأولى : ١١٧ — الحرب الصليبية
الأولى وتكون الإمارات الصليبية في بلاد الشام : ١١٩ — الحرب الصليبية الثانية :
١٢٠ — نور الدين وجهاده ضد الصليبيين : ١٢١ — صلاح الدين الأيوبي
وجهاده ضد الصليبيين : ١٢٢ — مصر والشام في عهد خلفاء صلاح الدين : ١٢٧

خاتمة

حول الغزو المغولي

الهجرات القبليّة من شمال شرق آسيا : ١٣٧ — ظهور جنكيزخان : ١٣٨ —
قوانين المغول في عهد جنكيزخان : ١٣٨ — غزو جنكيزخان للبلاد الإسلاميّة :
١٤٠ — نظام المغول الحربى : ١٤٢ — ضعف الدولة الخوارزمية : ١٤٣ —
الخوارزميون بعد الغزو المغولى : ١٤٥ — أثر زوال الدولة الخوارزمية فى
اتجاه المغول إلى أملاك الخلافة : ١٤٦ — حملة هولاكو والقضاء على الخلافة
العباسية : ١٤٧ .

الجدول

صفحة	
١٥٣	١ — الخلفاء العباسيون قبل انتقال مركز الخلافة إلى سامرا .
١٥٤	٢ — الخلفاء العباسيون فى سامرا
١٥٥	٣ — الخلفاء العباسيون تحت سيطرة الأتراك فى بغداد .
١٥٦	٤ — الخلفاء العباسيون فى عصر بنى بويه
١٥٧	٥ — الخلفاء العباسيون منذ العصر السلجوقى حتى سقوط بغداد .
١٥٨	٦ — الأسيرة السلجوقية وفرعها فى سوريا
١٥٩	٧ — سلاجقة العراق وفارس منذ عصر ملكشاه
١٦٠	٨ — الإسماعيلية فى فارس
١٦١	٩ — أتابكة دمشق
١٦٢	١٠ — أتابكة الموصل
١٦٣	١١ — أتابكة حلب
١٦٤	١٢ — أتابكة سنجار
١٦٥	١٣ — أتابكة الجزيرة

صفحة	
١٦٦	١٤ — أتابكة أرمينية
١٦٧	١٥ — أتابكة أذربيجان
١٦٨	١٦ — أتابكة فارس
١٦٩	١٧ — أتابكة كرمان
١٧٠	١٨ — شاهات خوارزم
١٧١	١٩ — خانات المغول منذ جنكيز خان حتى كوبلاي خان

الخرائط

مقابل صفحة	
١٧	١ — سوريا والعراق وما بين النهرين
٥١	٢ — بلاد فارس
٩١	٣ — الشرق الإسلامي بعد عصر ملكشاه

اللوحات

٢٤	١ — مئذنة المسجد الجامع في سامرا من القرن الثالث الهجري (٩م)
	٢ — «سماعة» باب من البرونز من صناعة بلاد الجزيرة أو العراق في القرن السادس الهجري (١٢ م)
٣٢	٣ — شمعدان من البرونز المطعم بالذهب والفضة من صناعة إيران أو العراق في القرن السابع الهجري (١٣ م)
٤٠	٤ — تمثال من الخزف الإيراني يرجع إلى القرن السابع الهجري (١٣م)
٤٨	٥ — إناء من الخزف الإيراني ذي الألوان المتعددة يرجع إلى القرن السابع الهجري (١٣م) ومحفوظ في المتحف البريطاني
٥٦	٦ — مجموعة من البلاط القاشاني ذي البريق المعدني من القرن السابع الهجري (١٣م)
٦٤	٧ — الحسن بن الصباح بين أتباعه
٧٢	

مقابل صفحة

- ٨ — إناء من الخزف الإيراني يرجع إلى القرن الرابع أو الخامس الهجرى (١٠ — ١١ م) ٨٠
- ٩ — إناء من الخزف الإيراني المتعدد الألوان وذى الزخارف البارزة يرجع إلى القرن السابع الهجرى (١٣ م)، ومحفوظ بالمتحف البريطاني ٨٨
- نقش بارز كان على باب الطلسم فى بغداد يرجع إلى القرن السابع الهجرى (١٣ م) ٨٨
- ١٠ — قطعة نسيج من الحرير ترجع إل العصر الساجوقى ٩٦
- ١١ — قنينة من الزجاج المموه بالمينا عليها كتابة تاريخية باسم الملك الناصر يوسف صلاح الدين الصغير الذى حكم حلب ودمشق وتوفى سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م)، ومحفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة ١٠٤
- ١٢ — قنينة من الزجاج المموه بالمينا من صناعة الشام فى القرن السابع الهجرى (١٣ م) وكانت محفوظة فى القسم الإسلامى من متاحف برلين ١١٢
- ١٣ — شمعدان من البرونز مؤرخ من سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ومحفوظ بمتحف الفنون الزخرفية فى باريس وعليه زخارف من موضوعات مسيحية ١٢٠
- ١٤ — منظر معركة لجيوش المغول فى مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين يرجع إلى نهاية القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ١٢٨

مقابل صفحة

- ١٥ — صورة تمثل فرسان جنكيز خان بعد غارة موفقة في آسيا الوسطى ، ترجع في الغالب إلى سنة ١١٦٤ هـ (١٧٥٠ م) . ١٣٦
- ١٦ — رسم يمثل جنكيز خان واقفا بباب خيمته الجميلة النقش ومن حولها خيام حاشيته ، في مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين ١٤٤

المصادر

صفحة

- ١ — المصادر العربية ١٧٢
- ٢ — المصادر الأجنبية ١٧٦

الكشاف

- ١ — أسماء الرجال والنساء ، والقبائل والشعوب ، والفرق الدينية ١٨١
- ٢ — أسماء المدن والأقاليم ، والأنهار ، والبحار ١٨٨

الباب الأول

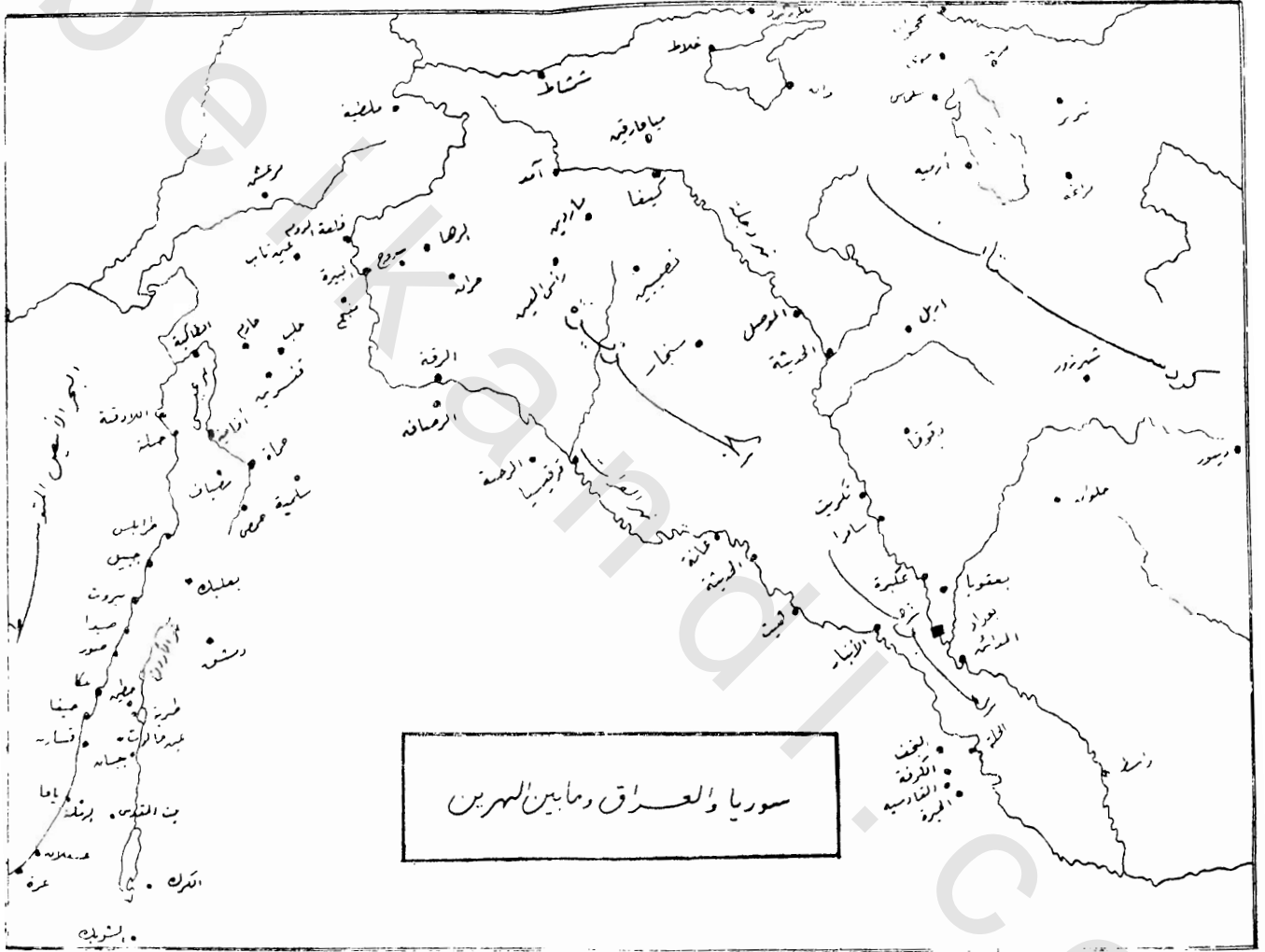
حالة الخلافة العباسية

(أ) الخلافة العباسية قبل العصر السلجوقي

نفوذ الفرس السياسى فى الدولة العباسية . نفوذ العرس الدينى . نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية . انتقال مركز الخلافة إلى سامراء . إعادة مركز الخلافة إلى بغداد . نقص نفوذ الخنفاء فى أقاليم الدولة العباسية . نفوذ البويهيين فى بغداد . حالة أقاليم الدولة العباسية فى عهد البويهيين .

(ب) الخلافة العباسية فى العصر السلجوقي

ظهور السلاجقة ودخولهم بغداد . العصر الذى انتهى للدولة السلجوقية . انحلال الدولة السلجوقية بعد وفاة ملكشاه . ضعف مركز الخلافة فى العصر السلجوقي . حالة أقاليم الدولة العباسية فى أواخر العصر السلجوقي .



الباب الأول

حالة الخلافة العباسية

(١) الخلافة العباسية قبل العصر السلجوقي^(١)

من الصعب أن نشرع في تصوير حال الشرق الإسلامي عامة والخلافة العباسية خاصة ، عندما هم المغول باجتياح غربي آسيا ، من سنة ما أو من حادث تاريخي معين ، إذ أن ما أصاب الخلافة العباسية من ضعف ، وما أصاب الشرق الإسلامي من محن ، كان وليد حوادث كثيرة متتابعة ، سياسية ودينية واجتماعية ، نشأت مع الخلافة العباسية منذ قيامها ، وليس هناك من شك في أنه من أعسر العسر أن نفصل هذه الحوادث بعضها عن بعض ، إذ أن اللاحق منها وليد السابق . وقد عمدت هنا إلى أن أتبع ، في إيجاز ، تلك الحوادث والظروف التي أدت إلى إضعاف الخلافة العباسية ثم زوالها في النهاية . وقد قسمت الكلام على هذا الموضوع قسمين : تكلمت في القسم الأول عن حالة الخلافة العباسية حتى دخول السلاجقة بغداد ، وتكلمت في القسم الثاني عن الخلافة العباسية في ظل الحكم السلجوقي .

• • •

نعلم من دراستنا للتاريخ الإسلامي بوجه عام وتاريخ بني العباس بوجه خاص ، أن الدولة العباسية قد نشأت نشأة فارسية ، إذ أنها قامت على

(١) يكتب هذا الاسم بطرق مختلفة : فنراه في غالبية المراجع العربية « ساجوق » ، ونراه في بعض المراجع العربية الأخرى « ساجق » ومن هذه المراجع كتاب تاريخ دولة آل ساجوق لعماد الدين الأصفهاني والذي اختصره الفتح بن علي البنداري ، إذ على الرغم من ذكر حرف « الواو » في عنوان الكتاب فإن هذا الحرف قد حذف من صفحاته . ويكتب هذا الاسم أيضا « ساجك » كما جاء في كتاب ديوان لغة الترك لمؤلفه محمود الكاشغري . ويكتب أيضا « ساجوق » كما وجدته في كثير من المراجع والكتب التركية ، وأذكر على سبيل المثال منها كتاب أورثا آسيا لبارتولد Barthold ، وكتاب تاريخ گلشن معارف لمحمد سعيد ، وكتاب عثمانى تاريخى لأحمد رامى .

أكتاف الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم مساواتهم بالعرب في الحقوق السياسية والاجتماعية ، مع منافاة ذلك لمبدأ المساواة الذي أقره القرآن والسنة .^(١) لذلك نجد العباسيين الذين كانوا يدينون للفرس بقيام دولتهم ، يتشيعون لكل ما هو فارسي ، فلا تعجب بعد ذلك إذا وجدنا العنصر الفارسي يسيطر على كل ناحية من نواحي الحياة في الدولة ، إذ بقدر ما كان العباسيون ينحرفون عن العنصر العربي ، كانوا يقربون العنصر الفارسي ، فاعتمدوا على الفرس في نصريف شئون دولتهم ؛ وليس أدل على ذلك من أن الوزارة ظلت في العصر العباسي الأول ، احتكارا للوالي . ومن أقرب الأمثلة على صحة ما نقول ، ما كان من أمر أسرة البرامكة التي تنتمي إلى أصل فارسي ، سواء أكان ذلك من ناحية العنصر أم من ناحية الدين ، فقد كان جدهم « برمك » فارسي الأصل ، يذكر البعض أنه مجوسي الدين من عبدة النار^(٢) ، ويذكر فريق آخر من المؤرخين المحدثين أنه كان يدير معبداً بوذياً في مدينة بخارى^(٣) . وقد بلغت هذه الأسرة أوج عظمتها في عهد الرشيد الذي ترك لوزيره يحيى بن خالد البرمكي كل ما يتعلق بأمر الدولة من تولية الحكام وعزلهم ، بل ترك له شئون الدولة المالية من دخل وخرج ، وبلغ من اتساع نفوذ هذه الأسرة وعظم سلطان أفرادها ، أن الأموال كانت لا تصل الرشيد إلا عن طريقهم^(٤) . وما يدل على أن أمور العباسيين قد انتقلت إلى أسرة البرامكة ، وأن أفراد هذه الأسرة أخذوا يصرفون شئون الدولة دون الرجوع إلى الرشيد نفسه ، أن جعفر البرمكي أعطى أحد أفراد الأسرة العباسية وهو عبد الملك بن صالح ألف ألف

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ٦٣ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ١٧٣ .

(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 294.

(٤) الدكتور حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ١٥١ .

درهم^(١) ، وولى ابنه مصر ، بل وزوج هذا الابن من ابنة الرشيد ، كل هذا دون أن يعلم الرشيد نفسه^(٢) . وإن أغرب ما في هذه الأمور الثلاثة هو زواج ابنة الرشيد دون علم منه ، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على قوة الأسرة البرمكية الفارسية .

كذلك ظهر التأثير الفارسي في الحركات الدينية التي امتلأ بها العصر العباسي الأول والتي لبست ثوباً سياسياً ، وأراد بها زعماؤها القضاء على العنصر العربي وإعادة التراث الفارسي القديم ، مما شغل الخلفاء العباسيين في هذا العصر . ومن هذه الحركات ، حركة « الراوندية »^(٣) ، التي ظهرت في عهد الخليفة المنصور . وترجع تعاليم هذه الحركة إلى التعاليم الفارسية القديمة التي تقوم على تقديس الملوك وتأليههم وإباحة المحرمات . لذلك لا نعجب إذا رأينا أتباع هذه الحركة يقدسون الخليفة المنصور ويرفعونه إلى مصاف الآلهة . ولم يأل هذا الخليفة نفسه جهداً في القضاء على هذه الفئة لمنافاة مبادئها مبادئ الدين الإسلامي ، ولأن السكوت عليها كان من شأنه إثارة حفيظة العرب عامة^(٤) .

وقد ظهرت حركة أخرى مماثلة لحركة الراوندية ، من حيث أصلها الفارسي تسمى « المقنعية » ، نسبة إلى زعيمها المقنع الذي اتخذ لنفسه وجهاً من ذهب ، وادعى الألوهية ، وأسقط الزكاة والصوم والحج ، وأباح الأموال والنساء ، ونشر تعاليم مزدك ، ودعا الناس إلى عبادته ، فلما كثر أتباعه وأصبحوا يهددون الدولة لم يتردد الخليفة المهدي في إبادة^(٥)هم . كذلك

(١) كان الدرهم يساوي أربعة قروبي تقريباً ، وعلى هذا الأساس يوازي هذا المبلغ حوالي أربعين ألفاً من الجنيحات المصرية . وما هو جدير بالذكر في هذا المقام ، أن الدينار كان يساوي في ذلك الوقت اثني عشر درهماً .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ١٨٢ .

(٣) سميت حركة الراوندية بهذا الاسم نسبة إلى مدينة « راوند » القريبة من أصفهان ، وكانت مهد دعوتهم .

(٤) الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ ص ٩٣-٩٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٢-١٠٣ .

نجد جماعة «الخزمية»^(١) أتباع بابك الخرمي، الذي تعد حركته استمراراً لحركة الراوندية والمقنعية . وكان أهم أغراض هذه الجماعة تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس المجوس . وكان أتباع هذه الحركة إباحيين ، نادوا بالمحرمات ودعوا إلى الاشتراكية في النساء ، وقد تم القضاء على بابك في عهد الخليفة المعتصم^(٢) . ثم نجد فئة «الزنادقة» ، وتقوم حركتهم على نوع من الديمقراطية الفاسدة التي تبيح المحرمات . وقد أصبحت هذه الفئة خطراً على الدولة والدين معاً ، إذ أن أتباعها كانوا لا يتبعون الديانة المانوية فحسب ، بل منهم من اتبع الديانة المزدكية الإباحية ، لذلك اهتم الخلفاء بهذه الحركة ، ونكل الخليفة العباسي المهدي بأتباعها .

ولم تكن هذه العناصر الفارسية هي كل ما أدى إلى الاضمحلال التدريجي للدولة العباسية ، بل نجد أن العنصر التركي الذي بدأ نفوذه يتغلغل في جسم الدولة قد لعب دوراً كبيراً في هذا الشأن . ومن الغريب أن الخلفاء العباسيين قد آثروا هذا العنصر على سواه من العرب والفرس ، فكانت النتيجة أن زادت حالة الدولة العباسية سوءاً .

كانت المنطقة الواقعة في شمال بلاد الصين منذ بدء التاريخ ، عبارة عن يذبوع تخرج منه القبائل الرحل التي لا تلبث أن تتجمع في شكل هجرات عامة تكتسح ما جاورها من البلاد تحت تأثير عوامل عدة . وكان الموطن الأصلي للعناصر التركية في جبال ألنای، في منطقة تدعى كين شان Kin-Shan^(٣)، وكانت تعيش بطبيعة الحال عيشة جافة قوامها الرعي والتنقل من مكان إلى مكان سعياً وراء الرزق القليل من العشب ويحدث أن تتجمع بعض القبائل التركية وتتوحد بفضل مجهود شخصية قد تبرز في وقت ما ، ثم تندفع في هجرة

(١) يقال إنهم سمو بهذا الاسم نسبة إلى «خرما» امرأة مزدك .

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام العباسي، ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٦ .

(٣) Czaplicka : The Turks of Central Asia, p. 71.

عامة تكتسح الأقاليم المجاورة نتيجة لعوامل طبيعية واقتصادية ؛ فقر يدفعها من الخلف وجشع مادی يستميلها من الأمام . وقد يكون تكاثر عددها وعدم تحمل البيئة الأصلية لهذا العدد المتزايد من السكان ، من أكبر العوامل التي تؤدي إلى هجرة هذه القبائل . وقد ينتهي بها المطاف إلى حضارة قديمة تهر أبصارها فتندفع إلى أراضيها ، في جماعات تدفع بعضها بعضا . وكان الأتراك منذ نشأتهم صناعات مهرة ، ولعل ذلك يرجع إلى غنى جبال ألتاي بثروتها المعدنية ، مما ساعدهم على الفتح والغزو والنهب ، فاستطاعوا في أوائل القرن السادس الميلادي أن يخضعوا آسيا الوسطى بما أوتوا من قوة ، أكسبتهم إياها ثروتهم المعدنية ومعيشتهم التي تقوم على التقشف . وقد انفصل هؤلاء عن الأتراك في شرق آسيا ووقعوا تحت سيطرة الثقافة الإسلامية حين خضعت بلاد فارس للمسلمين^(١) . وهكذا نرى أن سيل الأتراك الجارف كان لا ينقطع في سيره نحو الغرب حيث الأراضي المتاخمة للبلاد الإسلامية . وكان الأتراك يتنقلون من جهة إلى أخرى محاولين إحداث ثغرات ينفذون منها إلى أراضي الدولة الإسلامية . فنجد في أواخر القرن الثامن الميلادي قبيلتين تركيتين على حدود بلاد ما وراء النهر : قبيلة الكارلوك^(٢) في أعالي نهر سيحون ، وقبيلة الغز في شمالها ، كما نجد جماعة القراخانية Kara Khanids في مدينة كاشغر وحولها ، وهم فرع من قبائل الترك وإن كان أصلهم غير معروف على وجه التحديد ، على أنه يقال إنهم دخلوا في حظيرة الإسلام في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)^(٣) .

(١) Czaplicka : The Turks of Central Asia, p. 72.

(٢) ذكر لي الأستاذ المستشرق فلاديمير مينورسكي V. Minorsky أنه كان من حسن حظي أن اجتمعت به مرارا أثناء زيارته لمصر وافدت من علمه الكثير ، ذكر لي أن أسماء القبائل التركية تكتب بطرق مختلفة تبعاً لاختلاف اللهجات بين هذه القبائل . مثال ذلك قبائل الكارلوك التي نحن بصددنا فتكتب بالطرق الآتية : كخشخ ، كخرشخ ، كخرشك ، فارلوك .

(٣) Ross : The Empire of the Seljuk Turks, p. 2779. (The Universal History of the World, vol. 5.)

وكان المسلمون يخطفون الأطفال من الأتراك المقيمين على الحدود ويسوقونهم إلى أسواق النخاسة ، فرأى الخلفاء فيهم جال الخلقة ، فأكثرُوا منهم في بلاطهم وعهدوا إليهم بوظائف الخدم وتنظيم القصور ، بل نجد من بينهم من بلغ أعلى المراتب في الجيش وفي البلاط^(١) .

ويعتبر الخليفة المعتصم أول من ألقى بهؤلاء الأتراك في ميدان السياسة في الدولة العباسية ، وربما كان في ذلك متأثراً بأمة التركية الأصل ، فاستعان بالأتراك وأهمل العنصرين العربي والفارسي^(٢) . وكان المعتصم يرسل في شرائهم من نواحي سمرقند وفرغانة ، ثم يلبسهم أحسن الملابس وأتمها^(٣) . والمهم أن الخليفة المعتصم ، اتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام سبباً للاعتماد عليهم فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقلدهم الولايات الكبيرة ، وأدر عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء ،^(٤) .

ومما يدل على عظم اعتماد المعتصم على هؤلاء الأتراك ، أن حرسه الخاص بلغ أربعة آلاف منهم^(٥) . وقد أخذ نفوذ الأتراك يزداد في الدولة بخطوات واسعة ، حتى أن الخلفاء كانوا يقطعونهم الولايات الإسلامية نظير جزية معينة يؤدونها لدار الخلافة ، على نحو ما كان متبعاً في نظام الإقطاع في أوروبا في العصور الوسطى . وقد ظن الخلفاء ، أنهم باعتمادهم على أمانة هؤلاء الأجانب الذين اشتروهم بالمال ، يكونون أكثر طمأنينة على أنفسهم من اعتمادهم على أبناء جلدتهم من العرب الذين عرفوا بالغيرة

(١) Curtin : The Mongols' History, p. 93.

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ ص ١٧١ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٢٣ .

(٤) الدكتور حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ٢٢٩ .

(٥) Hitti : History of the Arabs, p. 466.

والحسد ، أو على الفرس الذين تفاقم نفوذهم حتى عده الخلفاء العباسيون مهدداً لسكان دولتهم وسلامتها ،^(١) .

وقد تفاقم أمر الأتراك في بغداد في عهد الخليفة المعتصم نفسه ، وأصبح هؤلاء يدوسون النساء والأطفال بخيولهم ، وانتهى الأمر بأن شكا أهل بغداد للمعتصم الذي لم يجد مخرجاً من هذا المأزق إلا أن يبنى لهم مدينة سامرا سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م)^(٢) . على أن الأمر لم يقتصر على ذلك ، بل انتقل مركز الخلافة أيضاً من بغداد إلى هذه المدينة . وقد استفحل أمر هؤلاء الأتراك حتى أصبح بأيديهم عزل وتعذيب وقتل من يعارضهم من الخلفاء ، وتولية آخرين ممن يوافقون أهواءهم . وعلى هذا النحو أصبح الخلفاء العباسيون العوبة في أيدي الأتراك .^(٣)

وقد لاقى الخلفاء العباسيون في هذه الفترة كل امتهان لكرامتهم على أيدي هؤلاء الأتراك ، فثلاث نراهم يحرضون المنتصر بن الخليفة المتوكل على قتل أبيه فقتله^(٤) ، حتى إذا ماتولى المنتصر الخلافة وشعر باستبداد الأتراك أخذ يسبهم ويلقبهم « بقتلة الخلفاء » ، فكانت النتيجة أن أوعزوا إلى طبيبه بدس السم له فمات^(٥) . ونلاحظ أن الأتراك استبدوا بالسلطة تماماً بعد مقتل المتوكل ، واستضعفوا الخلفاء ، حتى كان الخليفة في يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه .^(٦) وليس أدل على مبلغ استفحال أمرهم وعظم نفوذهم من أنه لما ولي الخليفة المعتز الخلافة

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٣) انظر الجدول رقم (٢) ، وبين خلفاء الدولة العباسية الذين عاشوا تحت سيطرة الأتراك في سامرا .

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٣٣ .

(٥) المرحم نفسه ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٦) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ٢١٥ .

جمع خواصه بعض المنجمين وقالوا لهم : « انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة . وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . فقالوا له : فكلم تقول إنه يعيش وكم يملك ؟ قال : ما أراد الأتراك ^(١) . ولا شك أن هذا القول كان بعيداً جداً عن المبالغة ، إذ حدث بعد ذلك أن قام الأتراك بالثورة ضد المعتز ، وطلبوا إليه بعض المال ، فلما اعتذر بخلو خزائنه ، اتفقوا على خلعه وقتله ، فلما ذهبوا إلى بابه ، أرسلوا إليه ليحضر إليهم ، ولما اعتذر بسبب مرضه وتعاطيه الدواء ، هجموا عليه وأخذوا يكيلون له اللسكات ، ومنقوا ثيابه ، ووضعوه تحت أشعة الشمس المحرقة على قطعة أرض ساخنة كالجر ، ولما لم يحتمل ما كانت عليه الأرض من سخونة ، كان يرفع قدماً ويضع أخرى . وفي هذه الأثناء ، كان البعض يلطمه وهو يتقى اللكمات بيده ، وأخيراً وضعوه في بيت وسدوا بابه ، وتركوه فيه حتى مات ، بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه ^(٢) . ولما أعيد مركز الخلافة العباسية من سامرا إلى بغداد في عهد الخليفة المعتضد ، لم يتغير تيار الحوادث ، فقد استمرت القوة الحقيقية في أيدي قواد الجيوش من الأتراك ^(٣) . وظل الحال على هذا النحو حتى دخل البويهيون بغداد سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) . وإن تاريخ بني العباس في هذه الفترة ، أي منذ تركوا سامرا وعادوا إلى بغداد حتى بداية عصر بني بويه ^(٤) ، لا يخرج عن كونه سلسلة مستمرة من المنازعات بين الخلفاء من جهة وبين الأتراك من جهة أخرى ، على أن نتيجة هذا النزاع كانت واحدة دائماً وهي الفوز الأتراك والذلة للخلفاء . وقد حاول الخليفة الراضى أن يقلل الخلافة من عثرتها ، فأوجد منصباً جديداً أطلق على صاحبه « أمير الأمراء » ، وهو

(١) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ٢١٥ .

(٢) المرجع نفسه والصفحة .

(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 468.

(٤) انظر الجدول رقم (٣) في آخر الكتاب .

منصب يعلو منصب الوزير ، إذ كان من حق من يتولى هذا المنصب أن يتصرف فى كل شئون الدولة ، فى رأس الجيش ويسيطر على مالية الدولة ، وله أن يولى ويعزل من الحكام من يشاء ، وفوق ذلك فقد كان اسمه يذكر فى خطبة الجمعة ^(١) . وقد تقلد هذا المنصب فى عهد الخليفة الراضى محمد ابن رائق ، أمير واسط ، الذى آلت إليه السلطة فى الدولة العباسية سنة ٣٢٤هـ (٩٣٥ م) فركزها فى شخصه ، وأبطل أمر الوزارة ، كما أبطل الدواوين ، وغل عمل بيت المال ، وأمر بأن تحمل إليه الأموال . وعلى هذا الأساس أصبح الخليفة العباسى لا يملك من الخلافة إلا اسمها . ^(٢)

ولم تستفد الدولة العباسية شيئاً من هذا النظام الجديد ، بل على العكس زادت حالتها سوءاً ، إذ تفاقم النزاع بين الأتراك على هذا المنصب مما أدى ازدياد حالة الفوضى فى البلاد ، كل ذلك والخليفة لا يملك إلا ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة . ولم يجد الخلفاء فى النهاية من وسيلة إلا الالتجاء إلى بنى بويه ، فكانوا فى ذلك كمن استجار من الرمضاء بالنار .

وإذا كانت الخلافة العباسية قد ضاعت هيبتها وسطوتها على هذه الصورة التى رأيناها ، فلم يكن هناك بد من أن يدب الانحلال والتفكك إلى الدولة الإسلامية حيث نشأت فى أنحائها المختلفة دويلات مستقلة انفصلت عن جسم الخلافة العباسية ، واستطاع بعض ذوى النفوذ الدينى والسياسى أن يؤسسوا لأنفسهم فى بقاع الدولة المختلفة ، منتهزين فرصة ضعف الخلافة العباسية فى بغداد فى هذه الفترة . فظهرت دولة الأدارسة الشيعية فى مراكش (١٧٢ - ٣٦٤ هـ = ٧٨٨ - ٩٧٤ م) ، واتخذ حكامها مدينة فاس حاضرة لهم . وتأسست أيضاً دولة الأغالبة السنية فى تونس (١٨٤ - ٢٩٦ هـ = ٨٠٠ - ٩٠٩ م) ، واتخذ حكامها مدينة القيروان حاضرة

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ٧٦ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٦٠ .

لهم^(١) . وعلى أنقاض هاتين الدولتين تأسست الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا فيما بعد (٢٩٧ — ٣٥٨ هـ = ٩٠٩ — ٩٦٩ م) .

وإذا انتقلنا إلى مصر نجد الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ — ٩٠٥ م) ، التي أسسها أحمد بن طولون ، ثم مد نفوذه إلى سوريا سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م) . وتلت الدولة الطولونية دولة تركية الأصل أيضاً هي الدولة الإخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ = ٩٣٥ — ٩٦٩ م) ، التي أسسها محمد بن طنج الإخشيد بتقليد من الخليفة الراضى^(٢) ، واستطاع بعد ذلك أن يسيطر نفوذه على سوريا وفلسطين ويخضع لسلطانه مكة والمدينة . واستمرت مصر في أيدي الإخشيديين حتى آلت إلى الفاطميين سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) .

أما في شرق العالم الإسلامي . فنجد الدولة الطاهرية في خراسان (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ = ٨٢٠ — ٨٧٢ م) التي أسسها طاهر بن الحسين ، واتخذ مدينة مرو حاضرة له ، وقد وسع خلفاؤه أملاكهم حتى حدود الهند ونقلوا حاضرتهم إلى نيسابور وظلوا بها حتى زالت دولتهم وحلت محلها الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ = ٨٦٧ — ٩٠٣ م) التي أسسها يعقوب بن الليث الصفار ، الفارسي الأصل . وقد امتدت أملاك هذه الدولة فشملت بلاد فارس وبعض بلاد الهند بل هددت بغداد نفسها في عهد الخليفة المعتمد . وقد ورثت الدولة السامانية هذه الدولة حيث أسست لنفسها في بلاد ما وراء النهر وفارس (٢٠٤ — ٣٩٥ هـ = ٨١٩ — ١١٠٤ م)^(٣) ،

(١) انظر كتاب : *Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie*, pour L'Histoire de L'Islam, pp. 65-67.

Lane-Poole : *The Mohammadan Dynasties*, pp. 35 - 37.

(٢) انظر زامبور *Zambour* ص ٩٣ ، لينبول Lane - Poole ص ٦٨ — ٦٩ .

(٣) انظر زامبور *Zambour* ص ١٩٧ — ٢٠٢ ، لينبول Lane-Poole ص ١٢٨ — ١٣٣ .

واستطاع نصر بن أحمد الساماني وخلفاؤه من بعده أن يمدوا نفوذهم على سجستان وكرمان وجرجان والري وطبرستان ، هذا بالإضافة إلى أملاكهم الرئيسية في بلاد ما وراء النهر وخراسان ، واتخذ السامانيون مدينة بخارى حاضرة لهم ، بل ونافست إحدى مدنها ، وهي سمرقند ، مدينة بغداد في علومها وفنونها .

وقد نشأت دويلات أخرى في هذه الفترة في أماكن مبعثرة من أراضي الدولة العباسية ، أضعفت وحدة العالم الإسلامي وجعلته أشبه شيء بالعصر الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى^(١) .

وهكذا نجد الخلافة العباسية عند ما دخل البويهيون بغداد قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف وأصبحت كالمريض الذي ينتزع أنفاسه انتزاعاً . كذلك نجد أن أملاكها قد ضاعت وتنازعتها الأيدي المتعددة ، وأصبح نفوذ الخليفة العباسي لا يتعدى بغداد نفسها ، ومع ذلك فقد انتزع الأتراك نفوذه فيها ، كما رأينا .

• • •

ظهر البويهيون حوالي عام ٥٣٢٢ هـ (٩٣٤ م) ، وهم فئة شيعية من أبناء بويه الذي نشأ في إقليم مازندران^(٢) . وكان بويه قائد قبيلة تركية دخلت في خدمة السامانيين تارة ، وفي خدمة الإسماعيلية جنوبى بحر قزوين تارة أخرى .

(١) من هذه الدولة الزيدية في طبرستان (٢٥٠ — ٤٢٤ = ٨٦٤ — ١٠٣٢ م) ، والدولة الساجية في أذربيجان (٢٦٦ — ٣١٨ = ٨٧٩ — ٩٣٠ م) ، والدولة الدافية بكرديستان (٢١٠ — ٢٨٥ = ٨٢٥ — ٨٩٨ م) ، والدولة الرسية في اليمن (٢٨٠ — ٧٠٠ = ٨٩٣ — ١٣٠٠ م) ، والدولة اليعفرية بسنما (٢٤٧ — ٣٨٧ = ٨٦١ — ٩٩٧ م) .

Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie , راجع كتابي
pp. 116, 122, 123, 179, 192, 199.

Laue-Poole : The Mohammadan Dynasties, pp. 91, 102, 125 - 127.

Fraser : Historical and Descriptive Account of Persia, p. 213. (٢)

وبعد أن تخلص هؤلاء من هذه التبعية ، ساروا إلى الجنوب واحتلوا إقليم فارس ، وساعدهم على ذلك ما سبق أن ذكرناه من ضعف الخلافة في بغداد ، واضمحلال هيبتها ، وتقلص أملاكها في الشرق والغرب .

وقد بلغ الاضطراب في بغداد في عهد الخليفة المتقي درجة كبيرة حتى اضطر هذا الخليفة أن يفر من بغداد ويطلب معونة الحمدانيين ، ثم أخذ ينتقل شريداً بين الموصل ونصيبين ، بل إنه طلب معونة الإخشيد الذي عرض عليه أن يترك بغداد ويقيم معه في مصر ، على أن هذه الدعوة لم تلق قبولا لدى الخليفة^(١) ، فلما عاد إلى بغداد سمعت عيناه وخلق ، فتولى بعده الخليفة المستكفي الذي لم يكن أسعد حظاً من سلفه .

دخل أحمد بن بويه بغداد سنة ٥٣٣٤ (٩٤٥ م) ، فظن الخليفة المستكفي أن عهد الذلة والاستكانة قد زال . وأن عهداً رغداً قد بات ينتظر خلفاء بني العباس . لذلك نجد هذا الخليفة يستبشر بهذا العهد الجديد ، ويلقب أحمد ابن بويه « معز الدولة » ويلقب أخاه علياً « عماد الدولة » ، وأخاهما الحسن « ركن الدولة » ، وبالغ في إكرامهم ، فضرب ألقابهم على السكة .

على أن الخليفة المستكفي سرعان ما أدرك أن آماله لم تكن إلا سراباً خداعاً ، إذ أخذ معز الدولة يعمل على تقوية نفوذه شيئاً فشيئاً حتى انتهى به الأمر إلى الحجر على الخليفة ، ثم قدر له في اليوم خمسة آلاف درهم لينفق منها على نفسه^(٢) . وكان معز الدولة أول من قلب للخلافة ظهر المجن ، فعمل على إذلال الخليفة وإضعاف شأنه حتى تم له ما أراد . ومن أقرب الأمثلة على ذلك ما ذكره صاحب الفخرى في هذا الشأن ، إذ قال^(٣) :

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٦٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٦٣ . وقد ذكرنا من قبل أن الدرهم كان يساوي أربعة قروش مصرية تقريباً ، وعلى هذا الأساس فإن المبلغ الذي كان يتقاضاه الخليفة المستكفي في اليوم كان مائتين من الجنيهات المصرية على وجه التقريب .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ٢٥٢-٢٥٣ .

« إن معز الدولة » ركب يوماً إلى دار الخلافة وسلم على المستكني ،
« وقبل الأرض بين يديه . . . ثم تقدم إلى المستكني رجلان من ،
« الديلم بمواظاة معز الدولة فمدا أيديهما نحوه فظن المستكني أنهما ،
« يريدان تقبيل يده ، فمد يده ، فجذباه ونكساه من السرير ووضعاه ،
« عمامته في عنقه وسجباه . . . ودخل الديلم إلى حرم الخليفة ، ،
« وحُمل المستكني إلى دار معز الدولة ، فاعتقل بها ، وخلع من ،
« الخلافة ونهبت داره ، وسملت عيناه . .

وإذا تتبعنا الفترة التي حكم فيها بنو بويه بغداد (٣٢٤ — ٤٤٧ هـ)
٩٤٥ — ١٠٥٥ م) ، ألفيناها تنطوي على إذلال الخلفاء ، ويتجلى ذلك
في خلع بعضهم وتعذيب وتشريد البعض الآخر ، وانتهى الأمر بأن أصبح
البويهيون كل شيء في الدولة ، يصرفون شئونها على الوجه الذي يرتضونه .
فما أصدق صاحب الفخرى حين قال عن هذه الجماعة إنها « استولت على
الخلافة فعزلت الخلفاء وولتهم . واستوزرت الوزراء وصرفتهم ، وانقادت
لأحكامها أمور بلاد العجم وأمور العراق ، وأطاعتهم رجال الدولة
بالاتفاق » (١) .

ونحن نعلم أن البويهيين كانوا شيعيين حكموا سنين ، ورغم أن الأمر كان
بيدهم إلا أنهم لم يحاولوا إزالة الخلافة العباسية وإبدالها بخلافة علوية ، فلم
يعلن معز الدولة بن بويه هذا المذهب خوفاً من الثورات ، لا في بغداد
وحدها ولكن في كل الولايات الإسلامية أيضاً (٢) . وقد ذكر ابن الأثير
في هذا الصدد أن معز الدولة قد عدل عن فكرة إقامة خلافة علوية مكان
الخلافة العباسية بعد أن أشار عليه أحد رجاله بالعدول إذ قال له :
« إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من ،

(١) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ٢٤٤ .

(٢) Muir : The Caliphate, p. 578.

« أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ؛ ومتى ،
« أجلس بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت ،
« وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه . »^(١)

هكذا وصل الحال بخلفاء الدولة العباسية في عصر بني بويه ؛ وقد عجز
الخلفاء عن استرداد مكاتهم وباتوا يتطلعون إلى صديق يخلصهم من هذا
النير ، ولم يكن ذلك الصديق سوى طغرل بك السلجوقي كما سنرى .
وإذا نظرنا إلى أقاليم الدولة العباسية في هذه الفترة ، رأينا أن الفاطميين
منذ فتحوا مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ، أخذوا يعملون على نشر نفوذهم
السياسي والديني لا في بلاد الشام والحجاز فقط ، بل في كل أراضي الدولة
العباسية أيضا ، وقد نجح الفاطميون في ذلك عندما دخل عميلهم البساسيري
بغداد كما سنرى . أما عن الأقاليم الشرقية من أراضي الدولة العباسية ، فأم
ما يلاحظ في هذه الفترة أن الدولة الغزنوية (٣٥١ - ٥٨٢ هـ = ٩٦٢ -
١١٨٦ م) أخذت تتوسع تدريجياً على حساب الدولة السامانية^(٢) . وقد
أسس هذه الدولة ألبتكين التركي Alptigin^(٣) ، أحد الأرقاء في الدولة
السامانية ، وقد شغل منصب رئيس حامية خراسان ، ثم عين حاكماً عليها ،
ولكنه انتقل بعد ذلك إلى الأقاليم الشرقية من الدولة السامانية . وفي سنة
٣٥١ هـ (٩٦٢ م) تمكن من الاستيلاء على مدينة غزنة من حكامها الأصليين
وكون فيها نواة دولة مستقلة ، تحولت فيما بعد إلى الدولة الغزنوية في أفغانستان
وإقليم البنجاب . وقد استطاع سبكتكين^(٤) زوج ابنة ألبتكين ، أن يوسع
أملاكه حتى شملت بشاور في الهند كما شملت خراسان في فارس . ويعتبر
محمود بن سبكتكين (٣٨٨ - ٤٢١ هـ = ٩٩٨ - ١٠٣٠ م) ، أهم أعضاء
هذه الدولة ، فقد وسع نفوذه في بلاد الهند حتى شملت إقليم البنجاب بما في

(١) ابن الأثير . الكامل ، ج ٨ ص ١٧٧ .

(٢) انظر كتابي Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie ,
p. 282 .

ane-poole: The Mohammadan Dynasties, pp. 285 - 290 .

(٣) يكتب في الفارسية ألبتكين (٤) يكتب في الفارسية سبكتكين .

ذلك لاهور ومولتان وغيرها من بلاد الهند . أما في الغرب فقد وسع أملاكه حتى شملت العراق العجمي بما في ذلك الري وأصفهان . وقد استولى على هذه البلاد من أيدي البويهيين الشيعة ، ولما كان هو سنيا فقد سماه الخليفة القادر « يمين الدولة » ، ونقش اسمه على السكة . وقد شملت هذه الدولة مساحة كبيرة من أراضى المسلمين ، فإلى جانب العراق العجمي وشمال الهند ، ضمت خراسان وطخارستان بما في ذلك مدينة بلخ مركزها الرئيسي ، ثم جزءا من بلاد ما وراء النهر في الشمال ، وإقليم سجستان في الجنوب ، وكانت مدينة غزنة ، حاضرة هذه الدولة الواسعة ^(١) . وقد زين محمود الغزنوي هذه المدينة بالمباني الجميلة ، كما أنها أصبحت كعبة الشعراء والأدباء .

ولا يختلف حكام الدولة الغزنوية عن السامانيين والصفاريين من قبلهم من حيث الاعتماد على القوة وحدها ، بحيث أنه لما زالت هذه القوة بموت محمود الغزنوي ، بدأت هذه الدولة في الانحلال ، فنشأت إمارات إسلامية مستقلة في بلاد الهند ، وضاعت أملاك الدولة الغزنوية بين خانات التركستان وسلاجقة فارس ، كما استطاع الغوريون أصحاب أفغانستان أن يصوبوا لها الضربة القاضية ، إذ استطاعوا في سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) أن يقضوا على آخر الغزنويين في لاهور . ^(٢)

وقد استولى السلاجقة على أهم أقاليم هذه الدولة في الغرب إذ أنهم اضطروا إلى الهجرة إلى بخارى ، واستقروا في خراسان وازداد عددهم تدريجياً في عهد محمود الغزنوي نفسه ، ثم قوى نفوذهم بعد موته ، واستطاع قائدهم طغرل بك في سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) أن يثبت أقدامه في خراسان وأن يتخذ من نيسابور حاضرة له ^(٣) . وقد ساعد على وقوع هذه الأملاك

Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, (١)
vol. ii p. 68.

Hitti : History of the Arabs p. 465. (٢)

Fraser : Historical & Descriptive Account of Persia, pp. 214 - 215. (٣)

في أيدي السلاجقة ، اهتمام خلفاء محمود الغزنوي بأملاكهم في بلاد الهند وإهمالهم أملاكهم في بلاد فارس^(١) .

ونلاحظ أن الخلفاء العباسيين في عهد بني بويه كانوا قد فقدوا كل سيطرة حقيقية على أملاك الدولة العباسية في الشرق والغرب ، بل أصبح الخليفة في بغداد نفسها حبيساً في أيديهم ، ولم يعد يتمتع بشيء من النفوذ في أقاليم الدولة العباسية، ولا في بغداد نفسها .

وخلاصة القول ، فإن الخلافة العباسية في عهد بني بويه قد باتت تستند إلى قوة أسرة أجنبية ، ولم يعد للخليفة من الأمر شيء سوى سلطته الدينية ممثلة في ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة ، ولم يكن ذلك إلا لأغراض سياسية ، غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكزهم أمام الجمهور^(٢) . وقد ظل حال الخلافة على هذا النحو حتى دخل السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) .

× (ب) الخلافة العباسية في العصر السلجوقي

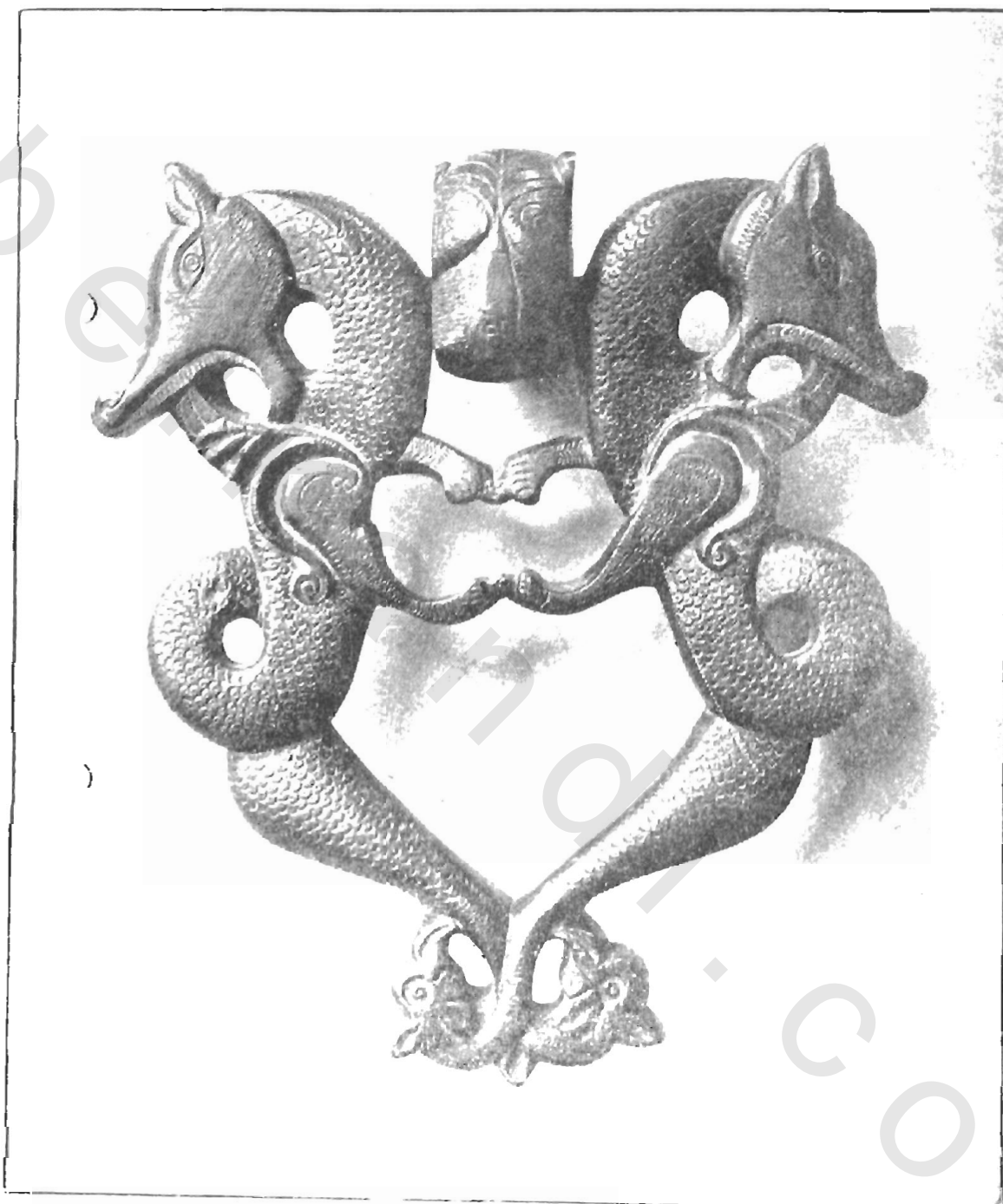
تفرع السلاجقة عن قبائل الغز ، كما تقدم ، وقد اندفعوا حوالى سنة ٥٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) من سهول تركستان . وسكنوا أول أمرهم في بلاد ماوراء النهر^(٣) ، حيث دخلوا في حظيرة الإسلام على مبادئ المذهب السني ، ودخل سلجوق وأبناؤه في خدمة السامانيين . وقد استطاع طغرل بك^(٤)

(١) Sykes : A History of Persia, p. 51.

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ٩٠ .

(٣) ابن العميد : تاريخ السلاجقة ، ص ٢٠٧ .

(٤) يكتب هذا الاسم أحيانا في مقامين متفصلين أى « طغرل بك » . انظر كتاب محمد سعيد : تاريخ گاشن معارف ، ج ١ ص ٣٥٧ وغيرهما من الصفحات . ويكتب أحيانا أخرى « طغرول » . انظر نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٦١ . وقد ذكر لي الأستاذ المستشرق فلاديمير مينورسكي V. Minorsky ، أنه من الجائز أن ندون الأسماء التركية دون كتابة ما فيها من حروف متحركة وضرب لي مثلا بأسماء القبائل الآتية ، التي يجوز كتابتها بأحد الوضعين الآتين : =



١ سماعة ، باب من البرونز من صناعة بلاد الجزيرة أو العراق في القرن السادس الهجري (١٢ م) .

(عن كتاب المدين وفنون الإسلام للدكتور تركي محمد حسن)

حفيد سلجوق أن يغامر بجيوشه حتى وصل إلى خراسان . وفي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ، وضع السلاجقة أيديهم على مرو ونيسابور من ممتلكات الغزنويين ، ثم أضافوا إليهما بلخ وجرجان وطبرستان وخوارزم وهمذان والري وأصفهان ، وانتهى الأمر بأن ضعف نفوذ البويهيين أمامهم . وفي هذه الأثناء كان الخليفة العباسي القائم يترشح تحت حكم البساسيري الذي كان يملوكا تركيا من مماليك بهام الدولة بن عضد الدولة بن بويه . وقد صور ابن العميد نفوذ البساسيري في العراق في عبارته التالية :

« وكان قد عظم قدره بالعراق واستفحل فطار اسمه ،
« وعظمت هيئته وخافته أمراء العرب والعجم ، وخطب له على ،
« منابر العراق ولم يبق للملك الرحيم بن بويه إلا مجرد الاسم ، ثم ،
« بلغ الخليفة القائم بأمر الله أن البساسيري قصد دار الخلافة ،
« للقبض عليه . »^(١)

وقد استطاع البساسيري فعلا أن يقبض على الخليفة القائم وأن يسجنه في قلعة الحديثه^(٢) ولم يكن هناك من سبيل أمام الخليفة ، للنجاة من هذا الطاغية المتعصب للذهب الشيعي ، إلا أن يستنجد بطغربك السني المذهب ، وكان إذ ذاك بمدينة الري^(٣) . فلما وصل طغربك إلى أبواب بغداد ، استأذن الخليفة في دخول المدينة فأذن له . وعلى هذا الأساس دخل بغداد دخول الظافر سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م)^(٤) ، واستقبل استقبالا عظيما شاهده

== سَكْفَرُ أَوْ سَالُور

بَايُنْدَرُ أَوْ بَابُونْدُور

أَيْشَرُ أَوْ أَوْيغُور

(١) ابن العميد : تاريخ الملوك ، ص ٢٧١ .

(٢) ابن طباطبا : المضى في الآداب السلطانية ، ص ٢٥٦ .

(٣) ابن العميد : تاريخ الملوك ، ص ٢٧١ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٢٥٤ .

كبار رجال الدولة وأعيانها ، كما كرمه الخليفة المغلوب على أمره أعظم تكريم
إذ أمر بأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة كما لقبه « ركن الدولة طغرل بك إمام
أمير المؤمنين » ،^(١)

وكان البساسيري قد هاجر من بغداد إلى الرحبة عندما علم بقدوم طغرل بك .
ولم يكن من المعقول أن يقف عند هذا الحد ، فكاتب الخليفة المستنصر
بالله الفاطمي صاحب مصر ، وخطب له بالرحبة فأمدّه بالأموال .^(٢) واستطاع
البساسيري أن يدخل بغداد ثانية على رأس قوة من السوريين سنة ٤٥٠ هـ
(١٠٥٨ م) ، منتهزا فرصة غياب طغرل بك عنها ، إذ كان في ذلك الوقت
مشغولا في إخضاع ثورة نشبت في شمال العراق . وقد خطب البساسيري
للخليفة المستنصر الفاطمي على منابر بغداد ، بل أدخل عبارة الفاطميين
المألوفة في الأذان وهي « حي على خير العمل » ،^(٣) كما أرسل الهدايا إلى
مصر ، ومن بينها عمامة الخليفة القائم وشباك جميل من شبابيك قصره ، كعلامة
على ما أحرزه من نصر . ولكن طغرل بك مالبث أن عاد إلى بغداد وقبض
على البساسيري وقتله سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) وأمعن في التتكيل به فأمر بأن
يحمل رأسه إلى دار الخلافة^(٤) ، واستقر الأمر بعد ذلك للسلاجقة في بغداد .

وكانت الفترة الواقعة بين سنتي ٤٤٧ — ٤٨٥ هـ (١٠٥٥ — ١٠٩٢ م) ،
أي منذ دخول طغرل بك بغداد حتى وفاة السلطان ملكشاه ، أزهى عصور
السلاجقة ، إذ كانت السلطة الزمنية مركزة في يد واحدة ، كما استطاع

(١) Defremery : Histoire des Seldjoukides ; Extraits des Tarikhi
Gazideh, ou Histoire Choisie d'Hamdullah Mustaufi, p. 427.
(Journal Asiatique, avril-Mai, 1848.)

(٢) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٧١ ، السبوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٧ .

(٣) ابن الأثير : السكامل ، ج ٩ ص ٢٦٧ .

(٤) المرجع نفسه ، ج ٩ ص ٢٧١ .

السلاجقة في هذه الفترة أن يوحّدوا عالماً إسلامياً لم يكن بالأمس غير اجزء متنافرة متعادية، بل إنهم أخذوا يوسعون أملاك المسلمين تدريجياً، ففري طغرل بك يمد نفوذه على بلاد الجزيرة وأرمينية، ولما توفي سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م)، استطاع خلفه ألب أرسلان^(١) أن يوسع نفوذه على حساب الدولة الرومانية الشرقية، حتى امتدت أملاك الدولة السلجوقية إلى بحر مرمرة بعد أن أحل الهزيمة بالإمبراطور البيزنطي رومانوس Romanus وأسرّه في موقعة ملازكرد سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧١ م)^(٢)، وفوق ذلك استولى السلاجقة على حلب سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م)، واستطاع ألب أرسلان بهذا النصر أن يحول دون توسع الفاطميين في هذه البلاد، بل استطاع أن يستولى على مكة والمدينة من أيديهم.

وقد استطاع السلطان ملكشاه ٤٦٥-٤٨٥ هـ (١٠٧٢-١٠٩٢ م) أن يخضع سوريا وجورجيا في الغرب، وبخارى وسمرقند وخوارزم في الشرق، كما استطاع بعد ذلك أن يعبر نهر سيحون ويخضع بلاد تركستان، وبلغ من عظم نفوذه في هذه البلاد أن صك اسمه على السكة وأقيمت له الخطبة في مدينة كاشغر. ومن ثم بلغت دولة السلاجقة في عصر ملكشاه درجة عظيمة من الاتساع، فامتدت من حدود الصين شرقاً إلى جورجيا والأراضي المجاورة لمدينة القسطنطينية غرباً، كما شملت بيت المقدس وبلاد العرب^(٣). فما أصدق ابن خلكان حينما وصف ملكشاه بقوله^(٤) :

(١) أرسلان لفظ تركي معناه أسد .

(٢) Defremery : Histoire des Seldjoukides ; Extraits des Tarikhi Ouzideh, ou Histoire Choisie d'Hamdullah Mustaufi, p. 427. (J. Asiat., Avril-Mai, 1848).

(٣) Gibbon : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol. vi, pp. 20-21.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٦٢ .

« فتح البلاد واتسعت عليه المملكة وملك ما لم يملكه ،
« أحد من ملوك الإسلام بعد الخلفاء المتقدمين ،

ومن الحق أن نعترف بأن السلاجقة إذا كان لهم من فضل على العالم الإسلامي فهو أنهم أزالوا الدويلات الصغيرة القائمة في ذلك الوقت ، وأوجدوا بدلا منها عالما موحدًا يأتمر بإمرة حاكم واحد دفعوا به البيزنطيين إلى الوراء ، كما أوجدوا جماعة من المحاربين المسلمين يرجع إليهم الفضل في فشل الصليبيين ^(١) . وكان ملكشاه دائم التنقل في مملكته يتفقد أمورها ويرعى مصالح سكانها ، وبذلك استطاع أن يحافظ على ما اكتسبه السلاجقة من مجد ، وأثار مخاوف الأوربيين ، كما أقض مضاجع البيزنطيين .

ولم يقل اهتمام ملكشاه بأمور دولته الداخلية عن اهتمامه بالتوسع في الفتح ، إذ تعددت مشروعاته في النواحي العمرانية ، فأسس المساجد في بغداد ، كما بنى المدرسة النظامية فيها بمساعدة وزيره نظام الملك ^(٢) . واهتم ملكشاه ووزيره بحفر القنوات وإقامة الأسوار حول المدن ، وتشديد القناطر ، ولم تكن عنايته بتشجيع العلم والعلماء بأقل مما سلف ^(٣) .

وكان اهتمام السلطان ملكشاه خاصة وسلاطين السلاجقة عامة بالفنون كبيرا ، وفي ذلك يقول الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن : ^(٤)

« وقد كان الأمراء السلاجقة يشملون الفنون برعايتهم في ،
« آسيا الصغرى والعراق وإيران ؛ ولكن العنصر التركي الذي ،
« ينتمون إليه لم يظهر تأثيره في العمار والتحف الفنية في عصرهم ؛ ،
« لأنهم كانوا يستخدمون أبناء البلاد أنفسهم في الأقاليم ،

(١) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 165.

(٢) Le Strange : Baghdad During the Abbasid Caliphate, p. 326.

(٣) Nicholson : A Literary History of the Arabs, p. 276.

(٤) الدكتور زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ، ص ١٨ .

« الإسلامية المختلفة ، ويشجعوهم بما يكلفونهم به من عمل أو ،
« يشترونه من تحف فنية . ومع ذلك كله فقد نشأ تحت ،
« رعايتهم طراز قائم بذاته ، امتاز بضخامة العائر واتساعها ،
« ومظهرها القوي ، كما امتاز أيضاً باستخدام رسوم الكائنات ،
« الحية محورة عن الطبيعة ، على النحو الذي امتازت به الفنون ،
« الإسلامية عامة . ومن مميزات الطراز السلجوقي ، عدا ذلك ، ،
« كثرة استخدام الزخارف المجسمة ولا سيما في وجهاً العائر . »

ولاشك أن جهود السلاجقة في العناية بالنواحي المختلفة للفنون الإسلامية قد أثمرت وظهرت نتائجها واضحة ، فنرى تجديداً خطير الشأن في الكتابة ، كما ظهرت في هذا العصر أولى مدارس التصوير في الإسلام ، وازدهرت صناعة التحف المعدنية ، والخزف ، والزجاج ، وكذا صناعة السجاد التي كانت قبل ذلك في يد القبائل الرحل في آسيا الوسطى (١) .

ومما هو جدير بالذكر أن سلاطين السلاجقة لم يتخذوا من بغداد مركزاً لهم حتى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) أي قبيل وفاة ملكشاه (٢) . إذ اختلفت حواضر سلاطين السلاجقة من سلطان لآخر ؛ فنرى أن طغرل بك الأول قد اتخذ من مدينة نيسابور حاضرة له ، وحكم ألب أرسلان في مدينة مرو كبرى مدن خراسان ، أما ملكشاه وأبناءؤه محمود وبركياروق ومحمد فقد حكموا في أصفهان ، على أن سنجر بن ملكشاه قد آثر الإقامة في مدينة مرو (٣) .
غير أن هذه الأمبراطورية الإسلامية القوية ، ما لبثت أن انهارت بعد وفاة السلطان ملكشاه لأسباب وعوامل عدة ، أهمها انقسام السلاجقة

(١) الدكتور زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، ص ١٨-٢٦. وانظر أيضاً كتاب فنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن ، ص ٨٦ - ١٠٠ ، ١٧٠ - ١٧٣ ، ٢٧١ - ٢٨٥ ، ٣٧٤ - ٣٧٦ ، ٤٧٨ - ٤٨٢ .

(٢) Hitli : History of the Arabs, p. 476.

(٣) Sanaullah : The Decline of the Saljuqid Empire, p. 39.

على أنفسهم ، بل ويمكن القول إن الفترة التي تلت عصر ملكشاه حتى نهاية الحكم السلجوقي في بغداد سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ، كانت فترة أهم حوادثها النزاع الداخلي الذي قام بين أبناء ملكشاه وأحفاده . فقد انصرف هؤلاء عن أمور الدولة ومصالحها ، وأخذ كل يسعى إلى مجد شخصي ، وكان من أثر ذلك أن انقسمت دولتهم إلى دويلات صغيرة عرفت بدول الأتابكة ، كما استفحل نفوذ طائفة الإسماعيلية التي أخذت تعمل على هدم كل القوى الموجودة في ذلك الوقت ، لترفع على أنقاض هذه القوى جميعها . وعلى هذا الأساس نرى هذه الطائفة تحارب السلاجقة ، وتجاهد ضد الخلافة العباسية ، فانضمت تارة إلى سلاطين السلاجقة في نزاعهم مع الخلافة ، كما انضمت تارة أخرى إلى الخلفاء العباسيين في نزاعهم مع كل من السلاجقة والخوارزميين ، ولذلك لم يسلم السلاجقة من خناجرهم ، كما لم يسلم منها الخلفاء العباسيون والخوارزميون .

• • •

رأينا أن الخليفة العباسي القائم استدعى طغرل بك السلجوقي لينقذه من تحكم البساسيري خاصة والبويهيين عامة ، وقد اعتقد العباسيون خطأ أنهم باستدعائهم السلاجقة ، قد استعادوا نفوذهم وسطوتهم ، وأنهم بذلك قد استبدلوا بما هم عليه من ضعف وذلة قوة وعزة . وقد انهار كل ما كان يعلقه الخلفاء العباسيون على استدعاء السلاجقة من آمال كبار ، فإن حالة العباسيين في أيام السلاجقة لم تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه في أيام البويهيين^(١) . فإذا كان البويهيون قد استبدوا بالسلطة وغلوا أيدي الخلفاء ، فإن هذه السلطة قد انتقلت برمتها إلى أيدي السلاجقة ففعلوا بالخلفاء ما فعله الأتراك والبويهيون بهم من قبل . وبما يدل على ضعف الخلفاء العباسيين في العصر السلجوقي أنهم كانوا يعيشون من إقطاعات مقرررة يأخذون دخلها^(٢) ،

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ٩٢ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٩١ - ٩٢ .

ولم يكن لهم من الأمر شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة ، وهذا بعينه ما كان يحدث في أيام البويهيين . ونلاحظ أن الخلفاء العباسيين كانوا قد انصرفوا إلى الترف وحياة الدعة حتى قبل دخول السلاجقة بغداد فبنوا القصور الفخمة وبالغوا في الاحتجاب عن الرعية^(١) ، وليس هناك من شك في أن ذلك كان من أقوى الأدلة على ضعفهم . ويذكر الرحالة اليهودي تودلا Tudela أنه حينما زار بغداد حوالى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) كان الخليفة العباسي لا يخرج من قصره إلا مرة واحدة في العام ، أى عندما يؤم الناس للصلاة في عيد الفطر^(٢) .

ويرجع السبب في ضعف الخلفاء العباسيين في هذا العصر إلى السلاجقة أنفسهم ، فمنذ دخلوا بغداد لم يحاولوا أن يأخذوا بيد الخلفاء الذين كانوا مهينى الجانب في عهد بنى بويه ، هذا على الرغم من أن السلاجقة كانوا سنيين وكان بنو بويه شيعيين . فقد وضع السلاجقة نصب أعينهم أن يسيروا في سياستهم مع الخلفاء على نمط سياسة البويهيين من قبلهم فغلوا أيديهم تماما ، حتى إذا ما حاول أحد الخلفاء استعادة نفوذ آبائه وأجداده سلطوا عليه جام غضبهم فعزلوه أو طردوه من بغداد وسلطوا عليه من يقتله . فإذا كان السلاجقة قد حطموا تلك الأغلال التي وضعها البويهيون في أيدي الخلفاء ، فقد صنعوا من الأغلال القديمة أغلالا جديدة قيدوا بها الخلافة من جديد^(٣) . ومن أقرب الأمثلة على ضعف الخلفاء العباسيين ، مانجده ممثلا في شخص الخليفة المقتدى ، فإنه عزل وزيره عميد الدولة لا لسبب إلا لتحقيق رغبة للسلاجقة^(٤) ، كما أنه عزل وزيره أبا شجاع تحقيقاً لرغبة ملكشاه^(٥) ،

(١) Le Strange : Baghdad During the Abbassid Caliphate, p. 327.

(٢) Ibid., p. 332.

وربما حدثت زيارة هذا الرحالة اليهودي لمدينة بغداد في عهد الخليفة المقتدى أو المستنجد.

(٣) انظر كتاب « الدولة الخوارزمية والغول » المؤلف ، ص ٩٥ .

(٤) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ٢٥٩ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٦١ .

بل إن ملكشاه صمم على طرده هذا الخليفة من بغداد سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) لأنه رأى فيه ميلا إلى التدخل في الحكم^(١) ، فأرسل إليه يقول : « لا بد أن تترك لي بغداد وتذهب إلى أي بلد شئت . فانزعج الخليفة وقال : أمهلني ولو شهرا . قال : ولا ساعة واحدة . فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام ؛ فاتفق مرض السلطان وموته ، وعد ذلك كرامة للخليفة »^(٢) .

وليس أدل على ضعف الخليفة العباسي من أنه لما توفي السلطان ملكشاه ، نشأ صراع طويل بين أبنائه ولم يستطع الخلفاء أن يتدخلوا في هذا الصراع ، بل كان موقف الخليفة موقف الرجل الضعيف الذي يشهد صراعا بين قوتين وينتظر نتيجة المعركة ، حتى إذا ما قاربت على الانتهاء ولاحت نتيجتها ، انضم إلى الجانب الغالب ضد المغلوب . ومن أقرب الأمثلة على ذلك ما حدث في أثناء الصراع بين بركياروق وبين محمد بن ملكشاه ، فإنه لما دخل الأول مدينة بغداد في أواخر سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، لم يتردد الخليفة المقتدى في أن يأمر بأن تقام له الخطبة على المنابر^(٣) ، ولما لم يرض محمد بن ملكشاه عن سلطنة أخيه بركياروق ، نشأ صراع طويل بين الطرفين كان الخليفة المستظهر في أثناءه يأمر بأن تقام الخطبة لمن يدخل منهما بغداد ظافرا ، بعد أن يقطع الخطبة للسلاجوقي المنهزم ، ولما انتصر بركياروق في النهاية ، أرسل إليه الخليفة من يستقبله على باب بغداد مرحبا^(٤) .

وليس معنى ذلك أن الخلفاء العباسيين قد ركنوا إلى الذلة والمسكنة

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : النظام الإسلامية ، ص ٩٥ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٩٤ .

(٤) خطب السلطان محمد سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) ، ثم لبركياروق سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) ، وأعيدت الخطبة في نفس السنة لمحمد ، وعاد الخليفة لخطب لبركياروق سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م) . انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .



تمعدان من البرونز المطعم بالذهب والفضة من صناعة إيران أو
العراق في القرن السابع الهجري (١٣ م)
(عن كتاب الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي للدكتور زكي محمد حسن)

لوحة ١



مشدنة المسجد الجامع في سامرا من القرن الثالث الهجري (٩ م)

(عن كتاب Creswell : Early Muslim Architecture)

بل الواقع أنهم أخذوا منذ أيام الخليفة المسترشد يشورون لكرامتهم التي سلبت ، فانتهر الخلفاء منذ ذلك الحين فرصة ما آل إليه السلاجقة من ضعف وما آلت إليه دولتهم من انحلال وأخذوا يعملون لأنفسهم غير مباينين بما يترتب على ذلك من نتائج . فقد حدث أن أراد الخليفة المسترشد بعد أن ولى الخلافة أن يستعيد مجد أسلافه بعد ما رآه من تعسف السلاجقة . وقد أثر عنه أنه قال :

« فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق ، فبغوا علينا ، فطال ،

« عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون ^(١) . »

لذلك لا نعجب إذا وجدنا الخليفة المسترشد يعمل منذ البداية وفق الخطة التي رسمها لنفسه إذ تجرأ على مقاومة نفوذ السلطان محمود السلجوقي ، فنشب الصراع بين الطرفين سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وكان من نتيجته أن اعتذر السلطان السلجوقي في النهاية ^(٢) . ولما مات السلطان محمود سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) ، نجد هذا الخليفة يعمل على تقوية نفسه بجمع الجيوش لاسترداد ما كان للعباسيين من نفوذ ، واتخذ من الخلاف الذي قام بين أفراد البيت السلجوقي فرصة للاستبداد بأمور العراق ^(٣) . وأكثر من ذلك ، نجده يعمل على إيقاع العداوة والبغضاء بين كبار رجال السلاجقة ليكون له الغنم في النهاية ^(٤) . ووصلت جرأته إلى حد أنه قطع الخطبة للسلطان مسعود سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) ، رغبة منه في استخلاص الحكم لنفسه ^(٥) . ولم يكن

(١) النظمى العروضية السمرقندى : چهار مقاله ، ترجمة الأسناذين عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ، ص ٣١ . ومما هو جدير بالذكر أن هذه العبارة قد ذكرت بالعربية في هذا الكتاب نفسه ، نشر إدوارد براون E. Browne ص ٢٨ ، كما يأتي :

« فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق ، فبرزوا علينا ، فطال ،

« عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون . »

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٠ - ٢٧٢ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٨٥ - ٨٦ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٨٨ - ٩٠ .

بد إذن من أن يقوم الصراع بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود ، فلما التقى الجيشان العباسي والسلجوقي غدر بالخليفة أكثر عسكره فتمكن السلطان من أسره ، كما تمكن من أسر عدد كبير من خواصه ، وسجن هؤلاء جميعاً في قلعة على مقربة من مدينة همدان . ولما بلغ أهل بغداد ذلك ، حثوا التراب على رؤوسهم في الأسواق وبكوا وضحجوا وخرج النساء حاسرات يندبن الخليفة ومنعت الصلاة والخطبة^(١) .

ولما وجد السلطان سنجر ما أحدثه أسر الخليفة من أثر سيء في نفوس الأهالي ، خشي العاقبة وأرسل إلى ابن أخيه مسعود يقول :

« ساعة وقوف الولد غياث الدنيا والدين (يقصد مسعوداً) ،
« على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين ويقبل الأرض بين ،
« يديه ، ويسأله العفو والصفح ، ويتنصل غاية التنصل ، فقد ظهر ،
« عندنا من الآيات السماوية والأرضية ما لا طاقة لنا بسماع مثلها ،
« فضلاً عن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل ، ودام
« ذلك عشرين يوماً ولقد خفت على نفسي من جانب الله ،
« وظهور آياته وامتناع الناس عن الصلاة في الجوامع ومنع الخطباء ،
« ما لا طاقة لي بحمله . فآله الله تتلاني أمرك وتعيد أمير المؤمنين ،
إلى مقر عزه . »^(٢)

وقد اتفق السلطان مسعود مع الخليفة المسترشد على الصلح ، على أن يدفع الخليفة تعويضاً مالياً للسلطان وأن يتعهد بعدم جمع الجيوش بل ومغادرة قصره^(٣) . ويظهر أن السلطان مسعوداً فعل ذلك على غير رغبة منه ، وإنما كان ذلك نزولاً على رغبة عمه سنجر^(٤) . ومما يدل على ذلك

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٨٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٢ .

(٤) مما هو جدير بالذكر أن السلطان سنجر كان قد فرض نفوذه على سلاطين السلاجقة في العراق منذ أيام السلطان محمود بن محمد بن ماكشاه ، وكان هؤلاء يدفعون الجزية للسلطان سنجر ومنهم مسعود نفسه . Browne : Account of a Rare Manuscript History of Seljuqs, p. 45 & 47.

أنه أوعز إلى جماعة من الإسماعيلية بقتله ^(١) ، فدخلوا عليه في خيمته وطعنوه بخناجرهم حتى قتلوه وقطعوا أنفه وأذنيه ، وكان ذلك سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) ^(٢) .

ولى الخليفة الراشد الخلافة بعد أبيه ، ويظهر أنه تعهد للسلطان مسعود في سبيل وصوله إلى كرسى الخلافة ، أن يكون طوع بنائه ، وكتب تعهدا على نفسه شهد فيه بعض قضاة الدولة أنه إذا حاول محاربة السلطان مسعود أو جرد السيف على أصحابه حق عليه الخلع من الخلافة ^(٣) ، كما تعهد بأن يدفع للسلطان السلجوقي مبلغ أربعائة ألف دينار ثمنا لتوليته الخلافة ^(٤) . فلما تولى الخليفة الراشد ، عمل على إعادة نفوذ الخلفاء العباسيين الأول ، كما حرص على أن ينتقم من السلطان مسعود قاتل أبيه ، لذلك نجده يعتذر عن عدم دفع هذه الأموال لرسول السلطان بحجة أنه لم يجد شيئا في خزانة المسترشد ، ولما تجرأ رسول السلطان وأراد تفتيش دار الخلافة ، حال الراشد بينه وبين ما يريد ^(٥) ثم توجه الخليفة الراشد بعد ذلك للعمل على خلع السلطان مسعود وتولية ابن أخيه داود مكانه ، فألب عليه حكام دولته وعلى رأسهم عماد الدين زنكى صاحب الموصل ، وقام الجميع ينادون بمحاربة مسعود وخلعه وتولية داود مكانه ، غير أنه لسوء حظ الخليفة ، استطاع مسعود أن يهزم هذا الحلف ، فلم يجد داود بدا من الهرب من بغداد ، كما وجد الراشد نفسه مضطرا إلى الفرار إلى مدينة الموصل مع عماد الدين

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٧ .

(٢) الديار بكرى : تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ٣٦٢ .

انظر أيضا ، النظامى العروضى السمرقندى : چهار مقاله ، ترجمة الأستاذين عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ، ص ١٠٧ .

(٣) ابن العسبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٥٦ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ٣٦٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦ . ويساوى هذا المبلغ ١٩٢٠٠٠ من الجنيهات المصرية تقريبا .

(٥) المرجع نفسه والصفحة .

زنكى ، كل ذلك فى سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥) ^(١) . وقد استطاع السلطان مسعود بعد دخوله بغداد فى هذه السنة نفسها أن يجمع العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان ويحملهم على أن يشهدوا بظلم الراشد ونهبه الأموال وسفك الدماء بل وشرب الخمر ، فأفتوا بأنه يحق للسلطان خلعه واستبداله بغيره . وهكذا خلع مسعود الخليفة الراشد وولى مكانه عمه المقتدى لأمر الله سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) ^(٢) . أما الخليفة المخلوع ، فقد أخذ يتنقل شريداً فى البلاد الإسلامية ، ويعمل فى نفس الوقت على استعادة نفوذه . لذلك سلب عليه السلطان مسعود جماعة من الإسماعيلية فقتلوه بمدينة أصفهان سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) ^(٣) .

ولم يكن الخليفة الجديد أحسن حالا من سابقه ، فقد اشترط عليه السلطان مسعود عندما ولاه الخلافة أن يجرده من خيله كما أخذ كل ممتلكاته ، وكان غرضه من ذلك ألا يمكنه من مغادرة بغداد وبذلك يظل أسيرا فى يده . وهكذا نرى السلطان السلجوقى « يأخذ جميع مافى دار الخلافة من دواب وأناث وذهب وستور وسراشق ولم يترك فى اصطبل الخلافة سوى أربعة أفراس وثمانية بغال برسم الخيل » ^(٤) . كما نرى هذا السلطان يضع يده على كل أموال الدولة ويصبح المتصرف فى دار الضرب . وبما يدل على أن الخلافة العباسية قد حاق بها الضعف من كل جانب أن السلطان مسعود أرسل وزيره للخليفة المقتدى سنة ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) يطلب منه مائة ألف دينار فتمال له المقتدى ^(٥) :

« ما رأينا أعجب من أمرك . أنت تعلم أن المسترشد سار ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦ - ١٩ ، تاريخ الدولة الأنابكية ، ص ٩٢ - ٩٦ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٩ .

(٣) الديار بكري : تاريخ الخبيس ، ج ٢ ص ٣٦٢ .

(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٠ .

(٥) المرجع السابق والصفحة .

«إليك بأمواله فجرى ما جرى ، وأن الراشد ولى ففعل ما فعل ،
«ورحل وأخذ ما تبقى ، ولم يبق إلا الأثاث فأخذته كله ، وتصرفت ،
«فى دار الضرب ، وأخذت الذكاة . فمن أى وجه نقيم لك هذا ،
«المال ؟ وما تبقى إلا أن نخرج من الدار ونسلها ، فإنى عاهدت ،
«الله ألا آخذ من المسلمين حبة ظمأ .»

وهكذا لم يكن الخليفة المقتنى أسعد حالاً من سبقه من الخلفاء ، وربما كان ذلك راجعاً إلى قوة شكيمة السلطان مسعود ، إذ لما توفى هذا السلطان فى سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) ، لم يعد هناك من سلاطين السلاجقة فى العراق من يستطيع أن يتغلل الفراغ الذى خلفه ؛ لذلك تعتبر وفاته بداية لانحلال البيت السلجوقى فى العراق ، وبداية لانهاء سعادته^(١) . ولاغرو فقد أخضع السلطان مسعود الخلافة العباسية لسلطته وردّها لإرادته فى عهد المسترشد والراشد ، إلى ان مات فى عهد المقتنى . ولذلك لانهجب إذا قيل إنه منذ أيام المقتنى (بعد وفاة مسعود طبعاً) ، عادت بغداد والعراق إلى أيدي الخلفاء ولم يبق لها منازع ، بعكس الحال قبل ذلك فقد كان الحكم المتغلبين ، وليس للخليفة معهم إلا اسم الخلافة^(٢) . ومن أقرب الأمثلة على صحة هذا القول أن الخليفة المقتنى استطاع فى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) ، أن يرغم السلطان السلجوقى سليمان شاه على النزول عن كل حق له فى بغداد ماعدا الخطبة^(٣) . على أن الضعف الذى أصاب السلاجقة وكان من أثره استعادة الخلفاء سلطانهم القديم فى العراق ، لم يكن راجعاً إلى قوة الخلفاء ، وإنما كان راجعاً إلى عوامل أخرى لم يكن للخلفاء دخل فيها ، ومن هذه العوامل ما يرجع إلى السلاجقة أنفسهم كانهضهم إلى النزاع الداخلى فيما بينهم ، ذلك النزاع الذى أدى إلى انقسامهم ، فهلك دولتهم ، وهلكوا بهلاكها . ومن هذه العوامل أيضا

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٥ ص ٣٠٣ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٢ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٢٢ .

ما يرجع إلى النظام الإقطاعي العسكري الذي أوجده نظام الملك في سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، والذي ترتب عليه منح المقر بين من البيت السلجوقي إقطاعات على سبيل الهبات ، أصبحت فيما بعد وراثية ، وقد أدى هذا النظام إلى انقسام الشرق الإسلامي إلى دويلات صغيرة مستقلة^(١) .

وقد أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى انحلال الدولة السلجوقية وأصبح الشرق الإسلامي لقمة سائغة للمغيرين من الشرق ومن الغرب . أما من ناحية الغرب ، فقد ضاع نفوذ الخلفاء من البلاد الشامية ، واستطاع الصليبيون أن يؤسسوا لأنفسهم ويوطدوا نفوذهم في أخصب بقاعها ، وقد أصبحت هذه البلاد مسرحاً للحروب بين قادة الحملات الصليبية الذين أرادوا فرض سلطانهم على كل بلاد الشام ، وبين صلاح الدين الأيوبي وخلفائه الذين أرادوا صد عادية هؤلاء المغيرين مما سنفصله فيما بعد . وأما في الشرق فقد أصبحت البلاد الإسلامية مطمعاً لقوى مختلفة متعادية ، فيجد أن قبائل الخطا^(٢) ، التي هاجرت من شرق آسيا وأُسست لنفسها دولة حول مدينة كاشغر ، تحاول التوسع في فتوحاتها وتأسس دولة في بلاد المسلمين ، واشتد الصراع بينها وبين السلاجقة منذ سنة ٥٢٢ هـ (١١٣٧ م) . وكان من أثر هذا الصراع أن هزم السلطان سنجر السلجوقي ، كما كان من نتيجته

(١) Hitti · History of the Arabs, p. 478.

(٢) تأسست دولة الخطا في إقليم التركستان ، في مستهل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، على يد « يي لوشوتساي » Ye-lu Ch'u ts'ai ، وكان تأسيس هذه الدولة في إقليم التركستان على حدود البلاد الإسلامية ، من الأمور التي سببت كثيراً من المتاعب للمسلمين بسبب اتجاه قادة هذه الدولة إلى توسيع أملاكهم على حساب الممتلكات الإسلامية . ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن المقول أضافوا لفظ « قره » Kara إلى اسم الخطا فأصبحوا يسمون « قره خطا » Kara Khitai . ولفظ قره أو قرا ، لفظ مغولي أو تركي معناه أسود . أما سبب وصفهم بلون السواد فغير معروف ، ولعل ذلك يرجع إلى عداوتهم وكراهيتهم لهم . انظر : Bretschneider : Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol: i, p. 210.

نقلا عن المصدر الصيني المعروف باسم « لياو شي Liao Shi » .

أيضاً اقتطاع الخط بلاد ما وراء النهر^(١) . ومنذ ذلك الحين لم ينقطع النزاع بين قبائل الخط وبين السلاجقة ، وبين الخوارزميين الذين ورثوا أملاك السلاجقة في الشرق^(٢) .

كذلك نرى أنه حوالى منتصف القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) بدأت دولة جديدة تظهر فى شرق أفغانستان وتحل محل الدولة الغزنوية المتداعية ، ألا وهى الدولة الغورية . وقد استطاع قادة هذه الدولة أن يستولوا على مدينة غزنة^(٣) نفسها سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ، على أن الخوارزميين استطاعوا بدورهم أن يستولوا على أملاك هذه الدولة بعد أن ورثوا كل ما كان بيد السلاجقة من أملاك فى فارس بعد وفاة سنجر سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) ، ثم اتجهت أنظارهم نحو الغرب ، وكان لهم فضل القضاء على السلاجقة فى العراق حينما استعان الخليفة الناصر العباسى بخوارزم شاه تكش ضد طغرلىك (آخر سلاطين السلاجقة فى العراق) ، بعد أن وعده بأن يملكه البلاد التى بيده ، إن هو استطاع القضاء عليه^(٤) . وقد استطاع خوارزم شاه تكش فعلاً أن يهدى الخليفة الناصر رأس طغرلىك سنة ٥٥٩ هـ (١١٩٣ م)^(٥) . وهكذا زالت دولة السلاجقة نهائياً وبدأ عصر جديد من عصور الخلافة العباسية .

وقد حسب الخلفاء العباسيون أنه بزاول سلطان السلاجقة سيبدأ عهد جديد فى حياتهم السياسية يتمتعون فيه باستقلالهم بعد أن زال عدوهم الأكبر الذى يتمثل فى آل سلجوق . ولكن الخوارزميين الذين تحمسوا

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٥٤ .

(٢) انظر ما كتب عن نشأة دولة الخط وعلاقتها بالقوى الإسلامية المعاصرة ، ومن أهمها دولتي السلاجقة والخوارزميين ، فى كتاب : « الدولة الخوارزمية والمغول » ، المؤلف .

(٣) تكتب مدينة غزنة فى بعض الكتب الفارسية « غزني » . انظر كتاب النظامى .

العروضى السمرقندى : چهار مقاله ، ص ١٢٨ وغيرهما من الصفحات .

(٤) ابن خلدون : المعبر ودبوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٩٤ .

(٥) المفريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ١ ص ٤٠ .

لإزالة الدولة السلجوقية كانوا في الواقع يعملون لأنفسهم وفق خطة وضعوها منذ قامت دولتهم . فقد بدموا يتطلعون إلى فرض سيطرتهم على الخلافة العباسية وأخذوا يعملون جاهدين على أن يحتلوا ما كان للسلاجقة من نفوذ سياسي في الحاضرة الإسلامية . وليس هناك من شك في أن الخليفة الناصر العباسي ، قد ارتكب خطأ سياسياً كبيراً حينما استدعى خوارزم شاه تكش للقضاء على عبوه طغرل بك السلجوقي ، إذ أنه بعد أن أحل به الهزيمة قتله ونكل به ، ثم أعطى نفسه الحق في أن يرث مجد السلاجقة في الأراضي الإسلامية ، فبدأ يكتب اسمه على السكة ، وأكثر من ذلك أخذ يتطلع إلى فرض نفوذه السياسي على بغداد . وكان من أثر تعارض سياسة الخوارزميين ، الذين ادعوا أنهم ورثوا السلاجقة في كل شيء ، مع سياسة الخلفاء الذين تنفسوا الصعداء بعد زوال الحكم السلجوقي ، كان من أثر ذلك قيام ذلك الصراع الطويل بين الخلفاء والخوارزميين ، ذلك الصراع الذي انتهى بانتهاء هاتين القوتين معا على يد المغول .

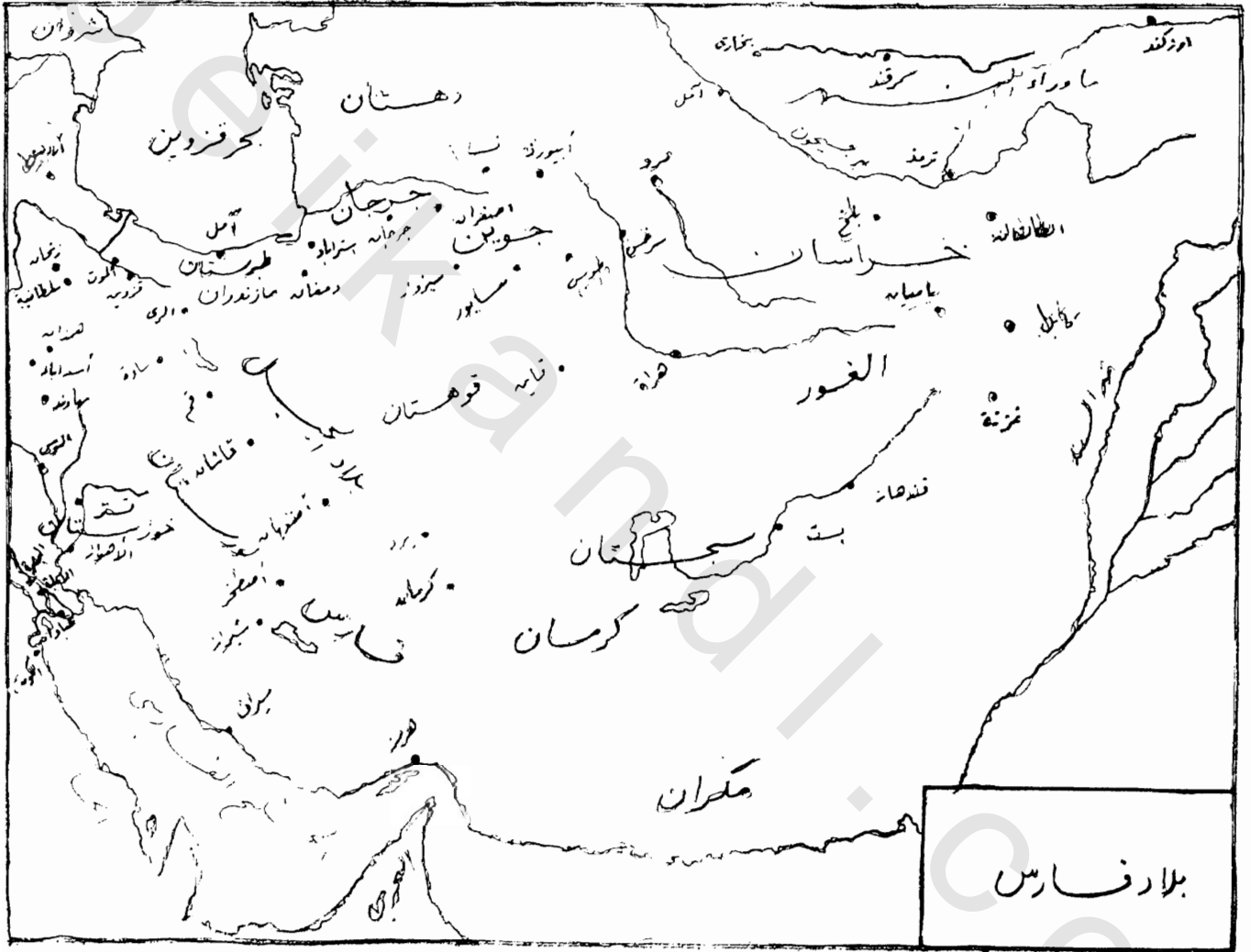


تمثال من الخزف الإيراني يرجع إلى القرن السابع الهجري (١٣ م) . محفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة، وأصله من مجموعة المرحوم الدكتور علي إبراهيم باشا .
(عن كتاب فنون الإسلام للدكتور ركي محمد حسن)

الباب الثاني

النزاع بين أبناء البيت السلجوقي

- نشأة النزاع وعوامله . الدور الأول : عقب وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ .
(١٠٩٢ م) . الدور الثاني : عقب وفاة محمد بن ملكشاه سنة ٥١١ هـ .
(١١١٧ م) . الدور الثالث : عقب وفاة محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥٢٥ هـ .
(١١٣٠ م) . أثر النزاع بين السلاجقة في انحلال دولتهم . ومحاولة الخلفاء
العباسيين استعادة نفوذهم .



الباب الثاني

النزاع بين أبناء البيت السلجوقي

العوامل التي أضعفت الدولة السلجوقية كثيرة، ويمكن القول إن ضعف هذه الدولة كان مظهراً هاماً من مظاهر ضعف الشرق الإسلامي بوجه عام، كما كان مظهراً من مظاهر انحلال الدولة العباسية بوجه خاص .

وأهم الأسباب التي أدت إلى انهيار دولة السلاجقة بعد وفاة ملكشاه ثلاثة : النزاع بين أبناء البيت السلجوقي ، واستفحال شأن طائفة الإسماعيلية التي كان رائدها هدم كل القوى الموجودة في ذلك الوقت لترفع على أطلالها ، أما ثالث هذه الأسباب فهو قيام دول الأتابكة . وإذا جاز لنا القول بأن قيام دول الأتابكة كان من الأسباب التي أتت على الشرق الإسلامي عامة والدولة السلجوقية خاصة، فيمكن القول أيضاً إن قيامها كان نتيجة للعاملين السابقين ، إذ أن الانحلال السياسي الذي أصاب الدولة السلجوقية بسبب الصراع الذي قام بين أمراء السلاجقة وبسبب اتساع نفوذ طائفة الإسماعيلية، كل هذا ولد حركة انفصالية كان لها أكبر الأثر في زيادة ضعف الدولة السلجوقية خاصة والشرق الإسلامي عامة . وكانت هذه الأسباب الثلاثة مجتمعة بالإضافة إلى أسباب أخرى ذكرناها في مواضع أخرى كالحروب الصليبية، وظهور الدولة الخوارزمية الفتية وابتلاعها أملاك الدولة السلجوقية، هذا فضلاً عن الصراع الذي قام بين الخلفاء العباسيين وبين السلاجقة — كل هذه الأسباب كان لها أثرها في انحلال الدولة السلجوقية وسقوطها .

...

ذكرنا أن الشرق الإسلامي كان في عصر ملكشاه متماسكاً موحداً، فقد استطاع هذا السلطان السلجوقي البعيد النظر أن يجني ثمار جهود سلفه وأبيه ألب أرسلان ، فتمكن من أن يحافظ على ما كان لمملكته من قوة بل ويزيدها قوة على قوة ، كما استطاع أن يوسع رقعتها حتى شملت الدولة

السلجوقية في عهده فارس وبلاد ما بين النهرين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد العرب ، وتمكن ملكشاه كما تمكن سلفه من قبل من أن يحد من نفوذ البيزنطيين ، وأن يضع حداً لأطاعتهم في البلاد الإسلامية . واستطاع السلاجقة في هذا العصر أن يخلفوا جيلاً جديداً من المحاربين يرجع إليهم الفضل في وقف الصليبيين عند حد معين^(١) . وعلى الرغم من أن المسلمين في هذا العصر قد استعادوا قوتهم وهيبتهم التي كانوا قد فقدوها ، وعلى الرغم من ازدهار حضارتهم بفضل ما أوتي هذا السلطان من قوة وبفضل معونة وزيره نظام الملك^(٢) ، على الرغم من هذا كله فقد كانت قوة السلاجقة قوة للعنصر التركي يقابلها ضعف للعنصر العربي ، يتجلى في انحطاط قوى الخلافة العباسية .

على أن هذه القوة الإسلامية الكبرى ، وهي قوة السلاجقة ، ما لبثت أن انهارت بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، إذ أن هذا السلطان قد ورث أبناؤه إمبراطورية كبيرة ، كما ورث العالم الإسلامي أبناءه لم يستطيعوا أن يحافظوا على هذه الإمبراطورية ، فقد انشقوا على أنفسهم وأعمتهم المصلحة الشخصية فأسكرتهم فضلوها الطريق القويم ، واستهوتهم الحروب الداخلية ولم يتبصروا عواقبها حتى أعمتهم عن النظر في مصالح تلك الإمبراطورية التي تعب الأولون في تسكينها ، فكانت النتيجة أن انقسمت دولة السلاجقة أقساماً رئيسية أربعة : (١) سلاجقة العراق وفارس ، وهم الفرع الرئيسى للبيت السلجوقي . (٢) وسلاجقة سوريا ، في كل من حلب ودمشق . (٣) وسلاجقة كرمان ، وتمتد حدود دولتهم على الأراضى المتاخمة للبحر الهندي . (٤) وسلاجقة الروم ، في آسيا الصغرى^(٣) . وهكذا

(١) Lane - Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 150.

(٢) انظر ما كتبه Denison Ross في هذا الموضوع تحت عنوان The Empire

of the Seljuk Turks. في مجموعة Universal History of the World, vol. 5.

(٣) Gibbon : The History of the Decline and Fall of the Roman

Empire, vol. vii, p. 23.

بعد ان كان الشرق الإسلامى موحد الكلمة ، انقسم على نفسه وانقسمت تبعاً لذلك كلمة المسلمين ، فضاعت هيبتهم التى دفعت عنهم عدوان أعدائهم فى خارج دولتهم وفى داخلها .

وهنا نستطيع أن نتساءل ، لم هذا الانقسام؟ وما الذى جعل هذه القوة تنهار دفعة واحدة؟ يرجع السبب الرئيسى فى ذلك إلى انقسام أفراد البيت السلجوقى على أنفسهم بعد وفاة ملكشاه ، آخر شخصية سلجوقية قوية ، فى فارس تنازع أبناؤه كل يريد السلطة لنفسه ، وفى بلاد الشام طمع أخوه تنش فى أن يمد نفوذه على مملكة أبيه وأدى ذلك إلى قيام حروب داخلية طال أمدها . وكان من أثر ذلك أن قام النزاع بين أبناء ملكشاه فى العراق وفارس ، وبين هؤلاء وبين عمهم تنش فى سوريا . وكانت النتيجة أن تفككت القوة الإسلامية وتحطمت ، وساعد على هذا التفكك ظهور قوة جديدة أرادت أن تعمل لنفسها على حساب الدولة السلجوقية بنوع خاص وهى الدولة الخوارزمية الناشئة . كما انتهزت القبائل التركية هذه الفرصة وأخذت تهاجم سهول آسيا الغربية^(١) .

وتنقسم أدوار النزاع الذى قام بين أفراد البيت السلجوقى ، فى نظرنا إلى أدوار ثلاثة رئيسية : أولها عقب وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) . وثانيها بعد وفاة محمد بن ملكشاه سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) . ولم يأت الدور الثالث الذى بدأ بوفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) حتى كان البيت السلجوقى قد فقد سطوته وهيئته ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الزوال ، بل أصبح الشرق الإسلامى ومعه سلاطين السلاجقة وأمراؤهم كالمريض وهو فى النزاع الأخير . ولا أريد فى هذا المقام أن أحصى كل صغيرة وكبيرة فى هذا النزاع ، وإنما أقتصر على التمثيل فقط لأهم أدوار هذا النزاع وهى كما قلت ثلاثة .

الدور الأول :

وأما الدور الأول فيبدأ، كما قلنا، بوفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢ م)، فقد ترك هذا السلطان بعد وفاته أربعة أبناء هم بركياروق وكان في الثانية عشرة من عمره، ومحمداً وكان بصخره بستة أشهر، وسنجر وكان في الثامنة من عمره، أما الابن الرابع محمود فكان طفلاً في سن الرابعة^(١). وكان لكل من هؤلاء حاشيته التي تهتم بشئونه وتحرص على أن تولى السلطنة من توصى به مصلحتها الخاصة وقد ساعد على ذلك أن هؤلاء الأخوة لم يكونوا أبناء أم واحدة، فكان بركياروق مثلاً من أم تدعى زبيدة، ومحمود من أم تدعى ترکان خاتون^(٢)، وكان محمد وسنجر من أم ثالثة^(٣). وقد أرادت ترکان خاتون أن تكون السلطنة من نصيب ابنها محمود، كما أرادها بركياروق لنفسه، ففشأ بسبب ذلك نزاع طويل بين الطرفين.

كان بركياروق بمدينة أصفهان عند وفاة ملكشاه، أما محمود وأمه فكانا في بغداد، فبذلت ترکان خاتون الأموال للأمراء واستحلفتهم على تولية ابنها محمود وساعدها في ذلك وزيرها تاج الدين^(٤). وقد أرسلت ترکان خاتون إلى الخليفة المقتدى تطلب السلطنة لابنها وإقامة الخطبة له على منابر بغداد. ولما اعتذر الخليفة لصغر سن محمود أكرهته على الموافقة^(٥)، وأقيمت الخطبة لمحمود ببغداد وبالخرمين الشريفين، ولقب بناصر الدنيا والدين^(٦). وكان طبيعياً ألا يقف بركياروق مكتوف اليدين إزاء أخيه وهو الطامع في عرش السلطنة، فسار إلى الري حيث جمع حوله أكثر من عشرين ألف

(١) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 299.

(٢) Ibid., pp. 299 - 300.

(٣) ابن خلدون: وفيات الأعيان، ج ٢ ص ٦١، ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ١١٩.

(٤) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٢٧.

(٥) Browne : Account of a Rare Manuscript History of Seljugs, p. 35.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ٨٨.

رجل ، نادوا به سلطاناً على البلاد^(١) . ولم تتردد ترکان خاتون في السير إلى محاربة هذا المنافس الخطر ، وعملت على القبض عليه . على أن برکیاروق استطاع في هذه الفترة أن يجذب إليه بعض جنود ترکان خاتون وأن يتقوى بهم ، فلما سارت بجنودها واحتلت أصفهان ، سار إليها برکیاروق وأسر وزيرها تاج الملك وقتله^(٢) . ولما ضيق برکیاروق عليها الحصار اضطرت إلى إعطائه مبلغاً من المال في مقابل رفع الحصار عنها ، ولما قبض برکیاروق الثمن ، رحل إلى همدان ، ولكن ترکان خاتون أخذت تسكيد له ، وانتهى هذا النزاع بالقبض على محمود^(٣) .

وفي أواخر سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، قدم برکیاروق بغداد حيث وافق الخليفة المقتدى على أن يخطب له في اليوم الرابع عشر من المحرم سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) وأن يلقب بركن الدين^(٤) . ومن عجائب القدر أن الخليفة مات فجأة في اليوم التالي ، أي في الخامس عشر من المحرم . وقد ساعد الحظ برکیاروق حين مات أخوه محمود بن ملكشاه في سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) وحين مات أمه في نفس السنة^(٥) ، وبذلك استراح من منافسه .

وكانت الصعاب التي واجهت السلطان برکیاروق في بداية عهده كثيرة ومتشعبة ، إذ كان عليه أن يواجه عمه أرغون أرسلان الذي كان والياً على خراسان منذ أيام ملكشاه ، وعمه الآخر تئش الذي كان والياً على دمشق ، كما كان عليه أن يواجه أخويه ، سنجر ومحمد ابني ملكشاه . وإذا أردنا أن نقف على الصعاب التي واجهت برکیاروق من جانب

(١) Browne : Account of a Rare Manuscript History of Seljugs, p. 35.

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٢٨ .

(٣) Browne : Account of a Rare Manuscript History of Seljugs, p. 36.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٩٤ .

(٥) المرجع نفسه ، ج ١٠ ص ٩٧ ، ٩٩ .

أسرته ، فلا بد أن نعود قليلا إلى أواخر أيام ملكشاه ونتصور حالة الشرق الإسلامي في ذلك الوقت .

كان من سياسة ملكشاه أن يقطع حكم أقاليم دولته إلى المقربين إليه من أفراد أسرته وإلى من يثق فيهم من أفراد رعيته ، فانقسمت الدولة في عهده أقساما كبرى تنقسم بدورها إلى أقسام أصغر منها .

وكان الولاة يتنازعون فيما بينهم كل يريد أن يوسع أملاكه على حساب الآخرين . فنجد ملكشاه يقطع أخاه تنش مدينة دمشق وأعمالها والبلاد المجاورة لها كطبرية وبيت المقدس^(١) ، ويولي أحد المقربين إليه وهو آقسنقر مدينة حلب وأعمالها فضلا عن مدن حماه ومنبج واللاذقية^(٢) ويقطع أخاه أرغون أرسلان خراسان^(٣) . وكانت هذه الأقاليم الكبرى ، كما قلنا ، تنقسم بدورها أقساماً أصغر منها Sub-divisions بمعنى أن كل مدينة تقريباً كانت تحت حكم أحد المقربين من البيت السلجوقي . فلما مات ملكشاه طمع تنش في السلطنة ، واستطاع أن يغتصب حلب من آقسنقر ويمد نفوذه على أنطاكية ويخطب لنفسه بالسلطنة فيها سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، كما استطاع أن يستولي على نصيبين ويقتل من أهلها عدداً كبيراً ثم يمد نفوذه على الموصل وميائارقين ودياربكر ويتوجه إلى أذربيجان . وكان نفوذ بركياروق في ذلك الوقت قد قوى ، فسار لملاقاة عمه الثائر المغتصب ، فلما التقى الجمعان ، انضم آقسنقر بجيوشه إلى بركياروق كما تفرقت جيوش تنش فانهارت قوته ولم يستطع مواجهة جيوش بركياروق فقفل راجعاً إلى بلاد الشام . وقد أقام آقسنقر عند بركياروق فترة عاد بعدها إلى بلاده ليكون عيناً على تنش^(٤) .

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ؛ ملوك الموصل ، ص ٢٤-٢٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١١ - ١٨ . ويلاحظ أن آقسنقر كان مملوكاً تركياً من ممالك السلطان ملكشاه ، وتربى معه منذ صغره ، فلما نولى السلطنة كان له في نفسه من الغزلة ما كان لنظام الملك حتى أنه سماه « قديم الدولة » .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٠٨ .

(٤) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ؛ ملوك الموصل ، ص ٢٤-٢٥ .



إناء من الخزف الإيراني ذي الألوان المتعددة يرجع إلى القرن السابع الهجري (١٣م)
ومحفوظ في المتحف البريطاني .

ولم تهدأ نفس تتش بعد هذه الهزيمة ، إذ صمم على الانتقام من آقسنقر ، وقد تم له ذلك فقتله في سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، واستطاع بذلك أن يمد نفوذه على كل بلاد الشام^(١) وقد استمر النزاع بين بركياروق وعمه تتش إلى أن تمكن بركياروق من إلحاق الهزيمة به في النهاية سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) . وقيل إن قتله كان على أيدي جماعة من أنصار آقسنقر كانوا قد أقسموا على أن يثأروا له^(٢) . وقد استمرت البلاد الشامية وأتابكية الموصل مسرحا لحروب كثيرة بين صغار الأمراء ، وبيئة صالحة لدسائس البيت السلجوقي في بغداد حتى استطاع عماد الدين زنكي ونور الدين محمود من بعده أن يوحدوا هذه البلاد من جديد ويخضعوها لسلطة واحدة^(٣) . ويجب أن نشير هنا إلى أن هذا التفكك الذي حدث في قلب الدولة السلجوقية كان من أكبر عوامل نجاح الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام (٤٩١ - ٤٩٣ هـ = ١٠٩٧ - ١٠٩٩ م) ، إذ لم تكن هناك القوة الإسلامية التي تستطيع أن تقف في وجهها ، ففضلا عن المنازعات التي قامت بين رضوان ودقاق ابني تتش فإن هذه البلاد كانت مسرحا لنشاط الفاطميين في مصر^(٤) . ولم يقدر للبلاد الإسلامية أن تفيق للخطر الصليبي إلا على يد عماد الدين زنكي ونور الدين محمود فيما بعد كما سنرى .

وهكذا نجد أن النزاع الذي قام بين أفراد البيت السلجوقي في هذا الجزء من الشرق الإسلامي ، قد أدى إلى انتزاع الصليبيين معظم بلاد الشام من المسلمين .

أما العم الآخر لبركياروق الذي كان والياً على خراسان وهو أرغون أرسلان ، فقد طمع في أن يستقل بما في يده من البلاد عقب وفاة أخيه

(١) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية ؛ ملوك الموصل ، ص ٢٨ - ٣٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٠١ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ؛ ملوك الموصل ، ص ٣٠ - ٣٧ .

(٤) Barker : The Crusades, pp. 19 - 20.

ملكشاه . ولما كان في استقلاله هذه البلاد ما يهدد وحدة الدولة السلجوقية ، وهذا ما كان بركياروق يعمل جاهداً على تلافيه ، فإنه عول على مقاومته . وكان بركياروق في ذلك الوقت مشغولاً بمحاربة أخيه مجرد وعمه تنش^(١) ، فتركه مؤقتاً ، ولما أفاق واستعد لقتاله ، كان هذا العم الطامع قد قتل سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) على يد أحد الغلمان وبذلك امتد نفوذ بركياروق على خراسان^(٢) ، فولاهما أخاه سنجر في نفس السنة^(٣) . ولم تقف متاعب بركياروق عند هذا الحد ، إذ أن أخاه محمداً لم يقنع بأن يكون والياً على أذربيجان^(٤) ، فنأصب أخاه العدم وطمع في السلطنة . وزين له أتباعه سهولة الوصول إلى غرضه . وكان من أثر ذلك أن نشبت بين الطرفين حروب طويلة استمرت طيلة عهد السلطان بركياروق تقريباً . وليس من المهم أن نتتبع أدوار هذا النزاع ، فقد استمرت الحرب سجالات بين الطرفين ، ولكن المهم أن نذكر أن محمداً استطاع أن يدخل بغداد وأن يقيم الخطبة لنفسه فيها سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) بموافقة الخليفة المستظهر العباسي الذي خلع عليه الخلع والهدايا ، وكان بركياروق في هذه الأثناء مريضاً^(٥) ثم استمرت الحرب مع محمد طوال عهد بركياروق الذي تمكن من إعادة الخطبة لنفسه في بغداد . ومن المهم أن نذكر أن الخليفة هو الذي كان يسمح بإعادة الخطبة لكل من دخل بغداد من هذين السلطانين المتنازعين . وهذا يدلنا على مقدار ما وصلت إليه الخلافة من ضعف . ويلاحظ أن سنجر بن ملكشاه كان قد انضم إلى أخيه محمد في صراعه مع بركياروق ، ويرجع السبب في ذلك إلى ما ذكرناه من أنهما كانا ولدين لأم واحدة^(٦) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٠٨ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٠٩ .

(٤) Malcolm : The History of Persia, vol. i, p. 221 .

(٥) ابن خلصان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ٦١ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٢٣ .

وقد انتهت الحرب بين محمد وبركياروق سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٣ م)، إذ عقد الصلح بين الطرفين في هذه السنة . ويقول السيوطي في هذا المناسبة ما يأتي^(١) :

« إن الحروب لما تطاوت بينهما ، وعم الفساد وصارت ،
والأموال منهوبة ، الدماء مسفوكة ، والبلاد مخربة ، والسلطنة ،
مطموعاً فيها ، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين ، ،
دخل العقلاء بينهما في الصلح وكتب العهود والإيمان والمواثيق ،
وأرسل الخليفة خلع السلطنة إلى بركياروق (بركيارق) ، ،
وأقيمت له الخطبة ببغداد . »

وقد توفي بركياروق سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) فآلت السلطنة إلى ابنه ملكشاه (الثاني) ، وكان أبوه قد أوصى له بالسلطنة واستحلف قواده على ذلك . وكان طبيعياً لا يرضى محمد عن هذا الوضع فاستولى على بغداد وقبض على ابن أخيه ووجده بعد أن حكم عدة أسابيع ، فقد بعدها السلطنة كما فقد بصره^(٢) . وقد تولى السلطنة بعد ذلك محمد بن ملكشاه (الأول) الذي حكم أكثر من ثلاثة عشر عاماً عمت الفوضى في أثنائها جميع أنحاء الدولة فضعف الشرق الإسلامي أمام الصليبيين في بلاد الشام ، وأمام القوات الأخرى المعادية في جوف الدولة الإسلامية ، وأهمها طائفة الإسماعيلية .

المور الثاني :

أما الدور الثاني من أدوار النزاع بين أفراد البيت السلجوقي ، فيبدأ بوفاة محمد بن ملكشاه سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) .

فلما شعر السلطان محمد بفرب منيته ، أحضر ولده محموداً وأجلسه على كرسی السلطنة وأمره بتدبير أمور الدولة وهو إذ ذاك في سن الرابعة

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٤ .

(٢) Malcolm : The History of Persia, vol. i, p. 223.

عشرة^(١). ولما مات محمد بن ملكشاه، لم يرض سنجر عن تولى هذا الصبي عرش السلطنة، لذلك نجد أنفسنا أمام دور من أهم أدوار النزاع بين أفراد البيت السلجوقي، وقد التقى محمود بعمه سنجر بالقرب من مدينة ساوة سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م)، واستعان سنجر في هذه المعركة بفرقة من الفيلة يرجع إليها الفضل في انتصاره^(٢). على أن الصلاح لم يلبث أن تم بين الفريقين وسار محمود إلى عمه سنجر فأكرمه وأقطععه البلاد التي تمتد من حدود خراسان إلى بلاد الشام وتشمل همدان وأصفهان وكرمان وفارس وخوزستان والعراق العربي وأذربيجان وأرمينية ودياربكر والجزيرة وبلاد الشام فضلاً عن بلاد السلاجقة الروم وكانت هذه بيد قلع أرسلان^(٣). وإذا نظرنا إلى هذه الأباطورية السلجوقية، نجد أنها كانت خاضعة لمحمود بن محمد بن ملكشاه خضوعاً اسمياً فقط، إذ كان الصليبيون قد انتزعوا معظم بلاد الشام وكونوا فيها الإمارات الصليبية الأربعة، وهي بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس والرها، كما انتزعوا المدن الساحلية، ولم يبق في أيدي المسلمين إلا بعض المدن الداخلية كدمشق وحلب^(٤) ثم إن آسيا الصغرى كانت قد انفصلت تماماً عن قلب الدولة السلجوقية بعد وفاة ملكشاه. وكانت بلاد الجزيرة وأذربيجان وفارس ودياربكر وغيرها موزعة بين الأتابكة العديدين^(٥). ومن ذلك نرى أن التفكك والانحلال في الشرق الإسلامي قد وصل إلى منتهاه، وأن غريزة حب السيطرة كانت متغلبة على عقول السلاجقة في ذلك الوقت. ومن أقرب الأمثلة على ذلك، زيادة على ما تقدم، أن السلطان سنجر، على الرغم من أنه منح محموداً حكم

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٤٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ٢٣٣.

(٣) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية؛ ملوك الموصل، ص ٣٩-٤٠.

(٤) Barker: The Crusades, pp. 25 - 32.

(٥) Lane-Poole: The Mohammadan Dynasties, p. 152.

البلاد السابقة التي حكمها حكماً اسماً كما قلنا ، فإنه اشترط أن يذكر اسمه في الخطبة قبل اسم محمود ^(١) . ولا يخفى أن ذلك معناه تبعية السلطان محمود لعمه سنجر ، وإن كانت هذه التبعية اسمية .

ولم تنته مصاعب السلطان محمود بإبرام الصلح مع عمه سنجر ، إذ كان عليه أن يواجه لفيفاً من أخوته الثائرين المتمردين العاصين . فعلى الرغم من أن هذا السلطان لم يجد طريقاً لمساعدة إخوته إلا سلكه ، من ذلك أنه ولاهم أقاليم الدولة المختلفة ، إلا أن وشاية الواشين استطاعت أن توقع بين هؤلاء الإخوة طمعاً في الوصول إلى مركز معين ، أو الحصول على غنيمة ما إذا ما انتصر الأمير الذي ينتمي إليه هذا الواشي ، فذب الخلاف بينهم . وترجع الحرب التي قامت في سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) بين السلطان محمود وبين أخيه مسعود ، الذي كان والياً على الموصل وأذربيجان في ذلك الوقت ، إلى بعض هذه الوشايات ^(٢) .

الدور الثالث :

أما ثالث أدوار النزاع بين أبناء البيت السلجوقي ، فكان عقب وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) ، فقد انقسم السلاجقة على أنفسهم إلى معسكرات ثلاث ، لكل أطاعه الخاصة في السلطنة ، ولكل مؤيدوه من القواد والجند : معسكر على رأسه داود بن السلطان محمود الذي نودى به سلطاناً عقب وفاة أبيه ، ومعسكر على رأسه كل من مسعود وسلجوقشاه ^{تبريز} ابن ملكشاه وشقيق السلطان المتوفى . ومع أن هذين الأخوين كانا متفقين على مبدأ عزل ابن أخيهما داود ، إلا أنهما كانا مختلفين فيما بينهما ، إذ كان كل منهما يعمل على أن تكون السلطة لنفسه بعد إسقاط عدوهما المشترك ، ولذا دارت بين الفريقين حروب طويلة ، واستعان مسعود

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣٨ ، ريخ الدولة الأتابكية ، ص ٤٤-٤٤ .

في هذا النزاع بعاد الدين زنكي الذي كان قد استطاع أن يوطد سلطانه في شمال العراق وسوريا في ذلك الوقت. واستمرت الحرب سجالات بين الأخوين المتحاربين إلى أن اضطررا إلى عقد الصلح بعد أن تدخل الخليفة المسترشد العباسي بينهما ، واتفق الطرفان على أن تكون السلطنة لمسعود ، وأن تقول إلى سلجوقشاه من بعده . ويرجع السبب في نجاح مسعى الخليفة في هذا الصلح إلى ظهور العدو المشترك ، وهو سنجر بن ملكشاه .

أما المعسكر الثالث فكان يتكون من طغرل بن السلطان محمود ، يناصره عمه سنجر . وقد استطاع سنجر أن يجمع من إقليم خراسان عدداً كبيراً من الجند هزم به مسعوداً وأنصاره عند مدينة همذان ، ونادى بالسلطنة لابن أخيه طغرل ^(١) . ولم يكن من المعقول أن يرضى المعسكران الآخران عن تولية طغرل السلطنة ، لذا تضاربت مصالح البيت السلجوقي وتعددت ، ففشبت الحروب بين هذه القوى الثلاث ، وأدى ذلك كله إلى اضطراب الشرق الإسلامي في ذلك الوقت .

وقد انتهت أدوار النزاع بين أفراد السلاجقة بجلوس السلطان مسعود على عرش السلطنة سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) . ويعتبر هذا السلطان آخر سلاطين السلاجقة الأقوياء ، فقد استطاع أن يقف ضد القوى المعادية للسلاجقة وأهمها الخلفاء العباسيين . ثم مات مسعود سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) ، ويعتبر المؤرخون هذه السنة بداية انحلال البيت السلجوقي في العراق وبداية انتهاء سعادته ^(٢) . فقد استطاع الخليفة العباسي المقتنى (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ = ١١٣٦ - ١١٦٠ م) أن يحد من سلطان السلاجقة بل ويجعل منهم العوبة في يده كما رأينا في موضع آخر .

وقد زال سلطان السلاجقة في فارس بوفاة آخر سلاطينهم الأقوياء

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٨٧ - ٢٨٩ ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٧٧ - ٨١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٠٣ .

وهو السلطان سنجر سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) . أما في العراق فقد استمرت قوة السلاجقة تصارع الحياة والحياة تصارعها إلى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) حين قتل آخر سلاطينهم وهو طغرل بك^(١) . والواقع أنه ب وفاة كل من سنجر وطغرل بك . انتهت الدولة السلجوقية تماماً ، وكانت الدولة الخوارزمية وريثتها .

وهكذا نجد أن الضعف في أثناء هذا الدور الثالث قد دب في صفوف السلاجقة حتى قدر لدولتهم أن تزول في النهاية . وكان أهم عامل من عوامل انحلال دولتهم ثم زوالها ، هو تسلط غريزة حب السيطرة عليهم فانصرفوا إلى إشباعها ولم يهتموا بمواجهة أعدائهم في الداخل والخارج على السواء . وقد وصف البندارى الانحلال الذي أصاب الدولة السلجوقية في عصر السلطان سنجر بسبب النزاع بين أفراد البيت السلجوقي بقوله :^(٢)

« لما امتدت مدة حياته (السلطان سنجر) ، وامتدت بالطول ،
« مادة عمره ، تسلط الأمراء على سلطان أمره ، وتسحبوا على ،
« قدره ، وحقر الصغير حق الكبير ، وتأخر الكبير لتقدم الصغير ،
« واستخف الوقور ووقر الخفيف وصرف القوى وصرف الضعيف ،
« ووقع التحاسد بينهم والتحاقد ، وارتفع وانحل التساعد والتعاقد . »

وحدير بالملاحظة هنا أن نذكر أن الخلفاء العباسيين الذين فقدوا هيبتهم في عهد السلاجقة وفي عهد البويهيين من قبلهم ، أخذوا يثورون لكرامتهم منذ أيام الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ = ١١١٨ - ١١٣٥ م) ، منتهزين فرصة انصراف أمراء السلاجقة إلى السكيد لبعضهم البعض ، ولم يترك الخلفاء وسيلة لإضعاف السلاجقة حتى اتخذوها ، فكانوا يتدخلون في النزاع القائم بين أفراد البيت السلجوقي ، منتصرين لفريق ضد فريق آخر حتى

(١) المقرئى: السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٣٠ - ٤١ .

(٢) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوقي ص ٢٥٢ .

إذا ما ضعف الفريقان، قويت الخلافة على حساب الفريقين المتنازعين معاً. ومن أقرب الأمثلة على صحة ما نقول، تشجيع الخليفة المسترشد للسلطان مسعود في النزاع الذي قام بينه وبين أخيه طغرل، وإمداده بالمال والرجال لهذا الغرض^(١). كذلك نجد الخليفة الراشد (٥٢٩ - ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ - ١١٣٦ م)، يستعين بعماد الدين زنكي في نزاعه مع السلطان مسعود^(٢). كما نجد الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ = ١١٨٠ - ١٢٢٥ م) يحرض الخوارزميين ضد طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة في العراق^(٣)، وتمكن علاء الدين تكش خوارزم شاه من قتل طغرلبك سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م)، وأرسل رأسه إلى الخليفة في بغداد^(٤).

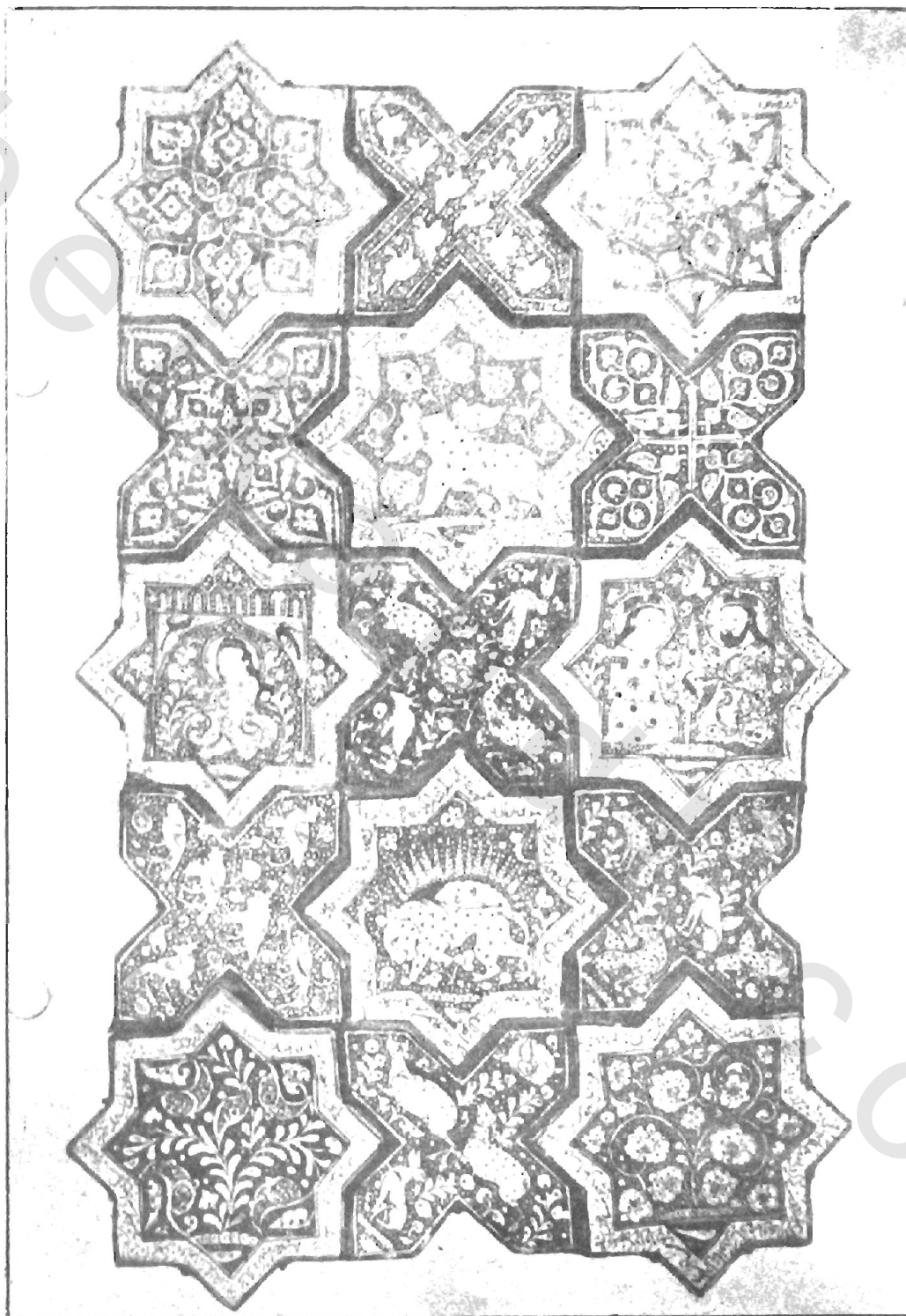
وعلى هذا الأساس نجد أن سوء سياسة السلاجقة الداخلية وعدم إيجاد قانون لوراثته العرش يحترمه الجميع، كان من أهم العوامل التي أدت إلى انحلال دولتهم ثم زوالها، وبذلك وجدها الخوارزميون لقمة سهلة ولم يجدوا صعوبة في ابتلاعها، فورثوا ما كان للبويهيين والسلاجقة من سلطان. على أننا نلاحظ أن النزاع الذي قام بين الخلفاء العباسيين وبين البويهيين والسلاجقة، نلاحظ أن هذا النزاع قد استمر أيضاً بينهم وبين الخوارزميين. وقد استفحل النزاع بين الطرفين، ولم ينته إلا بانتهاك كل من الخوارزميين والخلافة العباسية بعد أن قضى المغول على القوتين الواحدة تلو الأخرى.

(١) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية، ص ٨٧-٨٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٢-٩٦.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٥، ص ٩٤.

(٤) المفريزي: السلوك، ج ١، قسم ١، ص ٤٠.



مجموعة من البلاط القاشاني ذي البريق المعدني من القرن السابع الهجري (١٣ م)
(عن كتاب الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي للدكتور زكي محمد حسن)

البَابُ الثَّالِثُ

استفحال شأن طائفة الإسماعيلية

جهود القاطمين في نشر المذهب الإسماعيلي . عوامل نجاح الدعوة . نشأة الحسن بن الصباح . مراتب الدعوة . طبقة الفدائيين . استفحال شأن طائفة الإسماعيلية بعد وفاة ملكشاه . جهاد محمد بن ملكشاه ضد الإسماعيلية . سياسة سنجر بن ملكشاه إزاء الإسماعيلية . سياسة محمود بن محمد بن ملكشاه . مقتل الخليفة المسترشد والراشد . غارات الإسماعيلية على البلاد الإسلامية . سياسة المغول تجاه الإسماعيلية .

الباب الثالث

استفحال شأن طائفة الإسماعيلية ^(١)

منذ أن استتب الأمر للفاطميين في مصر ، أخذوا يروجون للمذهب الإسماعيلي في بلاد المشرق وسط أراضي الدولة العباسية . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى إضعاف الخلافة العباسية في النهاية إذا لم يتمكنوا من القضاء عليها . غير أنه حدث أن انقسم أنصار هذه الدعوة منذ أيام الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٢٧ - ٥٤٨٧ = ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) ، فادعى بعض أنه أوصى بالخلافة من بعده لابنه نزار ، وأدعى بعض آخر أنه أوصى بها لابنه المستعلي ، فنشأت هناك بسبب ذلك فرقتان متعارضتان تناصر إحداهما نزارا وتناصر الأخرى المستعلي ، وقد اتخذت الفرقة الأولى من بلاد المشرق مهداً لها بزعامه الحسن بن الصباح ، ولذا سموها بالإسماعيلية الشرقيين ، أما الفرقة التي كانت تناصر المستعلي فقد بقيت في مصر ، ولذا سمي أتباعها بالإسماعيلية الغربيين .

ولا يهمنا من تتبع تاريخ هذه الطائفة أن نتحدث عن دعوتهم الدينية إلا بالقدر الذي يعيننا على إيضاح هدفنا الأول وهو تأثير هذه الطائفة فيما

(١) سميت هذه الطائفة بالإسماعيلية لأن أتباعها يدينون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، واشتهروا أيضاً بالباطنية لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون ، وسموا بالملاحدة لأن مذهبهم يقوم على الإلحاد . انظر الفلشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٤٥ . وقد عرفوا أيضاً بالحشيشية . انظر ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ص ٦٨ . وأبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، ص ٥٢ ، ١٩٨ ، (طبعة R.H.C.O. tom. v.) . وقد سموا بهذا الاسم لاستخدامهم مادة الحشيش المخدرة في التفليل بقول من يدخلون الدعوة ، كما ذكرت مفصلاً في صلب الكتاب .

أصاب بلاد المشرق من ضعف فوق ما كان عليه من ضعف أدى في النهاية إلى زوال الدولة العباسية على أيدي المغول .

لم يأت الحسن بن الصباح إلى بلاد المشرق ليضعف الشرق الإسلامي ، ولكنه استطاع أن ينتهز فرصة ما كانت عليه هذه البلاد من ضعف ليقوى بسلطانه ، فكانت النتيجة أن نشأ عامل جديد من عوامل إضعاف المسلمين ، عامل عنيف أدى إلى زيادة التفكك والانحلال ، إذ كانت السياسة المرسومة لنجاح هذه الطائفة تهدف إلى تقويتها على حساب الانقسام الديني والعنصري الحادث في قلب الدولة (١) . ويتجلى الانقسام الديني في النزاع الذي قام بين السفين والشييعين نتيجة لما كان يبعث به الفاطميون في مصر من دعاة يدعون للذهب الإسماعيلي في بلاد المشرق وإلقاء بذور الثورة في أراضى الدولة العباسية (٢) . وثمة عامل آخر أدى إلى إضعاف الخلافة العباسية وبالتالي إلى ظهور طائفة الإسماعيلية ، وهو النزاع العنصري بين البويهيين ثم السلاجقة وبين الخلافة العباسية ، هذا بالإضافة إلى النزاع الذي كان قائماً بين أفراد البيت السلجوقي أنفسهم والذي تكلمنا عنه في الباب السابق . هذه العوامل الداخلية بالإضافة إلى العوامل الخارجية التي تتمثل في الصراع القائم بين البيزنطيين والصليبيين من جهة وبين العباسيين من جهة أخرى ، كل هذه العوامل كان لها أثرها في تمهيد الطريق لنجاح الدعوة الإسماعيلية في بلاد المشرق .

وكان لمدارس الدعوة الشيعية في القاهرة أكبر الأثر في نجاح الدعوة ، إذ أنها كانت ترسل دعائها إلى كل بلاد فارس ، رغم أنهم كانوا موضع اضطهاد العباسيين وعرضة للهلاك أينما عثر عليهم ، مما أدى حتماً إلى تماسك

(١) انظر كتاب « الدولة الخوارزمية والمغول » للدؤلف ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٢) Von Hammer : Histoire de L'Ordre Des Assassins, p. 75.

هذه الفئة وتكاتفها ، شأنها في ذلك شأن كل أقلية مضطهدة . وكان من أثر ذلك أن نجحت هذه الفئة نجاحاً منقطع النظير ، وساعدها على ذلك بعد فارس عن بغداد مركز الخلافة العباسية . وكان البطل الذي استطاع أن يستغل كل هذه الظروف لمصلحته ومصلحة جماعته هو الحسن بن الصباح الذي استطاع أن يكون قوة لها شأنها ، كانت موضع هيبة الجميع ولم يستطع المسلمون أن يقفوا في تيارها .

ويعتبر السلطان ألب أرسلان السلجوقي مسئولاً إلى حد ما عن نجاح هذه الدعوة لأنه ألغى نظام البريد الذي كان معمولاً به في الدولة الإسلامية بإيعاز من وزيره نظام الملك ، فلم يهتم السلاجقة باستقصاء أخبار دولتهم مما ساعد على انتشار هذه الجماعة ونجاح دعوة الحسن بن الصباح ، يؤكد هذا القول ما ذكره البندارى في العبارة الآتية ^(١) :

« وكان منهم (أى من طائفة الإسماعيلية) رجل من أهل الرى ،
« (الحسن بن الصباح) ، وساح في العالم ، وكانت صناعته الكتابة ، ،
« غنى أمره حتى ظهر وقام ، فأقام من الفتنة كل قيامة ، واستولى في ،
« مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة . وبدأ من القتل والفتك ،
« بأمور شنيعة ، وخفيت عن الناس أحوالهم ودامت حتى استتبنت ،
« على استتار بسبب أن لم يكن للدولة أصحاب أخبار . وكان الرسم في ،
« أيام الديلم (البويهيين) ومن قبلهم من الملوك أنهم لم يخلوا جانباً ،
« من صاحب خبر وبريد ، فلم يخف عندهم أخبار الأقاصى والأداني ،
« وحال الطائع والعاصي ، حتى ولى (ولا ، في الأصل) في الدولة السلجوقية ،
« (كذا) ألب أرسلان محمد بن داود ففاوضه نظام الملك في هذا الأمر ،
« فأجابته أنه لا حاجة بنا إلى صاحب خبر ، فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من ،

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، من ٦٢ - ٦٣ .

« أصدقاء لنا وأعداء ، فإذا نقل إلينا صاحب الخبر وكان له غرض ،
« أخرج الصديق في صورة العدو والعدو في صورة الصديق . .
« فأسقط الساطان هذا الرسم لأجل وقوعه من الوهم ، فلم يشعر إلا ،
« بظهور القوم وقد استحكمت قواعدهم واستوثقت معاقدهم وأخافوا ،
« السبل وأجالوا على الأكارب الأجل . .

وهناك أمر آخر لا يمكن إغفاله عند التعرض للأسباب التي أدت إلى
سرعة انتشار الدعوة الإسماعيلية في بلاد المشرق ، وهو سوء الحياة
الاجتماعية واضطراب الحالة الاقتصادية في بلاد المشرق في ذلك الوقت ،
فضلا عن التباين الواضح في توزيع الثروة بين مختلف الطبقات في المجتمع
الإسلامي . فبينما كانت رموس الأموال مكيدة لدى فئة قليلة من الرأسماليين .
كانت طبقة العامة وأصحاب الحرف تزرع تحت براثن الفقر المدقع ، وتعانى
ويلات العرى والحرمان والفاقة ، مما أدى إلى تكتل هذه الفئة وتكاتفها ،
وأصبحت تتوق إلى التخلص من هذه الحالة بالثورة على طبقة الرأسماليين
والطبقة الحاكمة . وإذا علمنا أن مبدأ الإباحية كان من أهم المبادئ التي سنّها
الحسن بن الصباح لجماعته ^(١) ، وهي مبادئ لا تخرج عن أن تكون استمرارا
للمبادئ الفارسية الهدامة التي تتجلى في الحركات المعروفة بالراوندية والمقنعية
والخرمية وغيرها والتي تكلمنا عنها في إيجاز في الباب الأول ^(٢) ،
إذا علمنا ذلك ، أدركنا كيف ارتمت هذه الطبقة الساخطة في أحضان الحسن
بن الصباح في شبه تكتل ، علما تستطيع أن تجد في مبادئه فرارا من الفقر
الذي يلاحقها . ونستطيع بعد ذلك أن نتصور كيف استغل الحسن هذا
الشعور بين هذه الطبقات المعدمة ليقوى بمذهبه . وهكذا نرى أن الحسن
قد استطاع أن ينفذ إلى غرضه عن طريق نشر الدعوة بين طبقة العامة من

(١) Lamb : The Crusades ; The Flame of Islam, p. 29.

(٢) راجع ما كتبناه عن هذه الحركات الهدامة في ص ١٩ - ٢٠ .

المعوزين ، مبتعداً عن طبقة كبار العلماء والمفكرين ، وكان في ذلك سياسياً بارعاً .

* * *

نشأ الحسن بن الصباح شيعياً متحمساً لمذهبه ، ودخل في خدمة البيت السلجوقي منذ أيام السلطان ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ = ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م) ، ولكن شأنه لم يظهر إلا أيام ملكشاه نفسه . وقد طرد في عهد ملكشاه من ديوان السلالة بسبب ميوله الدينية ، واعتناقه عقائد المذهب الإسماعيلي التي تتعارض مع مذهب نظام الملك ، وهو الوزير السني المتعصب . وقد عين عبد الملك بن عطاش رئيس الدعوة الإسماعيلية بالعراق الحسن ابن الصباح داعياً في مدينة أصفهان ^(١) ، ولكن الحسن رحل بعد ذلك إلى مصر ليتعمق في دراسة المذهب الإسماعيلي . فخرج من أصفهان سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) عن طريق أذربيجان وميافارقين ثم وصل إلى عكا ومنها ركب البحر متخفياً في زى تاجر ^(٢) حتى وصل إلى مصر ، وهناك كان محل احترام الجميع وعلى رأسهم الخليفة المستنصر الفاطمي نفسه . وقد أخذ الوزير بدر الجمالي يكيد للحسن بن الصباح ، وتمكن من سجنه في مدينة دمياط ، ولما أراد نفيه إلى بلاد المغرب قذفت به السفن إلى بلاد الشام . ويرجع البغض الذي كان يكنه بدر الجمالي للحسن بن الصباح إلى رغبة بدر الجمالي في تولية المستعلى ابن الأصغر للمستنصر من بعده ، على حين كان الحسن ابن الصباح من القائلين بأحقية ابنه الثاني نزار للخلافة ^(٣) . ولما عاد الحسن إلى بلاد المشرق أخذ يتنقل في بلاد العراق وفارس ،

(١) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, 203.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٩٨ .

(٣) يرجع السبب في رغبة بدر الجمالي تولية المستعلى الخلافة بعد أبيه المستنصر إلى أنه كان جده لأمه ، فقد كان الخليفة المستنصر الفاطمي متزوجاً من ابنة بدر الجمالي .

ينشر مذهبه في كل مكان يحل به ، كما حرص على أن يدعو للخليفة المستنصر ولابنه نزار من بعده .^(١) وقد أخذ الحسن يستولى على كثير من قلاع البلاد الإسلامية ويتخذها حصوناً له ، وكان استيلاؤه على قلعة الموت ، سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م)^(٢) ، تلك القلعة التي بناها ملكشاه^(٣) ، بداية لازدهار دعوته ، لأن استيلاءه عليها ساعده على أن يستولى على كثير من البلاد المجاورة ، وأن يؤسس كثيراً من القلاع في إقليم خوزستان^(٤) .

وقد استولى الحسن بن الصباح على كثير من مدن قوهستان^(٥) ، مستعملاً للين تارة والعنف أخرى ، بل أخذ يبني القلاع فوق الجبال ، وأصبح بذلك يهدد البلاد الإسلامية في الشرق والغرب^(٦) .

وسواء أكان الحسن بن الصباح يعمل لنفسه كما يقول فون هامر Von Hammer^(٧) ، أم أنه كان يعمل للخليفة المستنصر ومن بعده لابنه نزار ، فإن غايته وغاية أتباعه في النهاية كانت تهدف إلى إسقاط الخلافة العباسية . ولم يتردد الحسن بن الصباح ، من أجل الوصول إلى هدفه ، في أن يسلك طرق القتل والإرهاب وسفك الدماء في كل ناحية من نواحي البلاد الإسلامية . وقد ترك الحسن بن الصباح لتفكيره العنان ، فلم يقنع بأن يكون داعياً للمذهب الشيعي فحسب ، بل أراد أن يكون ذا بأس وسلطان ولم يترك فرصة من الفرص إلا استغلها للوصول إلى هدفه . فلما كثر أتباعه وتكاثروا ، قسمهم سبع درجات رئيسية هي^(٨) :

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٣٧ .

(٢) Sykes : A History of Persia, p. 54.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٤٤ .

(٤) Bretschneider : Mediæval Researches, vol. i, p. 116.

(٥) Sykes : A History of Persia, p. 54.

(٦) D'ohsson : Histoire des Mongols, Tom. iii, pp. 157—158.

(٧) Von Hammer : Histoire de L'Ordre des Assassins, p. 84.

(٨) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 206.

لوحة ٧



الحسن بن الصباح بين أتباعه

(من كتاب Universal History of the World, vol. 5)

١ — داعى الدعاة The Chief Propagandist أو رئيس الدعوة The Grand Master ، ويسمى خارج نطاق طائفة الإسماعيلية بشيخ الجبل The Mountain Chief ، وكان الحسن بن الصباح فى هذه المرتبة .

٢ — كبار الدعاة The Grand Priors أو Superior Propagandists ، وهم ثلاثة ممن يثق بهم الحسن بن الصباح ، ويختص كل واحد منهم بإقليم من الأقاليم التى يعمل الحسن على نشر الدعوة فيها وهى المراق العجمى ، وقوهستان ، وبلاد الشام . وكان كل من هؤلاء الدعاة الكبار يعمل على نشر الدعوة فى الإقليم الذى ييسده ، ويرجع فيما يعن له من الأمور إلى الحسن بن الصباح .

٣ — الدعاة The Ordinary Propagandists ، وكان هؤلاء من الذين تخرجوا فى مدارس الدعوة فى الموت ، وكانوا أكبر عون للفئة السابقة ويقيمون معهم فى أقاليمهم ، وكانت مهمتهم نشر الدعوة الإسماعيلية ولا سيما وأن هؤلاء كانوا من العارفين بأصول المذهب الإسماعيلى وأسراره .
٤ — الرفاق Companions ، وكان هؤلاء من المتبحرين أيضاً فى أصول المذهب الإسماعيلى ، والفرق بينهم وبين الدعاة ، أن هؤلاء كانت مهمتهم الإلمام بمبادئ الجماعة والمحافظة عليها دون أن يكون لهم حق نشرها كما يحدث عند طبقة الدعاة .

٥ — الالصقون Adherents ، ولم يكن هؤلاء ممن تعمقوا فى معرفة أصول الدعوة ، ولكنهم من الذين تعهدوا بالطاعة والولاء للجماعة .

٦ — الفدائيون Self-devoted Ones ، وكانت هذه الطبقة أهم الطبقات التى اعتمد عليها الحسن بن الصباح ، فقد كانت الأداة التى استعملها للقضاء على أعدائه ، ولم يكن من الضرورى فى نظر الحسن بن الصباح أن يكون أفراد هذه الفئة من المبلين بمبادئ الدعوة ، وإنما يشترط فيهم أن يتفانوا فى طاعة رؤسائهم .

٧- المستجيبون، أو طبقة العامة The People، وهم الذين دخلوا الدعوة.

وكان من سياسة الحسن اجتذاب أكبر عدد ممكن من المسلمين إلى صفوفه، وقد تمكن فعلا من أن يضع يده على مئات القلاع في الأقاليم الإسلامية، لا في الشرق وحده بل في بلاد الشام أيضا، كما كان له في كل مدينة أنصار، وفي كل إقليم قلاع تأتمر بأمره.

ويلاحظ أن الحسن بن الصباح كان يعتمد اعتمادا كبيرا على طبقة الفدائيين، الذين كانوا يضحون بأنفسهم في سبيل طاعة رئيسهم طاعة عمياء ولذلك يعتبر الفدائيون سر نجاحه. وكان يختارهم من الشبان المتحمسين، الذين أصبحوا أداة للانتقام والذين أوقعوا الرعب والذعر في قلوب جميع السكان في بلاد المشرق^(١).

وقد تدرب الفدائيون على فن التخفي واستعمال السلاح وتعلم اللغات الأجنبية، وكانوا يقتلون المسلمين أيام الجمع في المساجد، كما يقتلون الأمراء المسيحيين في الكنائس علنا^(٢). فقد وصل الأمر بهؤلاء الفدائيين، أنهم كانوا إذا أرادوا قتل أمير مسيحي، ادعوا الدخول في المسيحية وأظهروا الولاء والإخلاص للدين الجديد، فيقبل القساوسة والرهبان عليهم ويظلمونهم برعايتهم وبهذه الطريقة يتمكنون من التردد بكثرة على الكنائس، حتى إذا ماتوجه هذا الأمير إلى الكنيسة للصلاة، وثبوا عليه وأردوه قتيلا. وكان الحسن بن الصباح إذا رأى أن يقتل أميرا من الأمراء أو خليفة من الخلفاء، أرسل إليه عادة ثلاثة من الفدائيين فينتهزون فرصة خروج ذلك الأمير للصلاة حتى إذا ما استقر بالمسجد وثب عليه الرجل الأول، وكال له

(١) Sykes : A History of Persia, p. 55.

(٢) Browne : A Literary History of Persia, vol. II, p. 209.

(٣) أبو شامة : الروصتين في أخبار الدولتين، ص ٥٢.

الطعنات بخنجره ، وإذا فشل هذا الرجل أكمل الرجلان الآخران مهمته^(١). وعلى هذا الأساس ، راح كثير من رجالات الدولة الإسلامية فريسة لانتقام زعماء الإسماعيلية ، ومن هؤلاء الخليفان المسترشد والراشد ، فقد قتل الأول على أيديهم سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م)^(٢) ، وقتل الثاني سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م)^(٣) . ومن الشخصيات البارزة أيضا التي راحت ضحيتهم الوزير نظام الملك ، فقد قتله أحد الفدائيين سنة ٥٤٨ هـ (١٠٩٢ م)^(٤) .

ويحق لنا أن نقف هنا لتعرف السبب في تفاني أفراد هذه الطبقة في طاعة داعي الدعاة ، وتسابقهم إلى التضحية بأنفسهم في سبيل تأدية ما يؤمرون به . ليس هناك من شك في أن دعاة الدعاة قد عنوا بتربية طبقة الفدائيين ، فقد كان الكثيرون منهم يربون في بيوتهم منذ نعومة أظفارهم وهناك يلقنون الاعتقاد بأن قوة داعي الدعاة إنما تفوق قوة البشر ، وأن في مقدوره أن يضع في الجنة من يشاء ويسلب هذا النعيم من يشاء ، كما ربوا على الاعتقاد بأن في مقدوره أن يأتي بالمعجزات ، وذلك بفضل ما أوتي من دهاء وقدرة على التمثيل ، والخداع ، والشعوذة .

وقد وصف لنا إدوارد بروان Edward Browne^(٥) ، نقلا عما كتبه الرحالة ماركوپولو في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ما كان يفعله داعي دعاة الإسماعيلية لجعل الفدائيين يعتقدون أن في استطاعته أن يدخلهم الجنة متى شاء . فذكر ماركوپولو أن زعيم الإسماعيلية أمر بإنشاء حديقة متسعة غناء في واد بين جبلين وملاها بأشجار الفاكهة المختلفة

(١) Harold Lamb : The Crusades, p. 30.

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٩ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأنابكية ؛ ماوك الموصل ، ص ٩٨ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٩ .

(٥) Browne : A Literary History of Persia, vol. II, pp. 207-208.

كما أقام فيها القصور الفخمة التي طلائها وزينها بطلاء من ذهب ، وحفر فيها قنوات
ملاى بالخمور واللبن والعسل والماء . كما ملأ هذه الجنة بالجوارى الحسن
اللائى يجدن العزف على آلات الموسيقى واللائى يجدن الغناء والرقص .
وكان الحسن بن الصباح يرمى من وراء ذلك كله أن يعتقد من يرى هذا المكان
أن هذه هى الجنة التى وعد الله بها عباده الصالحين . وكان داعى دعاة
الإسماعيلية يحتفظ فى قصره بعدد من الغلمان ممن تتراوح أعمارهم بين الثانية
عشرة والعشرين ، فيصف لهم الجنة حسب ما جاء عنها فى القرآن الكريم
وفى آحادىث الرسول . ولكى يبرهن لهم على أن فى استطاعته أن يدخلهم
هذه الجنة ، كان يخدرهم بمادة الحشيش ، ثم يحملهم إلى هذه الحديقة فى
جماعات صغيرة قد تكون أربعة أو ستة أو عشرة ، فى كل مرة . فإذا ما أفاقوا
اعتقدوا أنهم فى جنة الفردوس . وبعد أن يروا بأعينهم الجنة التى وعدهم
الله بها ، يحملون إلى قصر داعى الدعاة بنفس الطريقة . أى بعد أن يخدروا
بمادة الحشيش ، فإذا ما أفاقوا آمنوا بقدرته وتفانوا فى خدمته وطاعته ،
واعتقدوا أنهم فى حضرة نبي حقيق ، وفى هذه الأثناء يسكون باقى الغلمان
فى القصر قد استمعوا إلى وصف هذه الجنة ، فيتوقون بدورهم
إلى دخولها .

ونتيجة لذلك كله ، كان داعى الدعاة إذا أراد قتل أمير من الأمراء ، سلط
عليه أحد هؤلاء الفدائيين ، فلا يتردد فى السعى إلى تحقيق ما يؤمر به ، اعتقاداً
منه أنه إذا أدى هذه المهمة على خير وجه فستكون الجنة مثواه ، سواء
عاد من هذه المهمة سالماً أو لقي حتفه . وهكذا استطاع الحسن بن الصباح
أن يثير الرعب فى قلوب الأفراد من المسلمين وغير المسلمين ، حتى اضطر
الكثيرون أن يدفعوا الضرائب التى يفرضها عليهم دفعاً لشره .

على أن شر طائفة الإسماعيلية لم يظهر بوضوح ولم يستفحل إلا بعد

وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) . وقد ذكرنا في موضع آخر أن الخلاف قد دب بين أبنائه على العرش وخاصة بين بركياروق وأخيه محمد ، كما ذكرنا أن هذه الأناثية البالغة بين أعضاء الأسرة السلجوقية والتي أدت إلى انصرافهم إلى الحروب الأهلية كان لها أثرها في ازدياد قوة طائفة الإسماعيلية ، وامتداد شرهم في هذا العصر إلى حياة الخلفاء وكبار رجال الدولة .

وليس هناك من شك في أن ظهور الصليبيين وانشغال السلاجقة بمحاربتهم ، كان له أثره في انصراف السلاجقة عن الحسن بن الصباح وأتباعه . أضف إلى ذلك أن تفاني الفدائي في سبيل تنفيذ ما يؤمر به كان له أثره في خوف عامة الشعب من الإسماعيلية ، فاضطر الكثيرون إلى مسالمتهم ، بل وانضم الكثيرون إليهم خوفاً منهم واتقاء لشرهم .

وليس معنى ما تقدم أن شر طائفة الإسماعيلية لم يظهر إلا بعد وفاة ملكشاه ، ولكننا نقول إن خطرهما لم يستفحل إلا منذ ذلك الوقت ، فقد قدر عدد دم في عهد ملكشاه نفسه بمائة وستين ألف رجل ، اتخذوا من الحصون ملجأ لهم^(١) . وقد حدث أن أرسل ملكشاه بعض قواده عدة مرات للاستيلاء على قلعة الموت مركز طائفة الإسماعيلية ، ولكنه لم يستطع القضاء على هذه الطائفة ، لتماسكها أولاً ، ولتفانيها في المقاومة ثانياً . بل من الثابت أن الحسن بن الصباح أرسل من استطاع أن يقتل نظام الملك نفسه لينشر بمقتله الرعب بين كبار رجال المسلمين ، ويبذر بذور الفوضى في الدولة الإسلامية ، وربما كان الدافع له أيضاً رغبته في الانتقام من نظام الملك لعدائه الشخصي له كما ذكرنا .

وإذا كان هذا هو حال طائفة الإسماعيلية في عهد ملكشاه ، أقوى

سلاطين الدولة السلجوقية ، فلا بد أن يكون شأنهم قد استفحل بعد وفاته وخاصة بعد أن تفاقم النزاع بين أبنائه . فقد انتهز زعماء الإسماعيلية هذه الفرصة وأخذوا يروجون لمذهبهم بطرق فوضوية قاسية ، منها خطف من يخالف مذهبهم وقتله . ومن الغريب أن بركياروق استعان بهذه الطائفة على أعدائه^(١) . فكان طبيعياً أن يزداد نفوذها نتيجة لذلك ، كما كان طبيعياً أن تجلب له هذه السياسة عداوة المسلمين . وقد استغل أنصار أخيه محمد بن ملكشاه شعور المسلمين العدائي ضد بركياروق فاتهموه بالانحراف إلى طائفة الإسماعيلية ، ولذا لم ير بدا من أن ينفي هذه الشائعات عن نفسه بأن قلب الإسماعيلية ظهر المجن ، وأعمل القتل في رقابهم كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً^(٢) حتى بلغ عدد من قتلهم منهم سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م) نيفا وثلاثمائة^(٣) .

ولم تكن حماسة السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨ - ٥١١ هـ) = ١١٠٥ - ١١١٨ م) ، أقل من حماسة أخيه في التنكيل بهذه الطائفة وخاصة عندما رأى تماديها في إيذاء المسلمين ونهب القرى ، وقطع الطرق ، وفرض الإتاوات على سكان القرى المجاورة لهم نظير السكف عن إيذائهم منتهزين فرصة ذلك النزاع الذي قام بينه وبين بركياروق ، فلما خلاص محمد من مشاكله ، وضع نصب عينيه القضاء على هذه الطائفة حتى يأمن المسلمون شرها^(٤) .

وقد استطاع السلطان محمد أن يستولى سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) على قلعة « شاه ذر » القريبة من أصفهان ، وكانت هذه القلعة من أكبر معاقل

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٥٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٣٤ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٦٦ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٨١ .

الإسماعيلية^(١) . وليس أدل على خطر شأن طائفة الإسماعيلية في ذلك العصر من الكتاب الذي أرسله السلطان محمد إلى عماله بالأقاليم بعد أن استولى على هذه القلعة ، وقد جاء فيه :

« الحمد لله على ما يسرناله من إعزاز الدين ورفع عماده ووقع ،
« أضداده واستئصال شأفة الباطنية المناهضين لعناده ، الذين ،
« استركوا العقول الفاسدة فاستغروها بأباطيهم واستهدوها ،
« بأضاليلهم ، واتخذوا دين الله هزوا ولعبا بما لفقوه من ،
« زخارف أقاويلهم ، سيما ما سنى الله من فتح الفتوح وهيا أسبابه ،
« من النصر الممنوح بأخذ قلعة وشاه ذر ، التي شتم بها الجبل وبذخ ،
« وكان الباطل باض فيها وفرخ . . . وفيها ابن عطاءش الذي طار ،
« عقله في مدرج الضلال وطاش . . . وكان يستبيح دماء المسلمين ،
« هدرا ويستحل أموالهم غررا ، فكم من دماء سفكت وحرم ،
« انتهكت وأموال استهلكت ، وترات تجرعتها النفوس فما ،
« استدركت ، ولو لم يكن منهم إلا ما كان عند حدثان أمرهم ،
« بأصفهان من اقتناص الناس غيلة واستدراجهم خديعة ، وقتلهم ،
« إياهم بأنواع العقوبات قتلة شنيعة ، ثم فتكهم عوداً على بدء ،
« بأعيان الحشم وخيار العلماء ، وإراقتهم ما لا يعد ولا يحصى من ،
« محرمات الدماء إلى غير ذلك من هنات يمتعض الإسلام لها أى ،
« امتعاض وما الله عن المسلم أن يتهين لها براض ، لكان حقاً ،
« علينا أن نناضل عن حمى الدين ونركب الصعب والذلول فى ،
« مجاهدتها ولو إلى الصين . وهذه القلعة كانت من أمهات القلاع ،
« التى انقطع إليها رؤوس الباطنية كل الانقطاع ، فكان نبث »

(١) ابن الفلانى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥١ .

« الحباطل منها إلى سائر الجهات والأقطار ، وترجع إليها نتائج ،
« الفساد رجوع الطير إلى الأوكار ^(١) . »

وإذا دل هذا الكتاب على شيء فإنما يدل على مبلغ استفحال خطر
الإسماعيلية في بلاد الدولة العباسية بحيث أصبح خطرهم لا يخفى على سلاطين
آل سلجوق .

وبعد أن استولى السلطان محمد على هذه القلعة ، وجه جهوده إلى قلعة
« الموت » فسير إليها عدة حملات . وليس من المهم أن ندخل في تفصيل
هذه الحملات ، التي لا تعدو أن تكون مناوشات ومقدمة لحصار هذه القلعة ،
وإنما المهم أن نذكر أن هذه الحملات إن دلت على شيء فإنما تدل على مبلغ
ما وصل إليه الحسن بن الصباح وأتباعه من قوة استلفتت أنظار السلطان
محمد خاصة والسلاجقة عامة مما دعاهم إلى مناهضتها .

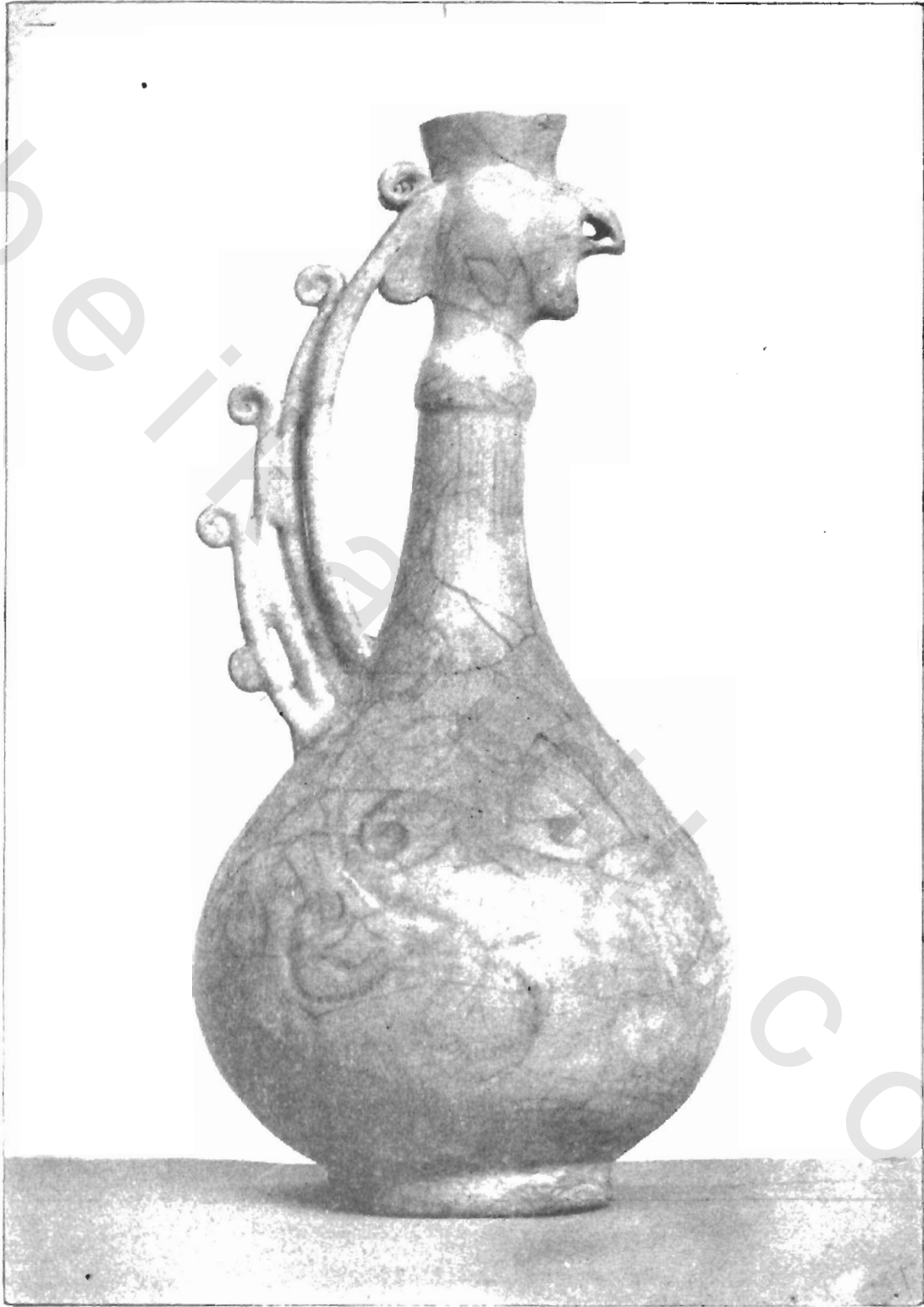
وقد فقد المسلمون أكبر مناهض لهذه الطائفة بموت السلطان محمد
سنة ٥١١ هـ (١١١٨ م) ، إذ لو قدر له أن يحيا لعدة سنوات بعد ذلك ،
لربما أتيحت له فرصة الاستيلاء على قلعة الموت ، وأن يسبق المغول في
القضاء على هذه الطائفة في عقر دارها . وقد ذكر فون هامر Von Hammer
أن السلطان محمد بن ملكشاه كان متحمساً في كفاحه ضد طائفة الإسماعيلية
لدرجة أنهم خشوا بأسه فدسوا له السم فمات ^(٢)

وبموت السلطان محمد قام صراع عنيف بين السلطان سنجر بن ملكشاه
وبين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه كما ذكرنا في موضع آخر ، وكان
من أثر هذا الصراع أن استفحل شأن طائفة الإسماعيلية . فإن هذه الحروب
الأهلية التي سادت عصر السلطان سنجر وأخوته قد مكنت الإسماعيلية من
أن يدعموا قوتهم بطريقة تدعو إلى الإعجاب ^(٣)

(١) ابن الفلاني : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٣ .

(٢) Von Hammer : Histoire de L'Ordre Des Assassins, p. 112.

(٣) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 312.



إناء من الخزف الإيراني يرجع إلى القرن الرابع أو الخامس الهجري (١٠ - ١١ م)
ومحفوظ بالقسم الاسلامي من متحف برلين

ورغم ذلك الشقاق الذي قام في قلب الدولة السلجوقية ، فإن قوة الإسماعيلية وشعور المسلمين بحسامة خطرهما ، كل ذلك جعل السلطان سنجر يوجه الكثير من عنايته إلى قلعة ألموت ، ابتغاء القضاء على الحسن بن الصباح الذي حاول أن يصد السلطان سنجر بالحيلة تارة وبالتهديد تارة أخرى ، ولما لم يستطع ، لجأ إلى حيلة طريفة تلخص في أنه اجتذب إليه إحدى وصيفات السلطان سنجر وأغراها بغرس خنجر بجوار فراشه ، حتى إذا ما استيقظ ، أخذ الفزع والرعب . ثم أتبع ذلك برسالة تهديد للسلطان سنجر يقول فيها : « إن الذي يستطيع أن يغرس هذا الخنجر في الأرض اليابسة ، يستطيع أن يغرسه في صدر السلطان »^(١) . وكان لهذه الرسالة أثرها في فك الحصار عن قلعة ألموت ، إذ خاف السلطان سنجر عاقبة هذا التحذير^(٢) ؛ بل نجد هذا السلطان يعقد معاهدة في سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) مع الحسن بن الصباح ، تعهد فيها الحسن بالأياد في تحصين قلاعه ، أو يقوى نفسه حريياً بشراء آلات الحرب ، أو يدخل في مذهبه آخرين . وفي مقابل ذلك تعهد السلطان سنجر بإعفاء الإسماعيلية من أهالي إقليم كردكوه من الضرائب .

وإذا نظرنا إلى هذه المعاهدة ، نرى أن السلطان سنجر قد أعطى ولم يأخذ ، إذ لم يعمل الحسن بن الصباح بما نصت عليه هذه المعاهدة^(٣) ، بعكس السلطان سنجر الذي لم يوجه جهوده ضد الإسماعيلية بعد ذلك لفترة طويلة من الزمن .

(١) Von Hammer : Histoire de L'Ordre des Assassins, p. 112.

(٢) Fraser : Historical and Descriptive Account of Persia, pp . 221-224.

& Dubeux : La Perse, p. 347.

(٣) D'ohsson : Histoire des Mongols, tom. iij, p. 161.

على أن سياسة السلطان سنجر والسلطان محمود بن محمد إزاء الإسماعيلية قد تغيرت بعد ذلك ، وتحولت من سياسة المسالمة إلى سياسة العداء ، إذ أن هذه الطائفة كانت تعمل حسب مبادئها الخاصة من حيث قتل الأفراد الذين يشك في عدائهم ، ولو كانت الفريسة من أقرب المقربين إلى السلطان ، وذهب ضحية هذه المبادئ آقسنقر أمير الموصل عام ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، وكان من المقربين إلى السلطان محمود . ثم إن هذه الطائفة أخذت تشيد القلاع الكثيرة ، مما أثار غضب سلاطين السلاجقة . وربما يرجع السبب في تغير سياسة السلطان سنجر تجاه طائفة الإسماعيلية إلى وفاة الحسن بن الصباح سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) ، وإلى شدة تعصب أتباعه لمذهبهم لدرجة أفقدتهم صوابهم . ولذا نرى أن سياسة سنجر العدائية تجاه الإسماعيلية تظهر بوضوح بعد هذه السنة ، فنجد وزيره أبا نصر أحمد بن الفضل ، وهو من أعظم المتحمسين ضدهم ، يعلن الحرب عليهم سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، ويأمر بقتل من يُعثر عليه منهم ، كما نراه يأمر بنهب أموالهم وسبي حريمهم^(١) . وهكذا نشأت بين الطرفين سلسلة حروب ، حاول السلطان سنجر في أثنائها أن يستولي على قلعة الموت . وقد استطاع هذا السلطان سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) أن يقتل منهم أكثر من عشرة آلاف رجل^(٢) .

ولم نقل كراهة السلطان محمود بن محمد في العراق للإسماعيلية عن كراهة السلطان سنجر لهم ، فقد حنق عليهم لمقتل آقسنقر وأخذ يستعد لحربهم منذ عام ٥٢٣ هـ (١١٢٨ م) ، بعد أن نهبوا مدينة البصرة^(٣) . وقد رأى السلطان محمود أن يبادل هذه الطائفة العداء ، إرضاء للسنيين من رعيته . وعلى الرغم من أنه تمكن من الاستيلاء على قلعة الموت سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٩ م) ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٦٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١٠ ص ٢٧٦ .

(٣) ابن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البصر ، ص ٣٤ - ٣٥ .

إلا أن هذا كان نصراً مؤقتاً ، فالبث أن استرد الإسماعيلية قلعهم بعد وفاته سنة ٥٢٥هـ (١١٣٠م) ، إذ كان تنازع الأمراء من آل سلجوق على السلطنة من بعده وانتشار الفوضى في العراق على أثر ذلك ، من الأمور التي شجعت الإسماعيلية على النهوض من كبوتهم . وكان من الطبيعي ألا يقتصر نشاط الإسماعيلية بعد ذلك على مناهضة السلاجقة وحدهم ، بل أصبحت سياستهم مزدوجة ، ترمى إلى مناوأة السلاجقة والخلفاء العباسيين معاً .

ولعله من الضروري أن نذكر في هذا المقام أن الخلفاء العباسيين أخذوا ينهضون من رقادهم في هذه الفترة ، ويحاولون استعادة نفوذهم القديم ، واتخذوا من ضعف السلاجقة فرصة لتحقيق آمالهم . وكان من الطبيعي ألا يرضى السلاجقة عن هذه النهضة التي تؤدي إلى القضاء عليهم نهائياً إذا قدر لها النجاح ، لذا قام بين الخلفاء والسلاجقة صراع عنيف ، ولجأ السلاجقة إلى الاستعانة بالإسماعيلية على الخلفاء . ولذلك نرى أنه لما دب الخلاف بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود ، قتل جماعة من الفدائيين الخليفة ومثلوا به بأن قطعوا أنفه وأذنيه^(١) ، وكان ذلك بإيعاز من السلطان مسعود^(٢) .

ويدلنا مقتل الخليفة المسترشد على مبلغ استهتار الإسماعيلية بأكبر رأس في قلب الدولة الإسلامية . ولا يفوتنا أن نذكر أن هدف هذه الطائفة الأساسي ، كان إسقاط الخلافة العباسية . غير أن هذا الغرض لم يتحقق بمقتل الخليفة المسترشد ، إذ تولى ابنه الراشد من بعده وأخذ يعمل على الانتقام لأبيه من الإسماعيلية ، وكانت النتيجة أنهم قتلوه بمدينة أصفهان سنة ٥٣٢هـ (١١٣٧م)^(٣) . وليس ببعيد أن يكون السلطان مسعود

(١) الديار بكري : تاريخ الخميس ، ج ٢ من ٣٦٢ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٩ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٩٨ ، Von Hammer, p. 140.

والسلطان سنجر هما اللذان دبرا قتله ، لعداوته لها وخاصة وأنهما كانا السبب في مقتل أبيه المسترشد^(١) .

واعتقد أن مقتل هذين الخليفين ، كان له أكبر الأثر في نفس الخلفاء العباسيين الذين تولوا الخلافة بعد ذلك والذين عرفوا أن حياتهم قد أصبحت في أيدي طائفة الإسماعيلية ، فضعفت بذلك روحهم المعنوية ، وزاد ضعفهم ضعفاً . ويدلنا مقتل هذين الخليفين أيضاً على مبلغ استهتار هذه الطائفة واستفحال أمرها في الدولة الإسلامية حتى أنهم تجرأوا على الإيقاع برأس هذه الدولة في شخص الخليفة العباسي نفسه .

على أننا نلاحظ أن العلاقة بين المسلمين عامة والإسماعيلية خاصة كانت في هذه الفترة أشبه شيء بالمد والجزر . وليس من المهم أن نسرّد حوادث هذا المد والجزر ، ولكن المهم أن نعلم أن الإسماعيلية قاموا في سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤ م) بهجوم عنيف من إقليم قوهستان ، معقلهم المشهور ، على خراسان في سبعة آلاف رجل . ولعل هذا كان أول هجوم عام يقوم به قادة الإسماعيلية لغزو الأراضى الإسلامية . وقد أدرك المسلمون ما سيصيبهم من الهلاك إذا ما تمّ اتّواؤهم مع الإسماعيلية ، فجمعوا شملهم من كل جانب ، وواجهوا جيش الإسماعيلية دفعة واحدة ، وأفنّوهم عن آخرهم ، بعد أن أسروا عددا كبيرا منهم . وكان هذا الانتصار انتصارا حاسما للمسلمين ، جعل الإسماعيلية ينكمشون في قلاعهم مدة طويلة ، لهول ما أصابهم على أيدي العباسيين^(٢) .

(١) يلاحظ أن السلطان مسعود كان قد تمكن من خلع الخليفة الراشد وتولية المفتي مكانه سنة ٥٣٠هـ (١١٣٦ م) ، فأخذ الراشد ينتقل في البلاد الإسلامية ، ثم قتل وهو مريض بمدينة أصفهان سنة ٥٣٢هـ (١١٣٧ م) على يد الإسماعيلية . انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٩ . وهكذا نجد أن قتله جاء بعد خلعه من الخلافة ، ولا يبعد أن يكون السلطان مسعود هو القى دبر قتله ، ليأمن شره ، ويضمن عدم إنارته للفلاقل والثورات في قلب الدولة الإسلامية .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٨١ .

ومن المهم أن نذكر أيضا أن صاحب مازندران أغار سنة ٥٥٢ هـ (١١٤٧ م) على قلعة الموت ، وعلى الرغم من أنه لم يستطع الاستيلاء عليها إلا أنه تمكن من إشعال النار في كثير من القرى المجاورة ، وسلب ما بها من أموال ، وسبي ما فيها من نساء ، وأسر ما وقع في يده من أبناء ، وساقهم إلى أسواق النخاسة وعرضهم للبيع^(١) . وبما لا شك فيه أن هزيمة الإسماعيلية هذه قد أثرت في روحهم المعنوية إلى حد كبير .

ونلاحظ أنه بعد أن أخفق الإسماعيلية في الاستيلاء على البلاد الإسلامية بهجومهم المنظم ، عمدوا إلى السلب والنهب ، وإثارة حرب أشبه ما تكون بحرب العصابات . فقد حدث مثلا أنهم قاموا في سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م) من قلاعهم بإقليم قوهستان في نحو ألف وسبعمئة رجل ، ونزلوا بالأقاليم المجاورة لهم بقصد سلبها ونهبها وسبي نساءها وأسر أطفالها وحرق ما لا يستطيعون حمله . وكان يسكن هذه الأقاليم جماعة من التركان ، كانوا متغيبين عن منازلهم في الوقت الذي شن الإسماعيلية هجومهم ؛ فلما عاد التركان اقتفوا أثر الإسماعيلية ، وتمكنوا من وضع السيف في رقابهم حتى أفنؤهم قتلًا وأسرًا ، ولم ينج منهم ، على ما ذكر ابن الأثير ، إلا تسعة من الرجال^(٢) . وكان الإسماعيلية لا يدخرون وسعًا في مهاجمة التجار^(٣) والحجاج^(٤) ، وأصبحوا بذلك لا يختلفون عن لصوص الطريق . وقد ساءت الحال في البلاد الإسلامية لدرجة أصبح التاجر معها لا يأمن على بضاعته كما لم يعد المسلمون يأمنون على أرواحهم .

وربما شعر جلال الدين حسن ، داعي دعاة الإسماعيلية ، (٦٠٧ — ٦١٨ هـ = ١٢١٠ — ١٢٢١ م) ، بما أصاب طائفته من ضعف ، لدرجة

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٨١ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١١ ص ٩٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١١ ص ١١٣ .

(٤) المرجع نفسه ، ج ١٠ ص ١٦٤ .

أنها أصبحت لا تستطيع مقاومة الشعور الإسلامى العام لها ، أو مقاومة الدولة الخوارزمية التى وصلت إلى درجة كبيرة من القوة فى هذا العصر ، جعلتها تفكر فى إزالة الخلافة العباسية . ثم كانت هناك دول الأتابكة التى تكاثفت على الإسماعيلية ، وعلى الأخص تلك التى كانت تجاور قلعة الموت . فلما رأى جلال الدين حسن هذه القوى المناوئة له ، ورأى ما آلت إليه طائفة الإسماعيلية من ضعف ، ففكر فى إرضاء هذه الجماعات بإقامة الشعائر الإسلامية فى جميع القلاع التابعة له فى قوهستان وسوريا^(١) ، وترك ما جاء به أسلافه من الأباطيل . ثم إنه أرسل سفراءه إلى الخليفة الناصر ببغداد وإلى علاء الدين محمد خوارزم شاه وإلى دول الأتابكة يعلن رجوعه إلى الدين الحق ، فاستقبل سفراؤه استقبالا حسنا ، وخلعت عليهم الخلع . وقد طلب جلال الدين إلى الأمراء المجاورين له بعض الفقهاء ليعلموا رجاله أصول التعاليم الإسلامية . ولكى يرى العلماء والفقهاء مدى صدق جلال الدين . حرق أمامهم ما تركه له آبائهم من كتب تحوى تعاليم الدعوة السرية . وهكذا استطاع جلال الدين أن يجذب إليه أعداءه^(٢) .

ويظهر أن جلال الدين لم يكن جامداً فى عودته إلى المبادئ الحقيقية للدين الإسلامى ، إذ أن ابنه علاء الدين محمد سرعان ما عاد إلى تعاليم أسلافه ، وحذا حذوه من جاء بعده من قادة الإسماعيلية . والظاهر أن جلال الدين ادعى الرجوع عن تعاليم الإسماعيلية ليرضى الخلافة العباسية ويستعين بها على الدولة الخوارزمية التى كان من سياستها فى عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه ، القضاء على طائفة الإسماعيلية .

ولم تخف سياسة زعماء الإسماعيلية على الخوارزميين لاسيما بعد أن راسل جلال الدين حسن زعيم الإسماعيلية جنكيزخان بقصد التقرب إليه^(٣) ، وحثه على مناهضة الدولة الخوارزمية بعد أن عجزت الخلافة عن

Von Hammer : Histoire de L'Ordre des Assassins, p. 219. (١)

Ibid., p. 219. (٢)

Bretschneider : Medieval Researches, vol. i, p. 116. (٣)

مناهضتها. ثم حدث أن اكتسح المغول الدولة الخوارزمية اكتساحاً خاطفاً مات في خلاله علام الدين محمد خوارزم شاه وتولى بعده ابنه جلال الدين منكبرتي، وحدث أيضاً أن هزم جلال الدين وفر إلى بلاد الهند^(١)، فلما عاد إلى أقاليم الدولة الخوارزمية بعد عودة جنكيزخان إلى منغوليا، وجد أن الإسماعيلية قد زادوا في تخريب البلاد الإسلامية^(٢)، وأخذوا يتقربون إلى المغول في عهد سلطنة جلال الدين منكبرتي، ولما احتج على ذلك اعترفوا بالأمر، وذكروا أن ذلك كان بقصد مداراة المغول الذين أصبحوا يجاورون أملاك الإسماعيلية جنوب بحر قزوين^(٣).

لعل هذه الأسباب ناصب جلال الدين منكبرتي طائفة الإسماعيلية العدماء، واضطر إلى محاربتهم في سنة ٦٢٤ هـ (١١٢٧ م)، ولم تجد هذه الطائفة سلاحاً تدفع به الأذى عن نفسها إلا الالتجاء إلى المغول فسلطتهم على الخوارزميين، وحشروهم على مهاجمة بلادهم في سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) بعد أن وصفوا لهم ما وصل إليه الخوارزميون من ضعف^(٤). وقد أدرك المغول في عهد مانجوخان خطر هذه الطائفة، لاسيما بعد أن وصلته منهم عدة شكايات من الخليفة العباسي وقاضي قزوین^(٥) ولهذا الأسباب مجتمعة نرى أن المغول عندما فكروا في إزالة الدولة العباسية، يدركون أن طائفة الإسماعيلية ستكون شوكة في ظهورهم، وأنه لا سبيل إلى نجاحهم في السيطرة على الشرق الإسلامي إلا بالقضاء على هذه الطائفة. لذلك أوصى مانجوخان أخاه هولاجو بالقضاء على هذه الطائفة قبل مسيره إلى بغداد^(٦).

(١) Vladimirtsov : The Life of Chingis - Khan, pp. 131-132.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ١٢ ص ٢١٧.

(٣) الفسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ٢١٣.

(٤) ابن الأثير : الكامل، ج ١٢ ص ٢٣٠.

(٥) Von Hammer : Histoire de L'Ordre des Assassins, p. 257.

(٦) Ibid., p. 258.

ومن الثابت أنه لم يخف على زعماء الإسماعيلية ما ينتظرهم من خطر محقق على يد المغول ، كما لم يخف عليهم أن المغول الذين حطموا بالأمس القريب دولة الخوارزميين ، والذين كانوا يتوقنون إلى توسيع أملاكهم في الغرب ، لا بد أن يعرجوا على قلاعهم وأن يخضعوها وهم في طريقهم إلى غرب آسيا وأوربا . لذلك نجد داعي دعاة الإسماعيلية يرسل في سنة ٥٣٦ هـ (١٢٣٨ م) إلى ملوك فرنسا وإنجلترا يطلب إليهم التحالف معه بقصد مقاومة المغول . فلما مثل رسولهم بين يدي الملك هنري الثالث Henry III ، قال أسقف ونشستر Winchester الذي كان حاضرا الاجتماع : « لنذع هؤلاء الكلاب يفترس بعضهم البعض ثم ننشئ كنيسة كاثوليكية على أنقاضهما »^(١) . وهكذا نرى زعماء الإسماعيلية يخفقون في تكوين هذا الحلف ، ولو نجحت هذه الفكرة لنشأت في الشرق الإسلامي حروب على غرار الحروب الصليبية ، ولتغير مجرى التاريخ الآسيوي والأوربي لعدة قرون .

وقد نجح هولوكو في اكتساح قلاع الإسماعيلية ، فسار إليها في العاشر من شعبان سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ، ووجه جميع قوااته إليها وحاصرها فاستولى عليها الواحدة تلو الأخرى^(٢) . وقد أسر هولوكو ركن الدين خورشاه ، داعي دعاة الإسماعيلية في ذلك الوقت وأرسله إلى مانجوخان ، فرفض مقابلته وأمر بإبعاده إلى بلاده ، غير أنه قتل في الطريق^(٣) . وقد انتهى أمر الإسماعيلية في بلاد فارس بعد استيلاء هولوكو على قلعة الموت رغم أن بعض قلاعهم ظلت تقاوم المغول ردحا من الزمن حتى خضعت لهم في النهاية . وعلى الرغم من سقوط حصون الإسماعيلية في فارس ، فقد بقيت لهم بعض القلاع في بلاد الشام لم يهتم المغول بالاستيلاء عليها ، مكتفين بما أحرزوه من نصر على هذه الطائفة في فارس ، إذ اعتقدوا أنه لا سبيل إلى قيام الإسماعيلية من جديد .

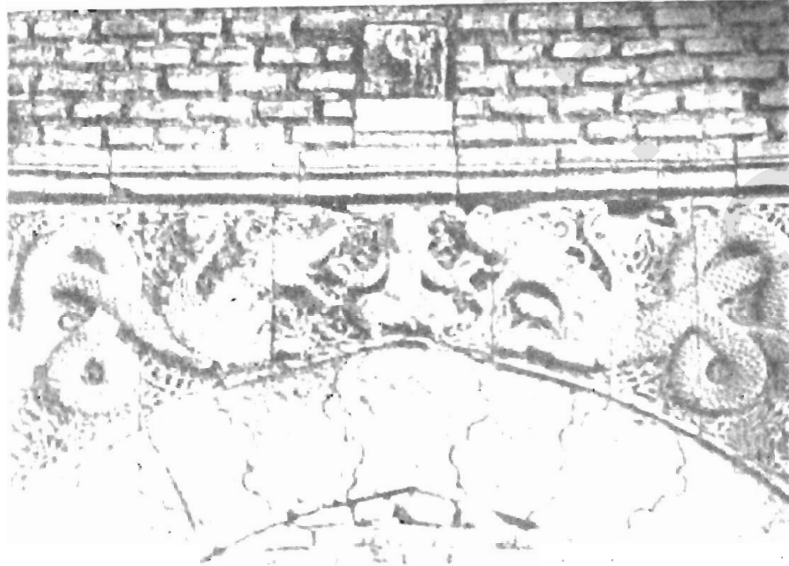
(١) Sykes : The Quest for Cathay, p. 87.

(٢) Rashid El Din : Histoire des Mongols de la Perse, pp. 191-221.

(٣) Bretschneider : Mediæval Researches, vol. i, p. 118.



إناء من الخزف الإيراني المتعدد الألوان وذو الزخارف البارزة يرجع إلى القرن السابع الهجري (١٣ م)، وم محفوظ بالمتحف البريطاني



نقش بارز كان على باب الطلعم في بغداد يرجع إلى القرن السابع الهجري (١٣ م)
(عن كتاب الصين وفنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن)

الباب الرابع

قيام دول الأتابكة

ضعف الدولة السلجوقية وأثره في قيام دول الأتابكة . اتساع نفوذ الأتابكة بعد وفاة ملكشاه . دول الأتابكة : دمشق ، الموصل ، حلب ، سنجان ، الجزيرة ، إربل ، ديار بكر ، أرمينية ، أذربيجان ، لورستان ، فارس ، كرمان ، دولة خوارزم .

الباب الرابع

قيام دول الاتابكة

بلغت الدولة العباسية أقصى اتساعها في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي وتمتعت دولة السلاجقة كما تمتع العالم الإسلامي الشرقي بوحدة لم تعرفها الدولة العباسية منذ نشأتها. ولكن هذه القوة المتنامية انتهت بانتهاء حياة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م). ويرجع السر في انهيار قوة الشرق الإسلامي بعد وفاة ملكشاه بوجه خاص إلى أن السلاجقة الذين اهتموا بالحروب وإخضاع البلاد لسلطانهم، والذين عرفوا بإصلاحاتهم العمرانية، لم يهتموا بوضع دستور اجتماعي يحترمه الجميع، فلم يعملوا على إيجاد نظام دقيق لوراثة عرش السلطنة. وكان الحضرارات التي وجدوها في البلاد التي فتحوها لم تؤثر في طبيعتهم الأصلية وحياتهم البدائية الأولى التي تعودوها، وهي لا تعدو أن تكون حياة همجية لا نظام فيها، فانشغل أبناء ملكشاه وأحفاده، كما ذكرنا، بالنزاع الداخلي على عرش السلطنة، ذلك النزاع الذي أدى إلى اضمحلال دولتهم تدريجياً، ثم إلى زوالها من مسرح التاريخ الإسلامي، إذ أدى هذا الاضطراب إلى تفكك الدولة السلجوقية وانقسامها إلى دويلات، كما أدى ذلك كله إلى نجاح الصليبيين فيما اعتزموا أن يقوموا به في بلاد الشام، إذ لما جاءت حملتهم الأولى إلى البلاد الشامية سنة ٤٩١ هـ (١١٩٧ م)، صادفوا بلاداً مفككة ضعيفة، فأدوا رسالتهم على أكمل وجه^(١).

وإذا نظرنا إلى طبيعة تكوين الأباطورية السلجوقية نجد أنها قد

Nöldéke : The Abbasids, p. 228. (The Historians' History of (١) the World, vol. vii.)

امتدت فشملت أقاليم مترامية الأطراف ، كما شملت شعوباً وأجناساً متعددة ، حكمت الفرس والعرب والآتراك ، وكان هؤلاء المحكومون يختلفون بعضهم عن البعض الآخر في اللغة والدين ، بل أكثر من ذلك نرى أصحاب الديانة الواحدة منقسمين بدورهم على أنفسهم ، كل له مذهبه الديني الخاص . وقد اعتمد سلاطين السلاجقة في حكم هذه الدولة على سلاح القوة دون غيره ، فلما فشلوا في هضم هذه العناصر والأجناس التي تضمها دولتهم ، بل ولما تضعضع كياناتهم السياسية بعد وفاة آخر شخصية سلجوقية قوية ، لم يكن هناك بد من أن يعمل كل فريق تربطه وحدة الدين واللغة والعادات والتقاليد على أن يستقل بنفسه عن بقية الأجناس والعناصر الأخرى الموجودة في الدولة . لذلك استقلت آسيا الصغرى ذات الطابع البيزنطي ، ونشأت هناك وحدة في فارس تغلب عليها المسحة الفارسية القديمة ، كما نجد سوريا ، حيث الطابع العربي ، تستقل بنفسها . كل هذه الوحدات نجدها تنسلخ عن بغداد حاضرة الخلافة العباسية . وقد ساعد على هذا الانقسام ضعف السلاجقة بعد وفاة ملكشاه وانقسامهم على أنفسهم كما ذكرنا .

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد ، بل نجد أن هذه الوحدات الكبرى تنقسم بدورها إلى وحدات أصغر منها ، ويرجع هذا إلى نظام الإقطاع الذي ابتدعه السلاجقة ، وطبقوه في أقاليم دولتهم ، وهو يشبه نظام الإقطاع الذي كان سائداً في أوروبا في العصور الوسطى .

...

منذ أن امتدت الدولة العباسية في بلاد المشرق ، تآخمت أملاكها أملاك القبائل التركية التي تقطن على حدودها . وكانت هذه القبائل منتشرة في شمال وشرق بحر قزوين ، فكان المسلمون ينتهزون الفرص لاختطاف الأطفال الذين يجدونهم على الحدود ويرسلونهم إلى أسواق النخاسة التي

كانت منتشرة في أقاليم الدولة العباسية فيقبل الخلفاء والأمراء على شرائهم ويكثرون منهم في بلاطهم ، مندفعين إلى ذلك بحسن منظرهم وجمال خلقهم ، على أن أكثر ممالك السلاجقة الذين أصبحوا فيما بعد أتابكهم كانوا في الغالب من بلاد القفجاق الواقعة شمال البحر الأسود ^(١) .

ويحدث بعد ذلك أن يعتنق هؤلاء الأتراك الدين الإسلامي ، فينشاؤون نشأة إسلامية صحيحة في بلاط الخليفة أو السلطان ، ويعهد إليهم ببعض الوظائف ، كرياسة الخدم وتنظيم القصور ، ومنهم من يلحق بحرس الخليفة أو السلطان ، فإذا ما أظهر أحدهم كفاءة خاصة أو صفة حربية ممتازة ، وصل إلى أعلى المراتب في الجيش وفي البلاط ^(٢) . وقد يسعد الحظ أحد هؤلاء فيعهد إليه حكم إقليم من أقاليم الدولة ، ومن أقرب الأمثلة على ذلك «نوشتكين» ^(٣) الذي تنسب إليه الدولة الخوارزمية وكان يشغل وظيفة الساقى ^(٤) في بلاط ملكشاه ^(٥) .

(١) Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 159.

ومما هو جدير بالذكر أن اسم « قفجاق » يكتب في الكتب التركية « قيقاق » Kipchak . انظر كتاب عثمانى تاريخى لأحمد راسم ، ص ١٢٩ وغيرها . وانظر أيضا كتاب لغات تاريخية وجغرافية لأحمد راسم ج ٦ ص ٦ وغيرها .

(٢) Curtin : The Mongols' History, p. 93.

(٣) يسمى بعض المؤرخين هذا الرجل باسم « أنوشتكين » ولكننا نميل مع النسوى في كتابه : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، إلى تسميته باسم « نوشتكين » . والنسوى الذي يؤرخ لفترة من فترات حكم الخوارزميين ، يعتبر حجة فيما دون ، إذ أنه انحرف في سلك الوظائف في دولتهم في عهد جلال الدين منكبرتي بوجه خاص ، وكان من أبرز رجال هذه الدولة . (٤) كانت وظيفة « الساقى » من أهم الوظائف في البلاط الإسلامى ، فهو الذى يعرف على مد الأسمطة التى كانت تقام في المواسم والأعياد وعند استقبال سفراء الملوك ، وهو أيضا الذى كان يشرف على تقطيع اللحوم وتقديم الماء والمغروبات أثناء العشاء وبعد . انظر القفجاقى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٤٦٩ .

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام ، أنه كانت توجد هناك وظيفة أخرى تتعلق بطعام السلطان وهى وظيفة « الجاشنكير » ، وهو الذى كان يقوم بتذوق أصناف الطعام والشراب المختلطة قبل أن يأكل منها السلطان خوفا من أن يكون هذا الطعام أو الشراب مسموما . انظر القفجاقى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠ .

(٥) Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 160.

وليس من المعقول أن يظل هذا الحاكم خاملاً في المقاطعة أو المدينة التي ولى الحكم فيها بل لابد من أن يعمل على أن يوسع نفوذه على حساب جيرانه ، وقد ينجح فيؤسس لنفسه دولة ، وإذا فشل فيكون قد نجح في إلقاء بذور الفوضى في جزء من أراضى الدولة الإسلامية .

وقد انتشر نظام الأتابكة في الدولة السلجوقية ، وأصبح هذا النظام عنصراً هاماً من نظمهم السياسية والاجتماعية . أما لفظ أتابك فمعناه والامير الوالد ، ^(١) أو أبو الأمير . ويرجع الأصل في ذلك إلى أن سلاطين السلاجقة كانوا يعهدون في تربية الأمراء من أبنائهم إلى المقربيين إليهم من الأتراك الذين ترعرعوا في كنفهم ، فإذا ما عين سلطان ما ابناً من أبنائه على مدينة من المدن ، ذهب معه هذا التركي (الوالد) ليعاون هذا الأمير في حكم المدينة بما أوتي من حكمة ويسدى إليه ما يراه من النصائح . على أن السلاجقة توسعوا بعد ذلك في معنى هذا الاسم ، بحيث أصبح يمنح كلقب من ألقاب الشرف لكبار رجال الدولة وقواد الجيوش ^(٢) .

والمهم أن نذكر أن الحكام من الأتابكة ، سواء أكانوا مربيين لأمراء السلاجقة أو من قواد جيوش الدولة السلجوقية ، فإنهم كانوا في الواقع أصحاب النفوذ الفعلي في البلاد التي يعهد إليهم بالحكم فيها ، وكانوا يعملون لحسابهم الخاص ، منفصلين في سياستهم عن سياسة سلاطين السلاجقة في بغداد ، كما أنهم اتخذوا لأنفسهم الألقاب التي استحسوها ^(٣) ، ومن الألقاب التي اتخذوها لأنفسهم لقب « شاه » كما حدث في دولة خوارزم . وأكثر من ذلك ، عمل هؤلاء على أن يحيطوا بأنفسهم بأنواع من الأبهة والعظمة .

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٩ .

ويلاحظ أن « أتابك » مكون من مقطعين ، « بك » ومعناه أمير و « أنا » ومعناه أب .

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٤٣ .

وبذكر ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤١ أن « الأتابك » هو الذي يربي أولاد الملوك .

(٣) ابن الفلاس : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ .

ولم يكن هناك من خوف على الدولة السلجوقية خاصة والشرق الإسلامى عامة من نظام الأتابكة ، مادام سلاطين السلاجقة من القوة بحيث يستطيعون فرض سيطرتهم ونفوذهم على هؤلاء الحكام ومادام فى الدولة جيش واحد قوى تسيطر عليه قوة واحدة . ولكن الخوف كل الخوف أن يضعف سلاطين السلاجقة فتضعف دولتهم وينفرد كل حاكم من هؤلاء الحكام بحكم ما فى يده من البلاد . وقد حدث فعلا أن نشأت الحروب الأهلية عقب وفاة ملكشاه ، بين أبنائه وأحفاده كما رأينا ، فكانت النتيجة أن استقل كل أمير بما فى يده ، سواء أكان ما يملكه مقاطعة بأسرها أم مدينة صغيرة ، بل لقد تسابق الأتابكة إلى توسيع رقعة ما كان يدهم من البلاد ، كل على حساب جاره ؛ لذلك نشأ الصراع بين هؤلاء الحكام فى نفس الوقت الذى قام فيه الصراع بين أفراد البيت السلجوقى . وقد انتهزت القبائل التركية هذه الفرصة وأخذت تغير على سهول آسيا الغربية^(١) .

بدأت فترة الانحلال عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٥٨٥هـ (١٠٩٢م) كما رأينا ، واستمر السلاجقة يصارعون بعضهم بعضاً ويصارعون القوى المعادية لهم ، من طائفة الإسماعيلية ومن خلفاء الدولة العباسية الذين أرادوا أن يستعيدوا ما كان لهم من سلطان سلهم السلاجقة إياه ، وكان السلطان مسعود آخر من استطاع أن يدفع عدوان الخلفاء العباسيين ، فلما توفى سنة ٥٤٧هـ (١١٥٢م) ، انتهى ما كان للبيت السلجوقى فى العراق من قوة^(٢) ، إذ استطاع هذا السلطان أن يخضع الخلافة لإرادته ويردها لمشيئته فى عهد كل من الخليفين المسترشد والراشد ، فلما مات فى عهد المقتنى ، بدأت الخلافة تنتعش على حساب السلاجقة الذين أخذ نجمهم فى الأفول ،

(١) Dubeux : La Parse, p. 347.

(٢) أبو المحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٠٣ ، والمقرئزى : السلوك ، ج ١

وانقسمت دولتهم إلى الدويلات الأتابكية^(١) حتى إذا ما حل زمن غزو المغول لأقاليم آسيا الغربية ، كانت أقاليم فارس والعراق مفككة الاوصال تتنازعها عوامل الانقسام والانحلال^(٢) .

وإذا كان هدفنا أن نصور ما أصاب الشرق الإسلامي قبيل غزوات المغول من ضعف وانحلال ، فلا بد من أن نتكلم في إيجاز عن دول الأتابكة ، ومنها نستطيع أن نتصور إلى أي حد واجه المغول عالماً مفككاً منحللاً . فدولة السلاجقة التي عرفت بتماسكها وامتداد رقعة أملاكها ، تفككت تدريجياً وانقسمت إلى أقسام متعادية متنافرة بعد وفاة ملكشاه ، وكلما زاد ضعف السلاجقة ، قوى الانقسام في قلب الدولة . على أن القسم الشرقي الذي كان خاضعاً للسلطان سنجر ظل موحد الكلمة بسبب عظم شوكة هذا السلطان ، ومع ذلك فقد تجمعت ضده القوى المختلفة ، كدولة الخيطة^(٣) التي كانت ترمي إلى توسيع أملاكها على حساب القوى الإسلامية المجاورة ، والدولة الخوارزمية الناشئة التي كانت متعطشة إلى توسيع نفوذها ، هذا بالإضافة إلى أن السلاجقة كانوا يعانون كثيراً من وراء طائفة الإسماعيلية . وقد تجمعت هذه العوامل فأتت على هذا الجزء من الدولة السلجوقية أيضاً . ونجد أن آسيا الصغرى ، حيث استقر سلاجقة الروم ، ظلت متماسكة حتى سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠ م) ، عندما بدأ الأتراك العثمانيون في الظهور^(٤) .

وهنا لابد من أن نقف قليلاً لنتكلم في إيجاز عن هذه المقاطعات المعروفة بدول الأتابكة ، ولنرى كيف وصل الشرق الإسلامي إلى درجة من الانحلال لم يسبق أن عرفها المسلمون .

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ١٠٢ .

(٢) Grenard : Gengis-Khan, p. 99.

(٣) راجع ما كتبناه باختصار عن دولة الخيطة ص ٤٦ — ٤٧ .

(٤) Lane-Poole : The Mohammedan Dynasties, p. 152. (١)

وإن نظرة واحدة إلى الخريطة ^(١) ترينا كيف تجزأ الشرق الإسلامي بين هؤلاء الأتابكة ، في الوقت الذي قامت فيه الإمارات الصليبية في بلاد الشام عقب الحرب الصليبية الأولى ، كما نستطيع أن نتبين كيف انكمشت أملاك الخلفاء العباسيين وأصبحت مقصورة على العراق العربي وخوزستان ، ومع ذلك فقد وصلت الخلافة العباسية إلى حالة شديدة من الضعف كما رأينا .

أتابكية دمشق : ^(٢) ٤٩٧ - ٥٤٩ هـ = ١١٠٣ - ١١٥٤ م

تنسب هذه الأتابكية إلى طغتكين ، أحد قواد الجيش السلجوقي ، وكان في نفس الوقت مملوكا للسلطان تنش بن ألب أرسلان الذي كان واليا على دمشق عند ما توفي أخوه ملكشاه ^(٣) ، وكان يطمع في السلطنة بعد وفاته ، بل إنه استطاع إلى حين أن يمسد نفوذه على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمدان ويقيم الخطبة لنفسه في بغداد ^(٤) . وقد حدث أن قتل تنش سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) في أثناء صراعه مع بركياروق وسار ابنه دقاق إلى دمشق وانفرد بحكمها ، فاتخذ من طغتكين أتابكا له وحكمه في بلاده ، ^(٥) .

وقد استمرت هذه الأتابكية تحت نفوذ أسرة طغتكين إلى أن آل حكمها إلى أسرة زنكي سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) حينما استولى عليها نور الدين

(١) خريطة الشرق الإسلامي بعد عصر ملكشاه .

(٢) نسمى هذه الأتابكية أيضا بالدولة البورية نسبة إلى بوري بن طغتكين . انظر الجدول رقم (٩) في آخر الكتاب .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٩٠ .

(٤) المرجع نفسه ، ج ١٠ ص ٩٥ - ٩٦ .

(٥) المرجع نفسه ، ج ١٠ ص ١٠٣ . انظر أيضا

Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie, p. 225.

Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 161.

محمود ليقوى بها نفوذه ضد الصليبيين ^(١) . ثم انتقلت إلى أيدي الأيوبيين فولياها الأفضل في حياة أبيه صلاح الدين الأيوبي ثم انتقل حكمها إلى العادل أخى صلاح الدين حين أخذ على عاتقه توحيد الدولة الأيوبية وإنقاذها من الانقسام الذى حل بها عقب وفاة صلاح الدين كما سنرى ^(٢) .

* * *

أتابكية الموصل ^(٣) : ٥١٦ - ٦٦٠ هـ = ١١٢٢ - ١٢٦٢ م

كانت أتابكية الموصل أهم دول الأتابكة جميعا ، نظرا لاتساع المسرح الجغرافى الذى كانت تشغله فى شمال بلاد ما بين النهرين وفى بلاد الشام ، وذلك قبل أن تنقسم بدورها إلى إمارات متعادية متنافرة ، هذا فضلا عن عظم الدور الذى لعبه عماد الدين زنكى وأبنائه من بعده فى حرب الصليبيين .

وتنسب هذه الأتابكية إلى عماد الدين زنكى بن آقسنقر ، وكان آقسنقر مملوكا تركيا من مماليك السلطان ملكشاه ، تربى معه منذ صغره ، فلما تولى ملكشاه السلطنة كان له من المنزلة ما كان لنظام الملك حتى أنه سماه « قسيم الدولة » ، وأقطعه حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية ، هذا بالإضافة إلى مدينة تكريت التى ضمها إلى ممتلكاته بعد وفاة ملكشاه ^(٤) . وقد بقيت

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٨٨ - ١٩١ .

(٢) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 213-215. (٢)

(٣) تسمى هذه الأتابكية أيضا بدولة « بنو زنكى » . وقد حدد سنابل لينبول S. Lane-Poole فى كتابه The Mohammadan Dynasties سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) بداية لحكم أسرة زنكى ، وربما استند فى ذلك إلى أن عماد الدين زنكى قد تولى فى هذه السنة حكم بعض البلاد ومن بينها الموصل والجزيرة ونصيبين ، ولسكننا نتفق مع زامبور Zambour فيما ذهب إليه من اعتبار سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ، بداية حكم هذه الأسرة ، فى هذه السنة تولى عماد الدين زنكى حكم مدينة واسط . انظر لينبول ، ص ١٦٢ - ١٦٣ . وزامبور ، ص ٢٢٦ . وانظر أيضا الجدول رقم (١٠) فى آخر الكتاب .

(٤) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١١ - ١٨ .

هذه الأملاك معه إلى أن قتل سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) .
وقد ذكرنا أن تنش بن ألب أرسلان طمع في السلطنة بعد وفاة أخيه
ملكشاه ، وقلنا إنه أخضع البلاد التي كانت بيد آقسنقر الذي انضم إلى
بركياروق ، ثم حدث أن قتل تنش آقسنقر وضم بلاده إليه وظلت هذه
الأملاك بيده إلى أن قتل تنش بدوره سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) . وقد
استمرت البلاد الشامية بعد ذلك ، وكذا الموصل ، مسرحا لحروب كثيرة
بين صغار الأمراء وموضعا لدسائس البيت السلجوقي في بغداد .
وكان عماد الدين زنكي عندما قتل أبوه في العاشرة من عمره يتقلب بين
زعماء البيت السلجوقي من أصدقاء أبيه ^(١) واستطاع أن يكتسب صداقة
سلاطين السلاجقة بفضل ما أوتي من شجاعة جعلته يتنقل في حكم البلاد
المختلفة . ففي سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ولي مدينة واسط ^(٢) ، وفي سنة ٥١٨ هـ
(١١٢٤ م) ، أضيفت إليه مدينة البصرة ^(٣) فتولى حمايتها من دسائس العرب
ومن عسكر الخليفة .

وقد بدأ نجم عماد الدين زنكي يلمع سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ، عندما
تولى الموصل والجزيرة ونصيبين ، بعد أن استفحل أمر الصليبيين في بلاد
الشام ، حتى أنه لم يبق في أيدي المسلمين سوى حلب وحمص وحماء ودمشق ،
فتطلعت الأبصار إلى عماد الدين لينقذ ما يمكنه إنقاذه من الأراضي
الإسلامية ^(٤) . وقد استطاع أن يستولى على حلب في السنة التالية وأن
ينقذها من أيدي الصليبيين الذين كانوا يهددون بها باستمرار ^(٥) ، كما استولى
على حماه بعد ذلك . وقد استمرت الحروب بين عماد الدين زنكي وبين
الصليبيين إلى أن قتل سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) .

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأنابكية ، ص ٣٠ - ٣٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٥٩ - ٦٥ .

(٥) Barker : The Crusades, p. 34. .

وكان من سياسة عماد الدين زنكى أن يؤلب أصحاب الأطراف على السلطان مسعود السلجوقى ليشغله عن الالتفات إليه فيستطيع بذلك أن يوطد نفوذه فى بلاد الموصل من جهة ، ويوسع بلاده على حساب العناصر الإسلامية من جهة أخرى ، كما يستطيع محاربة الصليبيين من جهة ثالثة . وبهذه السياسة المثلثة الأطراف استطاع أن يستولى على الرها سنة ٥٢٩ هـ (١١٤٤ م) من أيدي الصليبيين ، وكان استيلاؤه عليها نصراً كبيراً للمسلمين . وما يدل على عظم أهمية هذه المدينة فى نظر الصليبيين ، أنهم اعتبروا ضياعها من أيديهم بداية لنهاية النفوذ الصليبي فى بلاد الشام أو كما يقول باركر Barker بداية النهاية The begining of the end (١) .

ونلاحظ أن عماد الدين زنكى حاول أكثر من مرة أن يفرض نفوذه على مدينة دمشق ، ولكنه كان لا يلبث أن يرتد عنها نظراً لمساعدة الصليبيين لاثابكة هذه المدينة (٢) . ثم إنهم كانوا يدركون أن استيلاءه عليها معناه تهديد كيانه فى بلاد الشام ، وذلك لمثانة موقعها الحربى الذى يمكن استخدامه ضد الصليبيين ، فضلاً عن وقوعها على الطريق التجارى بين البلاد الفراتية ومصر . وأصبحت دمشق تشغل بال زنكى وأبنائه ، كما كانت تشغل أصحاب مملكة بيت المقدس ، واستمر الحال على هذا النحو إلى أن تمكن نور الدين محمود فيما بعد من أن يستولى عليها سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، وبذلك فتح الطريق أمامه إلى مصر .

قتل عماد الدين زنكى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) كما تقدم ، وترك من بعده سيف الدين غازى الذى تولى على القسم الشرقى من أملاك أبيه واتخذ من مدينة الموصل حاضرة له ، ونور الدين محمود الذى تولى على القسم الغربى واتخذ من مدينة حلب حاضرة له ، كما ترك عماد الدين زنكى ولداً

(١) Barker : The Crusades, p. 51.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٢٣ .

ثالثاً يدعى قطب الدين مودود . وقد اجتمعت كلمة نور الدين محمود وسيف الدين غازي على محاربة الصليبيين ، غير أنه حدث أن توفي سيف الدين غازي سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) تاركا ابناً صغيراً لم يلبث أن توفي أيضاً ، فتولى الموصل قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي (١) . وقد استمر الحال على هذا النحو إلى أن قبل حكام هذه الأتابكية من سلالة عماد الدين زنكي الخضوع لإصلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) ، بينما كان يعمل على توحيد القوى الإسلامية في الشرق الأدنى لتوجيهها ضد الصليبيين (٢) .

وقد زالت إمارة الموصل بعد أن اجتاحتها المغول ، إذ لم يتردد بدر الدين لؤلؤ في تسليمها إلى هولاكو حين طلب إليه الخضوع (٣) .

* * *

أتابكية حلب (٤) : ٥٤١ -- ٥٧٩ هـ -- ١١٤٦ -- ١١٨٣ م

انقسمت أتابكية الموصل التي عرفنا حدودها في عهد عماد الدين زنكي إلى أتابكيات صغيرة ، بين أبنائه وأحفاده ومماليكه ، وتنازع هؤلاء السلطة فيما بينهم ، وأدى هذا إلى إضعاف شأن المسلمين أمام الصليبيين بوجه خاص . رغم محاولة ابنه نور الدين محمود جمع كلمتهم من جديد . وهكذا نشأت على أنقاض أتابكية الموصل الكبيرة عدة أتابكيات صغيرة في حلب وسنجار والجزيرة . وقد أثرنا أن نتكلم عن كل منها في شيء من الإيجاز .

ذكرنا أنه لما قتل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) ، تولى ابنه سيف الدين غازي حكم مدينة الموصل ، وتولى ابنه الثاني نور الدين محمود مدينة حلب (٥) . وكان من سياسة نور الدين أن يوحد البلاد الشامية تحت

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٦٥ .

(٢) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 206.

(٣) Rashid-Eldin : Histoire des Mongols de la Perse, p. 321.

(٤) انظر الجدول رقم (١١) .

(٥) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٥٧ - ١٥٩ .

سلطانه ويوجهها ضد الصليبيين . وقد حاول الصليبيون استعادة الرها ،
منتهزين فرصة مقتل عماد الدين زنكي ، ولكن نور الدين تصدى لهم
وصدم عنها ^(١) .

ومما هو جدير بالذكر أن استيلاء عماد الدين زنكي على الرها وبقائها
في أيدي المسلمين ، كان سبباً في مجيء الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الثانية
على بلاد الشام ، وكان هدفها الأول استخلاص الرها من أيدي المسلمين .
وقد وصلت هذه الحملة في عهد نور الدين محمود ، غير أن زعماءها انحرفوا
عن هدفهم الأصلي واتجهوا إلى دمشق ، وكان هذا خطأ سياسياً كبيراً وقع
فيه الصليبيون ، إذا كانت دمشق الخليفة الوحيد للصليبيين ضد نور الدين ^(٢) .

وقد فشلت الحملة الصليبية الثانية ، ووجد نور الدين نفسه فيما بعد
مضطراً إلى الاستيلاء على دمشق ليتحصن بها ضد الصليبيين ، وقد تم له
ما أراد سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) كما أنه استطاع أن يستولى على بعض
القلاع الصليبية الأخرى ^(٣) ، بل مد نفوذه على مصر بمساعدة أسد الدين
شيركوه وصلاح الدين الأيوبي ؛ وقد أخذ الأخير يعمل لنفسه منذ أن
استتب له الأمر في مصر ، دون أن يهتم بسيدته نور الدين / واستطاع
صلاح الدين بذلك أن يكون أكبر قوة إسلامية في الشرق وخاصة بعد وفاة
نور الدين سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) الذي ترك من بعده ابناً صغيراً يدعى
الصلاح إسماعيل ، لم يزد عمره على إحدى عشرة سنة ^(٤) .

اتجه صلاح الدين إلى حلب بحجة إنقاذ هذا الأمير الصغير من أيدي
أفراد حاشيته الذين تحالفوا مع ريموند Raymond صاحب طرابلس ، ولكن
صلاح الدين رفع الحصار عن هذه المدينة حين سارع ريموند هذا إلى مساعدة

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٥١ - ٥٢ .

(٢) Barker : The Crusades, p. 54.

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٨٨ - ١٩١ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٨٢ .

حليفه أمير حلب . وفي سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) ، سار سيف الدين غازي الثاني أتابك الموصل لمساعدة ابن عمه صاحب حلب ، والتقت القوتان المتحالفتان بصلاح الدين عند موضع يسمى قرون حماء وهناك انتصر عليهم صلاح الدين . وفي السنة التالية انتصر صلاح الدين على سيف غازي نفسه ، وبذلك خضعت بلاد ما بين النهرين لسيادته ، وأُعترف له أمير حلب بالسيادة على كل البلاد التي تمتد من مصر إلى نهر الفرات ^(١) .

وفي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) ، توفي الصالح إسماعيل ، وكان قد أوصى قبل وفاته بولاية حلب لابن عمه عز الدين مسعود أمير الموصل ، فأصبح هذا أميراً على حلب والموصل وهما ولايتان متباعدتان . وقد عرض عماد الدين صاحب سنجار على عز الدين هذا أن يبادل ، أي أن يأخذ عماد الدين حلب وعز الدين سنجار ، وبذلك تصبح أملاك عز الدين متقاربة ، وقد تم هذا التبادل فعلاً . وكان عماد الدين من القائلين بوجوب محاربة صلاح الدين والحد من سلطانه ، فسار صلاح الدين إلى مدينة حلب سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) حيث سلمها إليه عماد الدين مقابل إعادته إلى ولايته الأصلية سنجار ^(٢) ، وبذلك آلت هذه الولاية إلى صلاح الدين ثم إلى ابنه الظاهر من بعده ^(٣) ، واستمرت في أيدي الأيوبيين حتى أستولى عليها هولاكو وفر الملك الناصر صاحب حلب إلى الكرك ، حيث تحصن ضد المغول ^(٤) .

• • •

أتابكية سنجار ^(٥) : ٥٦٦ - ٦١٧ هـ = ١١٧٠ - ١٢٢٠ م .

أسس هذه الأتابكية عماد الدين زنكي (الثاني) بن قطب الدين مودود

(١) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 199—200.

(٢) ابن الأثير: تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٣٣١ — ٣٣٤ ، السكامل ، ج ١١ ص ٢٢٤ .

(٣) Lane - Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 213.

(٤) Rashid-Eldin : Histoire des Mongols de la Perse, p. 341

(٥) انظر الجدول رقم (١٢) .

صاحب الموصل الذي كان قد أوصى بالملك من بعده لابنائه الأكبر عماد الدين زنكي ، ثم عدل عن وصيته إلى ابنه الأصغر سيف الدين غازي بإيعاز من أحد خواصه ويدعى نحر الدين عبد المسيح ، الذي كان يكره عماد الدين لمسايرته عمه نور الدين محمود صاحب حلب ولأن عماد الدين كان يكره عبد المسيح هذا لاستبداده بأمور الدولة^(١) . فلما توفي قطب الدين سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م)^(٢) وعلم نور الدين محمود باستبداد نحر الدين عبد المسيح بابن أخيه سيف الدين وسوء سياسته قال : « أنا أولى بتدبير أولاد أخى وملكهم » ، ثم سار إلى الموصل واستولى في طريقه على مدينة سنجار . ولما حاصر نور الدين محمود الموصل ، أسرع نحر الدين عبد المسيح إلى تسليم المدينة ، ثم أمر نور الدين محمود ابن أخيه سيف الدين غازي على الموصل^(٣) ، كما منح سنجار وماجاورها من البلاد التابعة لها لعماد الدين زنكي بن قطب الدين سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م)^(٤) .

وقد نتج عن هذا التقسيم قيام الخلاف بين الأخوين منذ البداية ، لتولى الأخ الأصغر مدينة الموصل وأعمالها على حين تولى الأخ الأكبر إمارة سنجار وهي ولا شك أصغرها . وعلى هذا الأساس لم يكن من المعقول أن يقبل الأخ الأكبر هذا الوضع الشاذ^(٥) . وقد حدث سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) أن استنجد الصالح إسماعيل أمير حلب بسيف الدين غازي صاحب الموصل ضد صلاح الدين الأيوبي ، فطلب سيف الدين صاحب الموصل إلى أخيه عماد الدين صاحب سنجار أن يمدد بالرجال ليسير بهم إلى بلاد الشام ، فرفض أن يجيبه إلى طلبه ، وكان ذلك بإيذان من صلاح الدين الأيوبي الذي أطمعه

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٥٩ .

(٢) ذكر زامبور Zambour في كتابه ص ٢٢٦ ، أن قطب الدين . وردتوفى سنة ٥٦٤ هـ

(١١٦٨ م) وهذا قول مردود إذ الحقيقة أنه توفي في شهر ذي الحجة سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م)

انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٥٩ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١١ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٤) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦٣ .



قائمة من الزجاج المورق بالمينا عليها كتابة تاريخية باسم الملك الناصر يوسف صلاح الدين الصفار الذي حكم حلب ودمشق
وتوفي سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) . ويحفظ بدار الآثار العربية بالفاخرة .

(عن كتاب *Lampe et Bouteilles en verre Emaille*)

في الملك بحجة أنه يكبر أخاه سيف الدين . وعلى هذا النحو نشأ بين هذين الأخوين خلاف كبير انتهى بحصار سنجار . على أن انتصار صلاح الدين في بلاد الشام قد أدى إلى رفع الحصار عنها ، إذ خاف سيف الدين أن يسرع صلاح الدين الأيوبي لنجدة عماد الدين حليفه بالأمس القريب (١) . وقد استمرت أسيرة زنكي تحكم هذه الإمارة إلى أن استولى عليها الأيوبيون في عهد الملك الأشرف سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ، وقد خرب المخول معظم هذه الإمارة وما جاورها سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) (٢) .

أتابكية الجزيرة : (٣) ٥٧٦ - ٦٤٨ هـ = (١١٨٠ - ١٢٥٠ م) .
كان سيف الدين غازي بن مودود يحكم إمارة الموصل كما رأينا ، فلما حضرته الوفاة سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) ، أراد أن يوصي بالملك من بعده لابنه معز الدين سنجر شاه ، وكان في الثانية عشرة من عمره ، غير أن أمراء دولته أشاروا عليه بتولية أخيه عز الدين مسعود لما اتصف به من شجاعة ورجاحة عقل وهما أمران ضروريان فيمن يتولى الحكم في ذلك الوقت بسبب استفحال شأن صلاح الدين في بلاد الشام فنزل عند هذا الرأي وولى أخاه حكم الموصل من بعده ، وأعطى مدينة الجزيرة وقلاعها لابنه سنجر شاه (٤) ، وعلى هذا الأساس نشأت هناك أتابكية صغيرة مستقلة . وكان سنجر شاه في حكمه قبيح السيرة ، سكيما ، محبا لمجالس النساء والطرب ، وكان ظالما لرعيته ، يعمل السيف في رقاب الظالم والمظلوم على السواء ، ويستحل الأموال ، ويعاقب بقطع الألسنة والآذان والأنوف وحلق اللحي ، وبلغ من تعسفه أنه أبعد أبناءه عن قصره . وكان من نتيجة ذلك كله أن قتله

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٢٣٢ .

(٣) انظر الجدول رقم (١٣) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ ج ١١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

أحد أبنائه سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م)، وهو غارق في أحد مجالس الخمر والنساء وتولى بعده ابنه معز الدين محمود .

ومما هو جدير بالذكر أن أمراء الجزيرة قبلوا الخضوع لصلاح الدين مع باقى أمراء بلاد ما بين النهرين ، واستخدم صلاح الدين أمراء هذه البلاد الشمالية وهى الموصل وسنجار والجزيرة وإربل وغيرها فى حرب الصليبيين ^(١) . وكانت هذه البلاد من نصيب العادل وأولاده من بعده ، حتى غزاها المغول .

أتابكية إربل : ٥٢٩ - ٦٣٠ هـ = ١١٤٤ - ١٢٣٢ م .

أسس هذه الأتابكية زين الدين على بن بكتكين ، أحد عماليك عماد الدين زنكى ، فقد عينه عماد الدين حاكماً على مدينة الموصل سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ^(٢) وفى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) ، ضم إلى سلطانه سنجار وحران وتكرت وإربل وغيرها ^(٣) . غير أنه سرعان ما نزل عن معظم أملاكه لسيده قطب الدين مودود ، واقتصرت أملاكه على إربل وحدها ، فى أيامه وأيام أبنائه من بعده ، حتى خضعت هذه البلاد لخلفاء الدولة العباسية ، ثم إلى المغول فى أثناء توغلهم فى أقاليم آسيا الغربية .

أتابكية ريار بكر : ^(٤) ٤٩٥ - ٨١١ هـ = ١١٠١ - ١٤٠٨ م .

كان أرتق بن أكسب ، مؤسس هذه الأتابكية ، قائداً من قواد الدولة

(١) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 207.

(٢) لاحظ أن زين الدين على بن بكتكين كان أتابكاً لقطب الدين مودود .

(٣) Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 165.

(٤) تعرف هذه الأتابكية بالدولة الأرتقية ، نسبة إلى مؤسسها أرتق بن أكسب . انظر ما جاء عن هذه الأتابكية فى كتاب زامبور Zambour ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ، وستانلى لينبول فى كتابه The Mohammadan Dynasties ، ص ١٦٦ - ١٦٩ .

السلجوقية . وقد شملت هذه الأتابكية ماردين وميافارقين وبعض الحصون المجاورة كحصن كيفا . وقد خضعت معظم مدن هذه الأتابكية للدولة الأيوبية فيما بعد ، على أن وجودها في هذا الحيز الجغرافي ، كان من العوامل التي أضعفت وحدة المسلمين بسبب كثرة ما حدث بشأنها من منازعات . ثم غزا المغول غالبية مدن هذه الأتابكية سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) غزواً خاطفاً بينما كانوا يعيشون في أقاليم الدولة الإسلامية فساداً ، باحثين عن جلال الدين منكبرتي آخر سلاطين الدولة الخوارزمية ^(١) .

° ° °

أتابكية أرمينية ^(٢) : ٤٩٣ — ٦٠٤ هـ — ١١٠٠ — ١٢٠٧ م .

أسس هذه الأتابكية سقان القطبي ، الذي كان يملوكا لقطب الدين إسماعيل الحاكم السلجوقي في مدينة مرند Marand ، إحدى مدن أذربيجان . وقد استولى سقان على مدينة خللاط سنة ٤٩٣ هـ (١١٠٠ م) ^(٣) واتخذ منها حاضرة للملك ، وكانت هذه المدينة هدفاً لأطاع الطامعين من الأمراء المجاورين ، إذ كان كل يريد أن يقوى نفسه بالاستيلاء عليها إلى أن آلت في النهاية إلى الملك الأوحدي نجم الدين أيوب بن الملك العادل أيوب سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) ، وأثار بذلك مخاوف الأمراء المجاورين ومنهم القبائل الكردية في شمال العراق ^(٤) .

وقد ظلت هذه المدينة وأعمالها في أيدي الأيوبيين حتى استولى عليها

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٢ . وبلاحظ أن سلالة هذه الأسرة ظلت تحكم في مدينة ماردين ، إحدى مدن هذه الأتابكية ، في ظل الحكم المغولي .

(٢) انظر الجدول رقم (١٤)

(٣) Lane.Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 170.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

الخوارزميون سنة ٦١٦ هـ (١٢١٨ م) ^(١) ثم دانت بعد ذلك للمغول .

* * *

أتابكية أذربيجان ^(٢) : ٥٣١ - ٦٢٢ هـ = ١١٣٦ - ١٢٢٥ م

أسس هذه الأتابكية إيلدكز Ildegiz ، أحد أرقاء السلطان مسعود السلجوقي ، وقد اشتراه من بلاد القفجاق ^(٣) . فاشتغل أول أمره في مطبخ السلطان مسعود ، غير أنه أخذ يترقى في وظائف البلاط ^(٤) . ثم ولاه السلطان مسعود حكم إقليم أران (أرانية) ، في شمال أذربيجان . وقد أخذ إيلدكز يوسع نفوذه بعد ذلك فاستولى على أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمدان وأصفهان والرى كما وسع بلاده حتى امتدت من باب قفليس إلى مكران ^(٥) . وقد ظل الحال على هذا النحى حتى توفي إيلدكز بمدينة همذان سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) خلفه ابنه محمد ^(٦) ، غير أن هذه البلاد الشاسعة انكسرت إلى أذربيجان وحدها في عهد الأتابك أبي بكر بن محمد (٥٦٧ + = ١٢١٠ م) الذي اتخذ مدينة تبريز حاضرة له ، فقد ابتلعت الدولة الخوارزمية هذه البلاد بعد أن اتسعت أملاكها على حساب السلاجقة والخلافة معا . وقد استمرت تلك البلاد تحت حكم هذه الأسرة إلى أن قضى عليها جلال الدين منكبرتي ^(٧) ، الذي استولى عليها من أوزبك بن البهاوان آخر أرائها سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٧ م) ، وتزوج من أرملته ابنة طغرل بك آخر سلاطين السلاجقة في العراق ^(٨) ، ثم استولى المغول على هذه البلاد سنة ٦٢٨ هـ

(١) ابن الأثير: الكامل ، ج ١٢ ص ٢٢٦ .

(٢) انظر الجدول رقم (١٥) .

(٣) Lane-Poole : The Mohammadan Dynasties, p. 171

(٤) Malcolm : The History of Persia, vol. i, p. 231.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١٧٤ .

(٦) المرجع نفسه، ج ١١ ص ١٧٤ .

(٧) Malcolm : The History of Persia, vol. i, p. 232.

(٨) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٩٨ — ٢٠١ .

(١٢٣١ م) ^(١). ويظهر أن بعد أذربيجان ومناعتها جعل هولاء كويتخدمها فيما بعد مستودعاً للأسلحة ونفائسه التي استولى عليها من البلاد الإسلامية ، فجمع هناك كل ما استولى عليه من بغداد ومن مملكة السلاجقة الروم وجورجيا وأرمينية ولورستان وكرديستان ^(٢) .

أتابكية لورستان ^(٣) : ٥٤٣ - ٨٢٧ هـ = ١١٤٨ - ١٤٢٣ م

نشأت هذه الأتابكية في إقليم جبلي ، تسكنه منذ زمن طويل قبائل بربرية ليس من السهل إخضاعها . وقد أسس هذه الأتابكية سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) رجل يدعى أبو طاهر بن محمد ، وكان أحد قواد أتابكية فارس . وما هو جدير بالملاحظة أن أسرة هذا الأتابك قد دخلت تحت حكم دولة ايلخانات المغول في فارس بعد تأسيسها . وقد استمرت في حكم إقليم لورستان حتى سقطت على يد إبراهيم بن شاه رخ .

أتابكية فارس ^(٤) : ٥٤٣ - ٦٨٦ هـ = ١١٤٨ - ١٢٨٧ م

تنسب هذه الأتابكية إلى سلغر ، قائد إحدى قبائل التركمان التي هاجرت إلى خراسان وانضمت إلى طغرل بك ، فعينه في بلاطه . وقد استولى أحد خلفائه وهو سنقر بن مودود على إقليم فارس سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) ، حيث

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٣٤ .

(٢) Rashid - Eldin : Histoire des Mongols de la Perse, p. 317.

(٣) تسمى هذه الأتابكية أيضاً بالدولة الهزارسية نسبة إلى نصرة الدين هزارسب ، أحد أفراد هذه الأسرة . راجع تاريخ هذه الأسرة في كتابي زامبور Zambour ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥ . وستانلي ليندول ، The M. Dynasties ، ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٤) انظر الجدول رقم (١٦) . ومما هو جدير بالذكر أن هذه الأتابكية تعرف أيضاً بالدولة السلغرية .

أسس دولة استمرت قرناً ونصف قرن . وقد أخذ هذا الأتابك يعمل على توسيع رقعة بلاده ، فمد نفوذه على كرمان ، واتخذ شيراز حاضرة للملكة . وقد اتسعت أملاك هذه الدولة في عهد الأتابك سعد بن زنكي الذي استولى على أصفهان وطمع في مد نفوذه على العراق العجمي سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) . وقد تصادف أن كان علام الدين خوارزم شاه يسير في هذه السنة لإخضاع الخلافة العباسية ، فالتقى بسعد هذا في مدينة الري واشتبكت جيوشهما في موقعة انتصر فيها الخوارزميون . ومع ذلك فقد أكرم خوارزم شاه الأتابك سعد وأعاده إلى بلاده مكثفياً بأخذ جزء منها ، ومكثفياً بإقامة الخطبة له على منابر هذه البلاد ^(١) .

ولما توفى الأتابك سعد بن زنكي سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م) ^(٢) ، تولى بعده ابنه أبو بكر الذي وسع رقعة بلاده في بلاد البحرين ، كما أخضع جميع جزر الخليج الفارسي . وقد خضع هذا الأتابك لجنكيزخان عندما هاجم بلاده . ولم يقاومه ، بل أرسل إليه الهدايا الثمينة ، فلما دخل جنكيزخان بلاده لم يعمل فيها التخريب كما حدث في البلاد الإسلامية الأخرى . ثم خضعت هذه المقاطعة لهولاًكو عندما اجتاحت الأراضي الإسلامية ^(٣) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٤٦ .

(٢) ذكر زامبور Zambour في كتابه ص ٢٣٢ أن سعد الأول بن زنكي توفى سنة ٦٢٨ هـ وهو في ذلك يخالف ستانلي لينبول الذي ذكر أنه توفى سنة ٦٢٣ هـ . وإن السنة التي توفى فيها سعد كانت موضع اختلاف المؤرخين ، فذهب رشيد الدين والوصاف وصاحب روضة الصفا وحبيب السبر إلى أن وفاته كانت سنة ٦٢٣ هـ . وذهب صاحب تاريخ كزنده إلى أن وفاته كانت سنة ٦٢٨ هـ . وتؤيد الحقائق التاريخية الثابتة حدوث الوفاة سنة ٦٢٣ هـ . هذا وقد ذكر ابن الأثير (ج ١٢ ص ٢٢٠) وهو في معرض الكلام عن الحرب بين جلال الدين منكبرتي والمغول سنة ٦٢٥ هـ ، أن الأتابك سعد كان قد توفى قبل هذه السنة وعلى هذا الأساس فإن الوفاة لم تحدث في سنة ٦٢٨ هـ . وإذا علمنا أن ابن الأثير كان من المعاصرين لهذه الحوادث ، أدركنا مدى اهتمامنا بالاعتماد عليه .

أتابكية كرمانه^(١) : ٦١٩ - ٥٧٠٣ = ١٢٢٢ - ١٣٠٣ م .
أسس هذه الأتابكية براق حاجب ، أحد القواد في دولة الخطا الذين
دخلوا في خدمة علاء الدين خوارزم شاه^(٢) . وقد اتخذ هذا الرجل من
الفوضى التي أعقبت غزو جنكيز خان فرصة لتأسيس دولة له في كرمان
سنة ٦١٩ هـ (١٢٢١ م) . على أن هذه البلاد ظلت خاضعة للخوارزميين
خضوعاً اسمياً في عهد جلال الدين منكبرتي الذي كان براق حاجب نائباً له .
وقد أراد براق أن يستقل بهذه البلاد عن الخوارزميين سنة ٦٢٣ هـ
(١٢٢٥ م) ، منتهزاً فرصة الفوضى التي حلت بالشرق الإسلامي عقب
الغزو المغولي وانشغال جلال الدين بحروبه الكثيرة ، بل إنه أرسل إلى
المغول أسرار الدولة الخوارزمية وحثهم على محاربة الخوارزميين . فلما علم
جلال الدين بذلك سار نحو براق حاجب الذي تحصن في إحدى قلاع
ورفض مقابلته بل أرسل إليه رسالة يقول فيها :

« إني أنا العبد والمملوك ، ولما سمعت بمسيرك إلى هذه البلاد ،
« أخليتها لك ، ولو علمت أنك تبقى على الحضرت بابك ، والكنى ،
« أخاف هذا جميعه^(٣) » .

وقد أدرك جلال الدين منكبرتي أن الاشتباك في حرب معه يستلزم
وقتاً طويلاً ، فأرسل إليه الخلع وأقره على هذه البلاد .
وقد بقيت هذه الأسيرة في حكم هذه البلاد ، ثم خضعت للمغول ،
واستمرت تحكم إقليم كرمان في ظل أسيرة إيلخانات المغول في فارس .

(١) انظر الجدول رقم (١٧) .

(٢) راجع ما كتب عن دولة الخطا في كتاب « الدولة الخوارزمية والمغول » المؤلف ،
ص ٤٦ - ٦٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٢٠٩ .

دولة خوارزم^(١) : ٤٧٠ - ٦٢٨ هـ = ١٠٧٧ - ١٢٣١ م .
كانت الدولة الخوارزمية إحدى دول الأتابكة التي كان لها شأنها قبيل
الغزو المغولي . وتنسب هذه الدولة إلى « نويشتكين » التركي الذي كان يشغل
وظيفة الساقى^(٢) في بلاط السلطان ملكشاه السلجوقي . ثم تدرج في
سلك الوظائف في عهده . وكانت لابنه محمد شهرة واسعة في العلوم
والآداب ولذا عينه السلطان بركياروق بن ملكشاه حاكماً على إقليم خوارزم
ومنحه لقب « شاه ».

ومنذ ذلك التاريخ بدأ سلاطين هذه الدولة يكتفون لأنفسهم على
حساب القوى الموجودة في ذلك الوقت ، ومن أهمها الدولة السلجوقية
المتداعية ، والدولة الغورية التي كانت في النزاع الأخير ، وأخيراً على حساب
دولة الخطا التي قامت على حدود الدولة الإسلامية^(٣) . وقد جاهد
الخوارزميون في سبيل النهوض بدولتهم وتوسيع أملاكها منذ عهد آتسز
خوارزم شاه^(٤) (٥٢١ - ٥٥١ هـ = ١١٢٧ - ١١٥٦ م) الذي ظل
يحاهد ضد القوى الموجودة في ذلك الوقت . ولا سيما قوة السلاجقة في
عهد السلطان سنجر آخر سلاطينهم الأقوياء في فارس . وقد أصبحت
الدولة الخوارزمية مهيبة الجانب في الشرق الإسلامي منذ أيام علاء الدين
تكمش خوارزم شاه (٥٦٨ - ٥٩٦ هـ = ١١٧٢ - ١١٩٩ م) ، إذ
اتسعت أملاكها في الشرق على حساب دولة الخطا ، كما اتسعت في الغرب

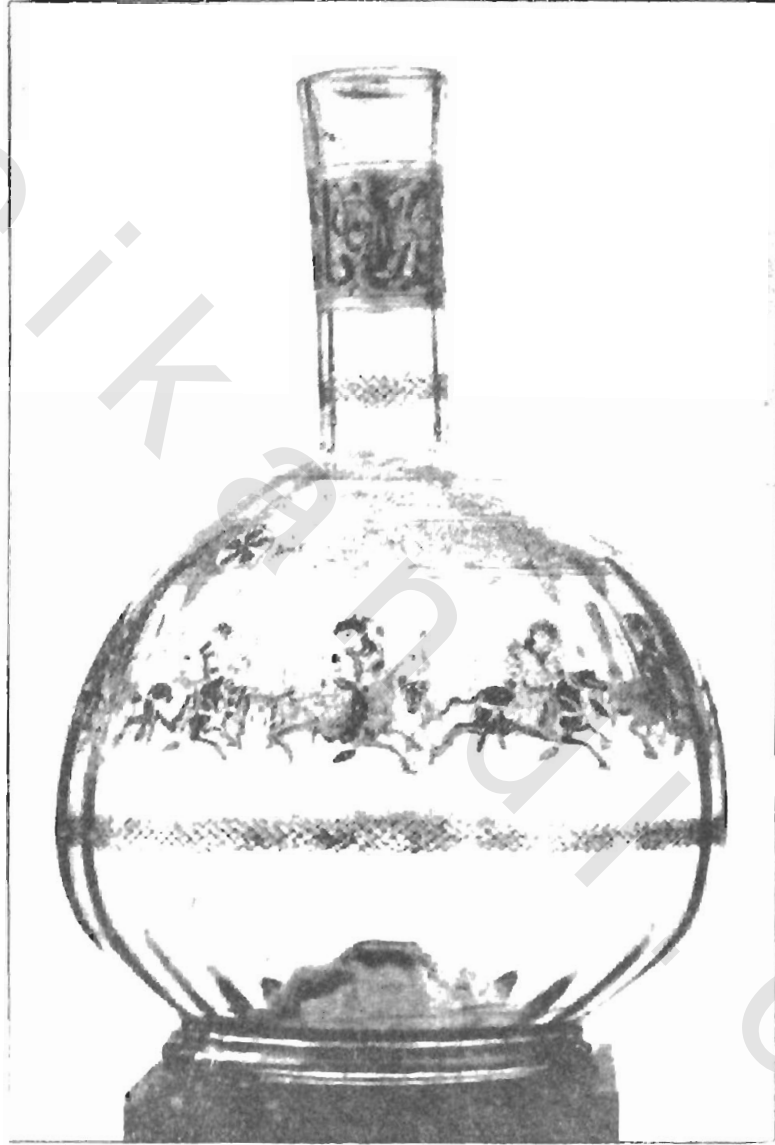
(١) انظر الجدول رقم (١٨) .

(٢) راجع ما كتبناه عن وظيفة الساقى في ص ٩٣ حاشية ٤ .

(٣) انظر ما جاء عن نشأة الدولة الخوارزمية واتساعها في كتاب « الدولة الخوارزمية »

والمغول » المؤلفات ص ١٧ - ٣٠ .

(٤) يكتب هذا الاسم في اللغتين الفارسية والتركية آتسز . و « آتسز » كلمة تركية
معناها من لا اسم له . (آت = اسم ، سيز = أداة التجريد) وقد جرت العادة عند الترك
أن من يموت بنوه صغاراً يسمى واحداً منهم آتسز حتى يعيش ولا يهلك . انظر النظمي
العروضي السمرقندي : چهار مقاله ، ص ١٠٩ ، ترجمة الأستاذين عبد الوهاب عزام وبجي الحجاب .



قنينة من الزجاج المموه بالمينا من صناعة الشام في القرن السابع
الهجري (١٣ م)، وكانت محفوظة في القسم الإسلامي من متاحف برلين .

(عن كتاب فنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن)

حتى شملت العراق العجمي وخاصة بعد هزيمة طغرل بك آخر سلطان سلجوقي في العراق سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ، وبذلك أصبحت الدولة الخوارزمية مسموعة الكلمة ، وأصبح الخليفة العباسي الناصر لدين الله ينظر إلى هذه الدولة بمنظار آخر يخالف منظار من سبقه من الخلفاء .

وكان أقصى اتساع بلغته الدولة الخوارزمية في عهد علام الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ - ٦١٧ هـ = ١١٩٩ - ١٢١٩ م) ^(١) ، إذ استطاع هذا السلطان أن يبسط نفوذه على بلاد ماوراء النهر بعد هزيمة جيوش دولة الخطا سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ، كما تمكن من السيطرة على الأقاليم المطلة على المحيط الهندي جنوباً بما في ذلك إقليمي كرمان ومكران ، وأخيراً استطاع أن يستولي على البلاد الواقعة غربي نهر السند بعد الاستيلاء على مدينة غزنة حاضرة الدولة الغورية ، سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) .

والأمر الذي يستحق الاهتمام في حياة علام الدين محمد خوارزم شاه ، هو محاولته الاستيلاء على بغداد نفسها طمعاً في أن يحتل المكانة التي كانت للبويعيين ثم السلاجقة في هذه المدينة ، وإذا كان علام الدين خوارزم شاه قد فشل في تحقيق هذا الهدف ، فإنه نجح في توطيد نفوذه في العراق العجمي والاستيلاء على كثير من مدن هذا الإقليم ^(٢) .

وبخلاصة القول ، فإننا نجد أن الدولة الخوارزمية قد امتدت في عهد علام الدين محمد خوارزم شاه من حدود العراق العربي غرباً إلى حدود الهند شرقاً ، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالاً إلى الخليج الفارسي والمحيط الهندي جنوباً . على أن الحوادث لم تمهل الدولة الخوارزمية بعد ذلك طويلاً ، فسرعان ما اجتاحتها المغول ، البلد تلو الآخر ، واستولوا على قلاعها واحدة بعد أخرى ، حتى أجهزوا على ذلك الملك العريض الذي

(١) انظر خريطة « الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها » ، في كتاب « الدولة الخوارزمية والمغول » ، للمؤلف .

(٢) ابن الوردي : نعمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٣٤ .

كونه الخوارزميون ولم يمهلهم الزمن ليحجوا ثمار ما غرسوا .

* * *

من دراسة دول الآتابكة ، نرى أن الشرق الإسلامى كان قبيل الغزو المغولى مفككا لا وحدة فيه ولا تجانس ، وأنه لم يعد يأتمر بإمرة رجل واحد . ولم يقتصر الأمر على انقسام هذا المسرح التاريخى إلى هذه الآتابكيات ، بل إن هؤلاء الآتابكة كانوا فى نزاع مستمر فيما بينهم ، كل يريد أن يلبس ما يمكنه التهامه من أملاك جيرانه إذا ما تطرقت إليها أى ناحية من نواحي الضعف ، لذلك لا نعجب إذا ما أصبح الشرق الإسلامى طعمة سائغة للمغول من الشرق ، كما أصبح هدفاً سهلاً للصليبيين من الغرب .

obeykandi.com

الباب الخامس

حالة مصر والشام

مصر والشام قبل مجيء الحملة الصليبية الأولى . الحرب الصليبية الأولى
وتكون الإمارات الصليبية في بلاد الشام . الحرب الصليبية الثانية . نور الدين
وجهاده ضد الصليبيين . صلاح الدين الأيوبي وجهاده ضد الصليبيين . مصر
والشام في عهد خلفاء صلاح الدين .

الباب الخامس

حالة مصر والشام

انفصلت مصر عن الدولة العباسية منذ أيام الطولونيين (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م) ، واستطاع احمد بن طولون ، بعد أن استقل بمصر ، أن يستولى على البلاد الشامية سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م) . وبهذا نجد أن مصر قد استقلت بنفسها لأول مرة منذ أيام البطالمة ، بل نجد أنها حكمت سوريا لأول مرة منذ عهد الفراعنة . وقد سارت الحوادث سريعة، فزالت الدولة الطولونية ، وتلتها الدولة الإخشيدية (٣٢٣ - ٤٥٨ هـ = ٩٣٥ - ٩٦٩ م) فنهج محمد بن طنج الإخشيد على منوال الطولونيين ، إذ وطد نفوذه في مصر ، ثم مد هذا النفوذ على سوريا ، بل واستطاع أن يوسع سلطانه حتى شمل مكة والمدينة ، ولم يكن هناك من منافس لهذه الدولة سوى الدولة الحمدانية ، إذ استطاع سيف الدولة الحمداني أن يستولى على حلب سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) من الإخشيد ، وتدل قصائد المتنبي دلالة واضحة على ما كان بين الحمدانيين والإخشيديين من منافسة .

{ وقد ورث الفاطميون أملاك أسلافهم الإخشيديين سواء أكان ذلك في مصر ، أو في بلاد الشام ، أو في مكة والمدينة ، وأصبح الفاطميون ينافسون بغداد ، بل لقد طمعوا في السيطرة عليها . غير أن الضعف الذي أصاب الدولة الفاطمية منذ عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ = ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) ، نتيجة للثورات التي قام بها الأتراك الذين أتلفوا قصور الخلفاء وخربوا كل ما وصل إلى أيديهم ، وما صحب ذلك من انتشار القحط والمجاعة في عهد هذا الخليفة ، كل هذا أدى إلى انتقال الأملاك

الحجازية والشامية من أيدي الفاطميين إلى أيدي العباسيين ، وذلك بفضل قوة السلاجقة الذين استولوا على بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) كما ذكرنا ، وأخذوا منذ ذلك الوقت يوسعون أملاكهم شرقاً وغرباً . فقد حدث أن أرسل أمير مكة في سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) إلى السلطان ألب أرسلان يخبره بقطع الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي في بلاده وإقامتها للخليفة العباسي القائم^(١) . وفي السنة التالية تمكن العباسيون من فرض سلطانهم على حلب وإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان ألب أرسلان^(٢) . وفي سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) ، تمكن السلاجقة من الاستيلاء على دمشق في عهد الخليفة المقتدى ، وأبطلت عبارة الفاطميين المشهورة وهي «حي على خير العمل» من الأذان^(٣) . وهكذا أدى ضعف الفاطميين وما قابله من قوة الدولة السلجوقية إلى انتقال البلاد الشامية إلى أيدي السلاجقة . وما هو جدير بالذكر ، أن السلطان ملكشاه أقطع البلاد الشامية أخاه تنش في سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) ، واستطاع هذا أن يوطد نفوذه هناك ، ثم استطاع أن يركز سلطانه في حلب ودمشق في السنة التالية^(٤) ، وكانت الدولة الفاطمية إذ ذاك في طريقها إلى الانحلال . وقد رأينا فيما سبق كيف أخذت الدولة السلجوقية نفسها في الانحلال بعد وفاة السلطان ملكشاه ، ونضيف هنا أن صدى هذا الانحلال قد وصل إلى بلاد الشام حينما قام النزاع بين تنش وأولاد أخيه ملكشاه طمعاً منه في السيطرة على ممتلكات الدولة السلجوقية . وكان من المنتظر أن يعود الهدوء إلى البلاد الشامية بعد مقتل تنش سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ، ولكن نشأ صراع جديد بين ابنه رضوان ودقاق ، واستولى أولهما على حلب وخطب للخليفة المستعلي الفاطمي في بلاده

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٦ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٠ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٤٥ .

بغية اجتذاب المصريين إليه في نزاعه ضد أخيه دقاق الذي حكم في دمشق^(١). وفي وسط هذا الاضطراب الذي انتشر في قلب الدولة السلجوقية، وشمل بلاد الشام، وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة الفاطمية آخذة في التدهور، ظهر عدو أنسكى وأشد وهو الخطر الصليبي، فقد استجاب البابا لاستغاثة الإمبراطور الكسيوس كومنين (٤٧٤ - ٥١٢ هـ = ١٠٨١ - ١١١٨ م) الذي استغاث به لإنقاذه من السلاجقة المسلمين، الذين أصبحوا يهددون القسطنطينية نفسها منذ أن أوقعوا الهزيمة بالإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع Romanus IV (٤٦٠ - ٤٦٤ هـ = ١٠٦٧ - ١٠٧١ م)، بل وأسروه في موقعة ملاز كرد سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧١ م)^(٢). وفي سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) سارت الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، وقام الصليبيون بأعمالهم الخيرية ضد المسلمين التي انتهت باستيلائهم على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م)^(٣). وفي السنوات التالية استطاع الصليبيون أن يستولوا على عكا وطرابلس وصيدا ثم على صور سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م)^(٤). وقد برهن البابا أوربان الثاني على أنه سياسى مخنك إذ أنه اختار الوقت المناسب وهو فترة انحلال الشرق الإسلامى لتسيير حملته الصليبية على بلاد الشام. ونما يدعو إلى الأسف أن الأفضل بن بدر الجمالى تحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة، ولكنه عاد فخار بهم بعد أن تحقق من طمعهم في مصر نفسها. على أن مدينة عسقلان قد أصبحت

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ١١١ - ١١٢. انظر الجدول رقم (٦) في آخر الكتاب. ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام، أن طغتكين مؤسس أتابكية دمشق (الدولة البورية) كان أتابكا لدقاق بن تنش. انظر زامبور Zambour، ص ٢٢٥، وإينبول The M. Dynasties ص ١٦١.

(٢) Hitti: History of the Arabs, p. 636.

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الموقعة تكتب أيضا « منزبكرت ».

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ١١٢.

(٤) المرجع نفسه، ج ١٠ ص ٢٦٣.

الحد الفاصل بين مصر وأملاك الصليبيين في بلاد الشام^(١) .
وكان من أثر الحملة الصليبية الأولى ، أن تكونت الإمارات الصليبية
الأربع في بلاد الشام ، وهي بيت المقدس ، وأنطاكية ، وطرابلس ، والرها ،
كما كان من أثرها أيضا ضياع المدن الساحلية من أيدي المسلمين ، ولم يبق في
أيديهم إلا بعض المدن الداخلية ومن أهمها دمشق وحلب^(٢) . وكانت المدن
الساحلية هي كل ما اشتاق إليه الإيطاليون وابتغوا ، إذ استطاعوا أن يجدوا
لهم في هذه المدن أسواقا تجارية حرة^(٣) .

وقد ظلت البلاد الشامية تن تحت ما أصابها من ذلة على أيدي الصليبيين
كما كان المصريون يتلقون باستمرار تهديد الصليبيين بقلوب واهنة بسبب
ما بلغه الخلفاء الفاطميون من ضعف . ولولا ظهور عماد الدين زنكي
(٥١٦ - ٥٤١ هـ = ١١٢٢ - ١١٤٦ م) ، لكانت مصر من البلاد التي يسهل
على الصليبيين الاستيلاء عليها ، إذ كان ظهور عماد الدين زنكي سببا في اتجاه
الصليبيين إليه ، دفعاً لما أصابهم وأصاب ممتلكاتهم على يديه من ضرر بليغ .

وقد ذكرنا من قبل ، كيف ظهر عماد الدين زنكي ، وكيف دانت له
بلاد الموصل والجزيرة ، وكيف مد نفوذه على حلب حتى أصبح خطراً
يهدد الصليبيين في ممتلكاتهم . وكان استيلاؤه على الرها التي كانت تسيطر على
الطريق بين بلاد ما بين النهرين وبين البحر الأبيض سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م)
بمثابة ضربة قاضية أصابت الصليبيين ، وترتب على ذلك قدوم الحملة الصليبية
المعروفة بالثانية إلى بلاد الشام (٥٤٢ - ٥٤٤ هـ = ١١٤٧ - ١١٤٩ م) ،
بقيادة الإمبراطور كونراد الثالث Conrad III إمبراطور ألمانيا ولويس
السابع Louis VII ملك فرنسا . وقد وصلت هذه الحملة فعلا في عهد

(١) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 163-165.

(٢) Barker : The Crusades, pp. 25-32.

(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 640.



شمعدان من البرونز مؤرخ سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ومخفوظ بمتحف الفنون الزخرفية في باريس وعليه زخارف من موضوعات مسيحية كمنظر ميلاد المسيح والمعمودية والختان .

(انظر كتاب فنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن ، ص ٥٤٤ - ٥٤٥)

نور الدين محمود بن زنكي ، ولكن كان تغيير وجهة الحملة الصليبية الثانية ، التي أتت خصيصاً لاستخلاص الرها ، وسيرها إلى دمشق بدلاً من الرها ، من أكبر الأخطاء التي ارتكبها زعماء هذه الحملة ، إذ أن دمشق كانت الحليف الوحيد للصليبيين منذ حطوا رحالهم في بلاد الشام لأول مرة . وقد فشلت هذه الحملة وعاد زعيماها من حيث أنيا ، ولم يكتسب الصليبيون من وراء هذه الحملة أكثر من الإساءة إلى سمعتهم في بلاد الشام^(١) .

وبعد وفاة عماد الدين زنكي ، قسمت مملكته بين ولديه ، نور الدين محمود الذي آل إليه القسم الغربي من مملكة أبيه وحاضرتة حلب ، وسيف الدين غازي الذي آل إليه القسم الشرقي وحاضرتة الموصل . وكان نور الدين محمود منذ ركز سلطانه على القسم الغربي من مملكة أبيه ، قد أخذ يعمل على الاستيلاء على إمارة دمشق لأهمية موقعها الحربي ، فيستطيع إذا ما تمكن من الاستيلاء عليها أن يواجه دولة الصليبيين دون أن يخشى هذه الإمارة التي كانت تؤازرهم في كفاحهم ضد الدولة الزنكية . وقد استطاع نور الدين محمود أن يستولي على هذه المدينة سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، كما استطاع أن يستولي على بعض القلاع التي كانت بأيدي الصليبيين^(٢) . وقد أصبحت الدولة النورية منذ ذلك الوقت تهدد أملاك الصليبيين في بلاد الشام إذ أنها بامتلاكها حلب ودمشق جعلت مملكة بيت المقدس في موقف لا تحسد عليه^(٣) .

وكانت الدولة الفاطمية في ذلك الوقت في دور الاحتضار ، نتيجة للمجاعات والأوبئة والقحط الذي أصابها بسبب انخفاض النيل في عهد الخليفة المستنصر ، ونتيجة لاستبداد الوزراء بالخلفاء الفاطميين . ولم يحل بين الصليبيين وبين الاستيلاء على مصر في ذلك الوقت سوى ظهور الدولة

(١) Barker : The Crusades, p. 54.

(٢) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٨٨ — ١٩١ .

(٣) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 174.

الزنكية وازدياد قوتها في أيام عماد الدين زنكي ونور الدين محمود .
وانصرف الصليبيين إلى مواجهة عدوهم القوي في البلاد الشامية .

وكان من سياسة نور الدين محمود أن يوحد جميع القوى الإسلامية في الشرق الأدنى ، ومن بينها مصر ، ليوجهها ضد الصليبيين . ولم تخف هذه السياسة على الصليبيين طبعاً ، فالتجّهت أنظارهم إلى الاستيلاء على مصر حتى يسبقوا نور الدين محمود في تحقيق هذا الهدف . وقد أفلحوا في الاستيلاء على عسقلان سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) ، وسدوا بذلك الطريق إلى مصر في وجه نور الدين (١) . ثم حدث أن طوق نور الدين ممتلكات الصليبيين باستيلائه على دمشق في السنة التالية كما رأينا ، فالتجّهت سياسة كل من الصليبيين ونور الدين إلى منع كل منهما الآخر من الاستيلاء على مصر ، بل عمل كل من الفريقين على أن يسبق الفريق الآخر في الاستيلاء عليها . وقد نجح نور الدين محمود في النهاية بمساعدة أسد الدين شيركوه في الاستيلاء على مصر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) ، واتخذ الخليفة الفاطمي العاضد وزيراً له (٢) ، ولكنه لم ينعم بمنصب الوزارة أكثر من شهرين وخمسة أيام (٣) ، فاختر الخليفة العاضد صلاح الدين الأيوبي في هذا المنصب ، وقبل الخليفة العاضد أن يكون نور الدين حامياً لمصر من الصليبيين .

ومنذ آلت السلطة إلى صلاح الدين في مصر ، أخذ يعمل على إزالة الدولة الفاطمية نهائياً ، فكان أن خطب للخليفة العباسي المستضي سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، دون أن يلتقي معارضة ما من المصريين . وكان الخليفة العاضد في ذلك الوقت على فراش الموت ، وقد مات فعلاً وهو يجهل أن دولته قد

(١) Barker : The Crusades, p. 56.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٥٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١١ ص ١٥٣ ،

زالت نهائياً^(١)، وهكذا انتقل الحكم إلى صلاح الدين انتقالاتاً هادئة^(٢).
وقد قسم ستانلى لينبول^(٣) عهد صلاح الدين الأيوبي أقساماً ثلاثة :
سمى الأول منها بالدور المصرى ، والثانى بالدور السورى ، والثالث بالدور
الفلسطينى .

أما عن الدور المصرى (٥٦٥ — ٥٧٠ هـ = ١١٦٩ — ١١٧٤ م) ،
فتلاحظ أن صلاح الدين كان يعمل فى أثناءه حسب ما تمليه مصلحته الخاصة ،
وبدأ بتوطيد أقدامه فى البلاد المصرية ، وذلك بالعمل على تحصينها ضد
القوى المعادية ، ففرض على بقايا الفاطميين فى مصر ، وحصن نفسه ضد سيده
نور الدين ، كما تحصن ضد ما يمكن أن يقوم به الصليبيون من أعمال عدائية .
لذلك لا نعجب إذا رأينا صلاح الدين فى هذه الفترة يتجنب مواجهة
نور الدين ويعتذر عن عدم لقائه بشتى المعاذير^(٤) ، ويعمل فى الوقت
نفسه على تقوية مركزه فى مصر حربياً وسياسياً . فبنى قلعة القاهرة لتكون
حصناً دفاعياً ضد من تحدته نفسه بالإغارة على مصر ، سواء أكان ذلك
من ناحية نور الدين أم من ناحية الصليبيين . ولم يخف على نور الدين محمود
أن صلاح الدين كان يؤسس لنفسه فى البلاد المصرية ، وأنه ما كان ليتركه
يوصل هذه السياسة المضادة لسياسته لولا أنه كان فى شغل شاغل بمتاعبه
الخاصة ، سواء أكان ذلك من جانب الصليبيين أو من جانب سلاجقة
الروم ، أو أتباكه ما بين النهرين . وليس أدل على أن صلاح الدين كان
يرنو ببصره إلى تأسيس إمبراطورية مصرية ، من أنه أرسل أخاه المعظم
توران شاه لفتح السودان طمعاً فى موارد هذه البلاد . وقد وصلت جيوشه

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٢) انظر الجداول الخاصة بالدولة الأيوبية فى كتاب زامبور Zambour ، ص ٩٧ —

١٠١ ، وستانلى لينبول The M. Dynasties ، ص ٧٧ — ٧٩ .

(٣) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 194.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٢٦ .

فعلا إلى مدينة إبريم ، غير أن تقريره عن مناخ السودان ومنتجاته كان لا يشجع صلاح الدين على المضي في مشروعه، فوجه أخاه إلى بلاد اليمن حيث أسس لنفسه حكومة مستقلة في هذه البلاد، توارثها أعضاء البيت الأيوبي^(١).

أما عن الدور الثاني المعروف بالدور السورى (٥٧٠ - ٥٨٢ هـ = ١١٧٤ - ١١٨٦ م)، فنلاحظ أن صلاح الدين أخذ يعمل في أثناءه على توحيد جميع القوى الإسلامية الموجودة في الشرق الأدنى تحت سلطانه حتى يستطيع أن يوجه هذه القوى مجتمعة ، متفقة غير متنازعة ، ضد هدفه الأساسى وهو الصليبيين . وقد أصبح صلاح الدين منذ وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) لا ينازعه منازع في هذا المسرح التاريخى^(٢)، ولا سيما أن عمورى ملك بيت المقدس توفى أيضاً في هذه السنة ، تاركاً على عرش بيت المقدس طفلاً مريضاً . وهكذا نرى أنه إذا كانت هناك من منافسة لصلاح الدين فقد كانت منافسة اطمأن لها كل الاطمئنان ، إذ أن الصالح إسماعيل ابن نور الدين الذى تركه أبوه فى حلب كان طفلاً لا يخشى جانبه . غير أن هذا الطفل كان يؤازره ويساعده عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل، كما كان الصليبيون من أمرهم طرابلس يشدون من أزره ، إذ لم يخف على أمير الموصل كما لم يخف على الصليبيين ما سيؤول إليه مصيرهم لو تمكن صلاح الدين من الاستيلاء على مدينة حلب .

على أن هذه القوى المعادية لصلاح الدين لم تمنعه من متابعة سياسته التى رسمها لنفسه ، فاتجه عقب وفاة نور الدين إلى حلب بحجة إنقاذ هذا الأمير الصغير من أيدي أفراد حاشيته الذين سارعوا إلى الاتفاق مع الصليبيين . لذا فإن صلاح الدين عند ما سار إلى حلب ، سار ريموند Raymond أمير طرابلس لمساعدة حليفه الأمير الطفل ، فاضطر إلى رفع الحصار عنها .

(١) Lane- Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 195-197.

(٢) ابن الأثير: الكامل ، ج ١١ ص ١٨٠ .

وفي سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) ، سار سيف الدين غازي لمساعدة الصالح إسماعيل ، والتقت جيوشهما المتحالفة بقوة صلاح الدين بالقرب من مدينة حلب عند موقع يسمى « قرون حماء » ، فانتصر صلاح الدين وتتبع فلول المنهزمين إلى مدينة حلب التي حاصرها وقطع الخطبة للصالح إسماعيل في البلاد التي بيده وأزال اسمه عن السكة فيها ، ثم تم الصلح بين الفريقين على أن يحتفظ كل منهما بالبلاد التي بيده^(١) . وقد تم لصلاح الدين الانتصار على سيف الدين غازي في السنة التالية ، فاستطاع بذلك أن يحد من تدخله ، كما استطاع أن يعقد محالفة بينه وبين أمير حلب ، اعترف له فيها بسيادته على ما فتحه من البلاد ، الممتدة من مصر إلى البلاد الفراتية . ثم استطاع صلاح الدين سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) أن يبرم معاهدة أمدها سنتان مع كل من سلاجقة الروم وملك أرمينية الصغرى وأمراء الموصل والجزيرة وإربل وكيفا وماردين وميافارقين ، وانفق مع هؤلاء جميعا على أن يسود بينهم السلام والوثام محل القلاقل والخصام . ولما توفي الصالح إسماعيل سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) ، انتظر صلاح الدين حتى انتهت المدة المتفق عليها للمهادنة ، ثم سار إلى بلاد الشام سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) وأخضع كل بلاد ما بين النهرين ما عدا الموصل ، تلك المدينة التي خضعت له سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) . كما استطاع صلاح الدين أن يمد نفوذه على حلب . وهكذا أصبحت البلاد الشامية وبلاد ما بين النهرين وبعض كردستان خاضعة لصلاح الدين الذي استطاع بعد ذلك كله أن يوجه هذه القوى الإسلامية مجتمعة إلى محاربة الصليبيين .

ننتقل بعد ذلك إلى الدور الثالث من حكم صلاح الدين وهو الذي سماه لينبول بالدور الفلسطيني (٥٨٢ - ٥٨٩ هـ = ١١٨٦ - ١١٩٣ م) . وفي هذا الدور توجه صلاح الدين إلى الصليبيين بكل ما أوتي من قوة ، كما سارع أمراء الموصل وسنجار والجزيرة وإربل وحران ، وحتى الأكراد

(١) ابن الأثير: الكامل ، ج ١١ ص ١٩٠ .

الذين يسكنون وراء نهر دجلة إلى مد يد المساعدة له^(١) ، واستطاع صلاح الدين بكل ما تجمع لديه من قوى أن ينصرف إلى الصليبيين ويلحق بهم هزيمة منكرة في موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) . وكان يوماً قاسياً على الصليبيين ، ذلك الذي اشتبك فيه صلاح الدين معهم ، وزاده قسوة أنه كان يوماً صائفاً من أيام يوليو ، تحمل فيه الصليبيون حرارة الجو القائلة ومرارة الجوع والعطش . وكانت هذه الموقعة بمثابة ضربة قاضية وجهت إلى الصليبيين ، إذ تمكن صلاح الدين من دخول بيت المقدس بعد ذلك في شهر أكتوبر ، وتبع هذا الانتصار سلسلة من الانتصارات الأخرى ، حتى أنه لم يعد للصليبيين في مملكة بيت المقدس سوى مدينة صور ، كما لم يبق لهم من المدن الهامة في الأقاليم الشمالية سوى مدينتي أنطاكية وطرابلس^(٢) .

وقد أثار سقوط بيت المقدس حنق الأوربيين ، إذ تحطم كبرياؤهم السياسى وشعورهم الدينى فكانت النتيجة أن قامت الحرب الصليبية المعروفة بالثالثة (٥٨٥ — ٥٨٨ هـ = ١١٨٩ — ١١٩٢ م) ، وعلى رأسها فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا . وكانت دلائل الفشل قد بدت تظهر منذ بدء رحيل زعماء هذه الحملة ، فإنه فضلاً عن اختلاف الطرق التى سلكها كل من هؤلاء القادة الثلاثة ، فقد غرق إمبراطور ألمانيا فى آسيا الصغرى وتفرقت جيوشه واختلاف المملكان الآخرين على الخطة الحربية التى يجب اتباعها . وليس أدل على ذلك من انجاه ملك فرنسا رأساً إلى عكا ، بينما شغل ملك إنجلترا نفسه بالاستيلاء على قبرص^(٣) ؛ أضف إلى ذلك عدم انتظام وصول القوات المتحالفة إلى عكا مما أدى إلى طول مدة حصارها^(٤) . وقد حاول صلاح الدين

(١) Lane-Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 207.

(٢) Barker : The Crusades, p. 60.

(٣) Ibid., p. 63.

(٤) استمر هذا الحصار من ٢٧ أغسطس سنة ١١٨٩م إلى ١٢ يوليو سنة ١١٩١م .

في هذه الفترة أن يطلب المدد من الخليفة العباسي الناصر دون جدوى^(١).
على أن اختلاف ملكي فرنسا وإنجلترا ورحيل الأول عن البلاد الشامية إلى بلاده، كان من الأمور التي أضعفت مركز ملك إنجلترا رغم ما أحرزه من انتصار، فاضطر إلى طلب الصلح من صلاح الدين. وقد تم عقد هذا الصلح الذي عرف بصلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) وفيه وضع الصليبيون أيديهم على المدن الساحلية (من عكا إلى يافا) كما امتلك المسلمون الأراضي الداخلية، وسمح للمسيحيين بالحج إلى بيت المقدس^(٢). ورحل ريتشارد بعد ذلك إلى بلاده، كما مات صلاح الدين بمدينة دمشق في أوائل السنة التالية أي في صفر سنة ٥٨٩ هـ (فبراير سنة ١١٩٣ م).

كانت الدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين موحدة الأركان يخشاها المسلمون كما يرهبها المسيحيون، ولكن ما أن توفي صلاح الدين حتى أصبحت هذه الدولة المتناسكة الموحدة تتهددها عوامل التفكك والانحلال، لأسباب منها ما هو كامن في قلب الدولة، ومنها ما يرجع إلى عوامل خارجية. وقد اجتمعت هذه العوامل الخارجية والداخلية على تركة صلاح الدين فأضعفتها، وجعلتها لقمة سهلة للطامعين. أما العوامل الداخلية فكانت من ناحية الأيوبيين أنفسهم، إذ أراد أبناؤه وأخواته أن يقتسموا هذه الثروة، وأصبح كل يريد نصيبا فيها حسب نظام الوراثة في الشريعة الإسلامية، على أن وريثاً واحداً من هؤلاء لم يرث عن صلاح الدين عبقريته^(٣). ومهما يكن من شيء فإنه لما مات صلاح الدين، كان ابنه الأفضل حاكماً على دمشق وأواسط سوريا، وابنه العزيز في مصر، وكان الظاهر يحكم في حلب، كما كان أبناء أخيه يحكمون حماه وحمص وبلبك، وأخوه

(١) Muir : The Caliphate, pp. 588-589.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٤٠ - ٤١ .

(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 652.

العادل بلاد ما بين النهرين وديار بكر . على أنه بالرغم من انقسام هذه البلاد بين أفراد الأسرة الأيوبية ، فإن النزاع لم ينقطع بين هؤلاء الأخوة . وما يدل على ذلك أن العزيز حاصر أخاه في دمشق سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ، ورغم أن السلام ساد بين الأخوين بعد أن تدخل العادل والظاهر ^(١) ، إلا أن النزاع لم يلبث أن قام بينهما في العام التالي ، حيث طارد الأفضل أخاه حتى مدينة بلبيس ، ثم عقد الصلح بعد أن تدخل العادل أيضا ^(٢) .

رأى العادل ذلك كله ، ورأى أن هذا الانقسام لا بد أن يطوح بالدولة الأيوبية ، فعزم على توحيدها من جديد ، كما عول على تحسين حالة البلاد من الناحية المالية ولاسيما وأن صلاح الدين ترك خزانة الدولة خاوية ^(٣) . ولقد رأى العادل أيضا أن ذلك التقسيم الذي انقسمت إليه دولة صلاح الدين لم يكن تقسيما عادلا ، فقد استأثر البعض بأجزاء هامة ، على حين لم يترك للغالبية سوى مدينة أو ما يعادلها لكل فرد ^(٤) . لذلك عول على أن يوحد هذه البلاد جميعا تحت إمرة رجل واحد وأن يخضع تركة صلاح الدين لشخصية واحدة ، ولم يكن ذلك الرجل وتلك الشخصية سوى العادل نفسه .

ولما رأى العادل أن مصر هي مركز هذه الدولة ، فقد أرادها لنفسه ليتخذ منها بعد ذلك مركزا يحاول منه فرض سلطانه على سائر أجزاء الدولة الأيوبية . ولتحقيق هذه السياسة ، سار في طريق تحف به المؤامرات والفتن والمكائد مع ما عرف عنه من مكر ودهاء ، فلم يعدم وسيلة إلا اتخذها مادامت توصله إلى مأربه . من ذلك أنه أخذ يوقع بين الأخوة ويستعين بالواحد ضد الآخر حتى إذا ما حل بهم الضعف كانت له الغلبة في النهاية ، فاستعان بالعزيز ضد الأفضل إلى أن تمكن من طرد الأفضل من دمشق . كذلك أخذ يوقع

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٥١ .

(٢) المرجع نفسه ج ١٢ ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) Marcel : Egypt depuis la Conquête des Arabes, p. 145.

ibid., p. 145. (٤)



منظر معركة جيوش المغول في مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين يرجع إلى نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ومحموظ في المكتبة الأهلية ببغداد

(عن موسوعة الفن الفارسي. A Survey of Persian Art)

الفرقة بين جيوش العزيز ، بل استطاع أن يصرف جيوشه عنه ^(١) . وهكذا كان العادل لا يعدم وسيلة في سبيل الوصول إلى مآربه ، غير أن مشاكه لم تنته تماماً بوفاة العزيز سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، إذ لم يكبد أخوه الأفضل ، وهو الطريد في بلاد ما بين النهرين ، يسمع بذلك النبأ حتى أسرع إلى القاهرة حيث اتفق مع أخيه المنصور (٥٩٥ - ٥٩٦ هـ = ١١٩٨ - ١١٩٩ م) على إخضاع دمشق ، وقد ظاهرهما في ذلك الظاهر صاحب حلب ومحمد ابن شيركوه صاحب حمص لكراهيتهما للعادل ^(٢) . ولكن العادل استطاع أن يقضى على هذه القوات مجتمعة سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) ^(٣) ، وفرض العادل بعد ذلك سيادته على مصر (٥٩٦ - ٦١٥ هـ = ١١٩٩ - ١٢١٨ م) إلى جانب أملاكه في البلاد الشامية ، فأصبح بذلك سيداً على معظم أملاك صلاح الدين . وقد أدى العادل للعالم الإسلامي بتوحيد هذه الأملاك أجل الخدمات ، فرغم ما ارتكبه من الدسائس والمؤامرات ، فإنه استطاع أن ينقذ الدولة الأيوبية من الانقسام ، ولولا العادل لحل الدولة الأيوبية ما حل بدولة السلاجقة في أواخر أيامها ، بعد أن انقسمت بين الأتابكة كما رأينا . وليس معنى ذلك أن العادل وخلفاءه ^(٤) كانوا يهيمنون على كل ما تركه

(١) حدث في أثناء خروج العزيز إلى دمشق سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ، أن فضل الأمراء الصلاحية (نسبة إلى صلاح الدين) على الأسدية (نسبة إلى أسد الدين شيركوه) ، لذلك أخذ العادل يوقع الوحشة بين الطائفتين حتى جعل الأسدية يتفرون من العزيز ، وذلك بأن كتب إلى العزيز سراً ليبعد الأسدية عنه حتى يأمن شرهم ، كما كاتب الأسدية ليتخذوا الحيلة من العزيز ويستميلهم إليه . وقد نجح العادل في دسائسه ، إذ فرق بين الأسدية وبين العزيز ، فاتفقوا على مفارقتها ، وعقدوا النية على مكانة من هناك من الجند في القاهرة يستميلونهم إليهم ويحولوا بين العزيز وبين القاهرة ، إذا ما عاد إليها ، ومن ثم يمكن القضاء عليه .

انظر المقرئى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٦٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ج ١٢ ص ٦٨ .

(٤) هم الكامل : ٦١٥ - ٦٣٥ هـ (١٢١٨ - ١٢٣٨ م) والعادل الثانى : ٦٣٥ -

٦٣٧ هـ (١٢٣٨ - ١٢٤٠ م) والصلاح أيوب : ٦٣٧ - ٦٤٧ هـ (١٢٤٠ - ١٢٤٩ م)

١٢٤٩ م) والمعلم توران شاه : ٦٤٧ - ٦٤٨ هـ (١٢٤٩ - ١٢٥٠ م) . انظر كتاب

زامبور Zambour ، ص ٩٧ .

صلاح الدين من أملاك إذ أن الدولة ظلت منقسمة إلى سبعة أقسام رئيسية^(١)، استقل بعضها استقلالاً تاماً عن مصر ، وخضع البعض الآخر خضوعاً اسمياً . وكثيراً ما كان يحدث النزاع بين حكام هذه البلاد فيستعين الواحد منهم بالآخر على عدو ثالث^(٢) ، بل وصل الأمر إلى استعانة بعضهم بالصليبيين على أعدائهم من الأيوبيين^(٣) .

وكان من أثر ذلك أن سقطت الدولة الأيوبية وولاياتها الإسلامية في بلاد الشام سقوطاً بطيئاً ، ولم يعد الأيوبيون يقاومون الصليبيين الذين لم يجدوا في الشرق دولة موحدة تقف أمامهم كما حدث في عهد صلاح الدين . أما عن الصليبيين في بلاد الشام في الفترة التي أعقبت وفاة صلاح الدين ، فقد كان من المنتظر أن ينتهزوا فرصة الانقسام الذي حل بالدولة الأيوبية ليستعيدوا نشاطهم القديم ويحاولوا غسل الإهانة التي لحقت بهم على يد صلاح الدين . على أن الصليبيين في بلاد الشام لم يكونوا في حالة تسمح لهم بانتهاز فرصة الضعف الذي أصاب الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين ، فقد كانوا هم أنفسهم في حالة ضعف شديد ، إذ كان هنري شامبين

(١) هي مصر ودمشق وحلب وبلاد ما بين النهرين وحماة وحسن وبلاد العرب . وكانت دمشق منذ وفاة المعادل تخضع خضوعاً اسمياً لمصر ، وكذلك كان الحال بالنسبة لبلاد ما بين النهرين إذ كان حكامها من أبناء المعادل . أما حلب وحماة وحسن وبلاد العرب فكانت مستقلة تماماً . ونلاحظ أن كل هذه البلاد ، ماعدا حسن ، كانت خاضعة لسلالة أيوب الحسنة وهم صلاح الدين والمعادل وشاهنشاه وتوران شاه وطفنكين ، أما حسن فكانت خاضعة لسلالة شبركوه أخى صلاح الدين . انظر الجدول المواضع لصفحة ٢١٢ من كتاب تاريخ مصر في العصور الوسطى تأليف ستانلي لينبول .

(٢) من أمثلة هذا النزاع ، ما حدث سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) بين الكامل صاحب مصر والأشرف صاحب دمشق . ولما مات الأخير سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) سار الكامل إلى دمشق ليبيط نفوذه عليها ، فدافع عنها الصالح إسماعيل وساعده في ذلك أمراء حلب وحسن الذين لم يكونوا من سلالة المعادل .

(٣) تعهد الإمبراطور فردريك للملك الكامل في المعاهدة التي عقدها معه سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) أن يدافع عنه ضد أعدائه الذين كان معظمهم من الأيوبيين . انظر كتاب

Henry of Champagne ملك بيت المقدس رجلاً ضعيفاً ، لذلك لم يجرؤ على المخاطرة بحيوشه واكتفى بحكم البلاد الساحلية ، كما كان أمير أرمينية يهدد باستمرار إمارتي أنطاكية وطرابلس فشلهما تماماً عن القيام بأى عمل عدائى ضد المسلمين^(١) . وإذا عرفنا أن الصليبيين كانوا يعتمدون على ما يرد إليهم من مؤن وإمدادات تصل إليهم من أوروبا ، وكانت هذه الإمدادات قد انقطعت عنهم ، إذا علمنا ذلك أدركنا مدى ما أصاب مركزهم من حرج . أضف إلى ذلك أن النزاع كان كثيراً ما يحدث بين أهل جنوة والبندقية ، وكانت الغيرة والحسد توغر صدور بعضهم ضد بعض . كل ذلك دفع هؤلاء إلى الاستعانة أحياناً بالمسلمين على بعضهم البعض^(٢) . وعلى هذا الأساس إذا كان هناك من خطر صليبي فلا بد أن يأتي هذا الخطر من أوروبا . لذلك نجد الإمبراطور هنرى السادس يلجئ دعوة البابا للحرب الصليبية المعروفة بالرابعة سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٥ م) . وإذا كانت هذه الحملة قد وصلت إلى عكا سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٦ م) ، فقد كان نصيبها الفشل بسبب وفاة الإمبراطور فى السنة التالية^(٣) .

ثم جاءت الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة ، نتيجة لنداء البابا ونداءات إمبراطور القسطنطينية المتكررة ، فاجب الدعوة ملوك هنغاريا والنمسا وقبرص وأرمينية ، كما اشترك فيها عدد من الشبان المتحمسين من فرنسا وألمانيا ، ولذا سميت حملاتهم بحملات الأبطال . وقد أسر كثير من هؤلاء الشبان وبيعوا فى أسواق النخاسة فى البلدان المختلفة ومن بينها مصر^(٤) . وتجمعت القوات الباقية عند عكا سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ، وبعد عدة هجمات

(١) Lane - Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 216 - 217.

(٢) Hitti : History of the Arabs, p. 653.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٤) Barker : The Crusades, p. 75.

فاشلة على المعسكر الإسلامى ، وجد الصليبيون ألا سبيل إلى القضاء على المسلمين إلا بالاستيلاء على مصر قلب ، دولتهم^(١) .

وعلى الرغم من نزول قوات الصليبيين فى دمياط واستيلائهم عليها وتخرج مركز المسلمين بسبب وفاة العادل ، إلا أن هذه الحملة كان نصيبها الفشل أيضا لأسباب ترجع إلى الصليبيين أنفسهم ، إذ أنهم كانوا يجهلون مصر وطبيعة أرضها ، فاخترأوا طريق دمياط للوصول إلى القاهرة مع أن هذا الطريق كانت تحوطه شبكة من القنوات تعرقل سير العمليات الحربية. ولما كان الصليبيون قد اختاروا وقت الفيضان لزحفهم ، فقد انتهن المسلمون هذه الفرصة وحطموا سدود النيل وأغرقت الأراضى المحيطة بالصليبيين فلم يتمكنوا من التقدم أو التقهقر . وأما الطريق الطبيعى لغزو مصر ، فهو الطريق الشرقى الذى سلكه بنجاح كل من قميز والإسكندر وعمرو بن العاص وعمورى الأول . فلو أن الصليبيين سلكوا هذا الطريق لربما أمكنهم السيطرة على مصر . لذلك نجد الكامل يرغم الصليبيين سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) بمساعدة أخيه المعظم صاحب دمشق على عقد هدنة أمدها ثمانى سنوات وأن يتركوا السواحل المصرية . ومن الغريب أنه كان من بين شروط الصلح أن يكون لآى أوربى متوج الحق فى أن ينقض هذه الهدنة ، لذلك نجد الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وملك جنوب إيطاليا ينقض هذه الهدنة ، ويرحل إلى الشرق سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) فى حملته المعروفة بالحملة السادسة ، واستطاع هذا الإمبراطور الصغير أن يعقد مع المصريين معاهدة سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) ، سلم فيها هؤلاء بيت المقدس إلى الصليبيين على أن يكون لهم أيضا الطريقان الموصلان من يافا وعكا إلى بيت المقدس وهما ضروريان للحجاج من المسيحيين . وقد تعهد الصليبيون فى سبيل ذلك أن يساعدوا المسلمين ضد أعدائهم من المسلمين والمسيحيين على السواء وأن

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٢ ص ١٤٧-١٤٨ و Lane - Poole : A Hist. of Egypt, p. 219.

يحولوا دون وصول الإمدادات الصليبية إلى بلاد الشام ، ويتركوا للمسلمين المسجد الأقصى بيت المقدس^(١) . ولم يكن الدافع الذى حدا بالمسلمين إلى تسليم بيت المقدس راجعا إلى ضعفهم أمام الصليبيين ، بل كان نتيجة للنزاع الذى كان قائما بين الكامل والمعظم ، ورغبة ثانيهما فى اعتلاء عرش الدولة الأيوبية بعد إبعاد الأول عنها ، مما حمل الكامل على تفضيل الاتفاق مع الصليبيين لمعاونته ضد جميع المسلمين من أعدائه . ثم رحل الإمبراطور فردريك الثانى بعد ذلك إلى إيطاليا^(٢) .

ولعله من المناسب هنا أن نذكر أن بيت المقدس ظلت فى أيدي الصليبيين حتى سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) أى إلى أن استعادها الصالح أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ = ١٢٤٠ — ١٢٤٩ م) بمساعدة جماعة من الخوارزميين كانوا قد رحلوا إلى غرب آسيا بعد أن غزا جنكيزخان بلادهم ، فاستغلهم الصالح أيوب للاستيلاء على هذه المدينة .



عما تقدم نرى أن مصر وبلاد الشام ، كانت فى الفترة السابقة للغزو المغولى للعالم الإسلامى ، بل وفى أثناء هذا الغزو فى حالة ضعف شديد نتيجة لانحلال هذا الجزء من العالم الإسلامى وانقسام زعمائه على أنفسهم ، رغم هذه الفترات القصيرة المتقطعة التى كانت تبدو فيها مصر ومعها بلاد الشام متماسكة . وقد زاد فى هذا الانحلال ما أحدثه الصليبيون من تأثير سياسى

(١) Lane - Poole : A History of Egypt in the Middle Ages. pp. 225-228.

(٢) نلاحظ أن النزاع الذى حدث بين الكامل والمعظم ، كان قبل عىء الحملة الصليبية المعروفة بالسادسة إلى بلاد الشرق ، وأن الكامل طالب بمسونة الإمبراطور فردريك وعرض عليه بيت المقدس قبل أن يرحل إلى الشرق باعتباره حاكما على المسلمين فى صقلية ، بل وتبذلت الهدايا بين الطرفين عندما جاء أسقف بلرمو إلى القاهرة . وعلى الرغم من أن المعظم توفى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) ، إلا أن الإمبراطور عندما جاء إلى الشرق فى السنة التالية استطاع بدهائه وحنكته السياسية أن يتخذ من اتفاقاته السابقة مع الكامل أساسا لعقد معاهدة سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) .

واقصادى فى هذا المسرح التاريخى وجعله يشارك بلاد العراق وفارس فيها أصابهما من انحلال نتيجة للعوامل التى ذكرناها ، فلم يستطع حكام مصر والبلاد الشامية أن يوحدا كلمتهم بحيث يستطيعون أن يقفوا إلى جانب الخوارزميين ثم إلى جانب الخلافة العباسية فى بغداد عندما هم المغول باجتياح هاتين القوتين الواحدة تلو الأخرى .

وعلى هذا الأساس لم يستطع هذا العالم الإسلامى المتفكك أن يتحد ويواجه أعداءه كتلة واحدة ، فكانت النتيجة أن اقتطع الصليبيون ما استطاعوا أن يقتطعوه من الأراضى الإسلامية فى بلاد الشام ، ثم أتى المغول من أقصى الشرق فخطموا حضارة تعب الأولون فى تكوينها، وقتلوا وسبوا وأحرقوا دون أن يعوقهم عائق أو يمنعهم مانع .

خاتمة

حول الغزو المغولي

الهجرات القبلية من شمال شرق آسيا ، ظهور جنكيزخان . قوانين المغول في عهد جنكيزخان . غزو جنكيزخان للبلاد الإسلامية . نظام المغول الحربى . ضعف الدولة الخوارزمية . الخوارزميون بعد الغزو المغولى . أثر زوال الدولة الخوارزمية فى اتجاه المغول إلى أملاك الخلافة . حملة هولاكو والقضاء على الخلافة العباسية .

obeykandl.com



صورة تمثل فرسان جنكيز خان بعد غارة موقعة في آسيا الوسطى ، ترجع في الغالب إلى سنة ١١٦٤ هـ (١٧٥٠م)
(عن كتاب: Genghis-Khan. Harol Lamb)

خاتمة

حول الغزو المغولي

نعلم من دراستنا للتاريخ العام، أن الأقاليم الشمالية الشرقية من القارذالآسيوية كانت منذ فجر التاريخ المورد الذي انبعثت منه الهجرات القبلية المتعددة التي غزت أقاليم آسيا المختلفة، ونتج عن اندفاع بعضها صوب غرب آسيا هجرة كثير من القبائل إلى أوروبا، وكانت من العوامل الرئيسية التي أودت بالإمبراطورية الرومانية^(١). وقد زخرت هذه الجهات من القارة الآسيوية بالقبائل الرحل المتنقلة من مكان إلى مكان نتيجة لظروف البيئة، ومن أهمها قبائل المغول التي نشأت في الهضبة المعروفة بهضبة منغوليا شمال صحراء جوبي. وقد أملت ظروف البيئة في هذه الجهات على القبائل المغولية أن تعيش عيشة رعوية بحثة قوامها التنقل من مكان إلى مكان سعياً وراء الرزق القليل من العشب؛ وعلى الرغم من تعدد القبائل المتنقلة في هذه الجهات، فإن كل قبيلة من القبائل كانت تكون وحدة قائمة بذاتها أساسها وحدة الجنس واللغة^(٢). على أن هذه القبائل جميعها كانت في جملتها تعيش عيشة بربرية بحثة، وتتوق إلى تعرف كنه الحضارات المجاورة لها ولا سيما الحضارة الصينية في الجنوب. لذا لم تتردد في الإغارة عليها بين وقت وآخر منتهزة فرصة ضعف قد يحل بهذه البلاد، وكان هدفها سلب ما يمكن الوصول إليه، ويرجع سبب بناء سور الصين العظيم الذي بناه أهل الجنوب في الفترات الأولى من التاريخ، إلى رغبتهم في دفع غارات القبائل الشمالية المتبربرة^(٣).

(١) Hart : Mongol Campaigns, p. 705. (Ency. Brit. vol. xv.)

(٢) Grenard : Gengis - Khan, p. 8.

(٣) Little : The Far East, p. 184.

وكانت قبائل المغول في العصر الذي نحن بصدده تعيش في الأقاليم الواقعة بين بحيرة بيكال في الغرب وجبال كمنجان على حدود منشوريا في الشرق . على أن هذه الفوضى الاجتماعية السائدة في هذه الأقاليم كانت في حاجة ملحة إلى الإصلاح على يد زعيم يخرج من بين هذه القبائل ، فيتمكن من توحيدها ثم النهوض بها . وكانت هذه الشخصية هي شخصية تموجين^(١) ، الذي استطاع بدهائه أن يجمع شمل القبائل المتفرقة الساكنة في شمال بلاد الصين ، وانتهى الأمر بانتخابه خاقاناً عليها سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م)^(٢) . وبعد أن تم له ما أراد ، أبدل اسمه باسم جنكيزخان^(٣) أي أعظم الحكام The Greatest of Rulers ، واختار مدينة «قره قورم» حاضرة للملكة .

وبعد أن استوى جنكيزخان على العرش الذي أسسه لنفسه ، رسم سياسة واضحة الأهداف ترمي إلى التوسع في الجنوب بقصد اقتطاع ما يمكن اقتطاعه من البلاد الصينية ، والتوسع في الغرب بقصد إخضاع بعض القبائل التي فرت من وجهه وأهمها قبائل الخِطَا التي سبق الكلام عنها^(٤) ، ثم وضع لشعبه دستوراً اجتماعياً متين البنيان ، ودستوراً حربياً لا يقل عنه قوة ،

(١) يكتب في الفارسية والتركية «تموجين» .

(٢) لفظ «خاقان» لقب أطلقه المغول على الرئيس الأعلى لدولتهم ، ومعناه رئيس الرؤساء أو أعظم الحكام . أما لقب «خان» فكانوا يطلقونه على رؤسائهم الذين يتولون جزءاً من الإمبراطورية المغولية . وقد استعمل المغول لقب «خان» أيضاً بمعنى خاقان ، وربما كان ذلك من باب الرغبة في الاختصار . ومما هو جدير بالذكر أن الفرق بين «خان» و «خاقان» يشبه الفرق بين كلتي «سلطان» و «ملك» ، فالسلطان هو الملك الأعظم كالسلطان صلاح الدين الأيوبي ، أما ملك فهو أحد ولاد السلطان من أبناء بيته كمالك العادل حينما كان صاحب دمشق من قبل أخيه صلاح الدين الأيوبي . وقد وجد هذا الفرق أيضاً عند الفرس ، فإن لقب «شاهنشاه» ومعناه «ملك الملوك» يتميز عن لقب «شاه» فقط وهو «الملك الصغير» .

انظر المفريزي : السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٣٠٧ حاشية ٤ .

(٣) النطق الأصلي الصحيح لهذا الاسم هو ما يتفق مع الكتابة الفارسية والتركية : جنكيزخان .

(٤) راجع صفحة ٤٦ حاشية ٢ .

وتكون أحكام هذا وذاك، القانون المعروف باليساق^(١) . وهو قانون مختصر بسيط ولكنه حازم صارم قوامه احترام المجتمع المغولي واحترام الصغير لقدر الكبير ، ويشتمل هذا القانون على الأسس التي يقوم عليها نظام

(١) يقول المقریزی فی کتابه الخطط عن قانون الیساق ما یلی : « إن جنکیزخان القائم بدولة التتر فی بلاد المشرق ، قرر قواعد وعقوبات أنبثها فی کتاب سماه یاسة ، ومن الناس من یسمیه یسق والأصل فی اسمه یاسة . ولما تم وضعه کتب ذلك نقشا فی صفائح القولاد وجعله شریعة لقومه فالزموه بعده حتی قطع الله دابرهم . . . وأخبرنی العبد الصالح الداعی إلى الله تعالى أبو هاشم أحمد بن البرهان أنه رأى نسخة من الیاسة بحزارة المدرسة المستنصرية ببغداد. ومن جملة ما شرعه جنکیزخان فی الیاسة أن من زنی قتل ولم یفرق بین المحصن وغير المحصن ، ومن لاط قتل ، ومن بال فی الماء أو علی الرماد قتل ، ومن أعطی بضاعة تفسد فیها فإنه یقتل بعد الثالثة ، ومن أطعم أسیر قوم أو کساه بغير إذنه قتل ، ومن وجد عبدا هاربا أو أسیرا قد هرب ولم یرده علی من کان فی یده قتل ، وأن الحيوان تسکتف قوائمه ویشق بطنه ویمرس إلى أن یموت ثم یؤکل لحمه ، وأن من ذبح حیوانا کذبیجة المسلمین ذبح ، ومن وقع حمله أو قوسه أو شیء من متاعه وهو یکر أو یفر فی حالة القتال وکان وراءه أحد فإنه ینزل ویناول صاحبه ما سقط منه فإن لم ینزل ولم یناوله قتل ، وشرط أن لا یكون علی أحد من ولده علی بن أبی طالب رضی الله عنه مؤنة ولا کلفة وألا یكون علی أحد من الفقراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والموذنین ومغسلي الأموات کلفة ولا مؤنة ، وشرط تعظیم جمیع المثل من غیر تعصب لمة علی أخرى ، وجعل ذلك كله قرابة إلى الله تعالى ، وألزم قومه أن لا يأکل أحد من أحد حتی يأکل المناول منه أولا ولو أنه أمیر ومن یناوله أسیر، ولزمهم أن لا یتخصص أحد بأكل شیء وبقیه یراه بل یشرکه معه فی أكله ، وألزمهم ألا یتیمز أحد منهم بالشبع علی أصحابه . . . وإن مر بقوم وهم بأکلون فله أن ینزل وبأكل معهم من غیر إذنه ولبس لأحد منهم ، وألزمهم أن لا یدخل أحد یده فی الماء ولكنه ینناول الماء بشیء یغترفه به ، ومنهم من غسل ثیابهم بل یلبسونها حتی تبلی ، ومنع أن یقال لشیء إنه نجس ، وقال جمیع الأشياء طاهرة ولا یفرق بین طاهر ونجس ، وألزمهم ألا یتعصبوا لشیء من المذاهب ، ومنهم من تفخیم الألفاظ ووضع الألقاب وإنما یخاطب السلطان ومن دونه ویدعی باسمه فقط . . . وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أراد الخروج إلى القتال وأنه یمرض کل ما سافر به عسكره وینظر حتی الإبرة والخط فن وجدده قد قصر فی شیء مما یحتاج إلیه عند عرضه إلیاه عاقبه . . . وألزم نساء العساكر بالقیام بما علی الرجال من السخر والكاف فی مدة غیبتهم فی القتال . . . وألزمهم عند رأس کل سنة بعرض سائر بناتهم الأبکار علی السلطان لیختار منهن لنفسه وأولاده . ورب لعساكره أمراء ألوف وأمراء مئین وأمراء عشاوات . وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعت إلیه الملك أخس من عنده حتی یعاقبه فإنه یلقی نفسه إلى الأرض بین یدی الرسول وهو ذلیل خاضع حتی یمضی فیسه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه ، وألزم السلطان بإقامة البرید حتی یعرف أخبار مملکته بسرعة » .

انظر المقریزی : الخطط ، ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

المغول الحربى ، الذى يقوم على الطاعة العمياء ، واحترام الصغير من يعلوه
فى الرتبة العسكرية ، وقد سن جنكيزخان عقوبات مختلفة رادعة لمن يقصر
فى أداء واجباته من الضباط والجنود . وبهذين النظامين الحربى والاجتماعى
واصل جنكيزخان سياسته ، فتمكن من إخضاع بعض الأقاليم الشمالية
من بلاد الصين ، وعند ما توجه للانتقام من أعدائه الذين فروا من وجهه
واعتصموا بالأقاليم الغربية ، اصطدم بالقوى الإسلامية ولاسيما الدولة
الخوارزمية التى كانت قد وصلت إلى أقصى اتساعها فى عهد علاء الدين محمد
خوارزم شاه ، ثم تطورت الحوادث بسرعة وتمكن المغول من اكتساح
أراضى الدولة الإسلامية .

• • •

وقد توالى الغزوات المغولية على أقاليم الشرق الإسلامى منذ بداية
القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، وكان غزو جنكيزخان
أول هذه الغزوات ، فقد استطاع فى سهولة ويسر أن يكتسح الدولة
الخوارزمية التى كانت قد بلغت أقصى اتساع لها فى عهد علاء الدين محمد
خوارزم شاه كما ذكرنا ، وتمكن من إخضاع أراضيه وتخريب مدنها والتشكيل
بسلطانها فى مدة لا تزيد عن أربع سنوات ، إذ بلغ جنكيزخان حدود الدولة
الخوارزمية سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ، وأتم إخضاع هذه الدولة وشرع فى
العودة إلى منغوليا سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) .

وكان غزو جنكيزخان للشرق الإسلامى عنيفاً كل العنف ، فقد خرب
المغول كل ما صادفهم فى البلاد التى وطئها أقدامهم ، ونكلوا بالمسلمين ،
وتفنونوا فى تعذيبهم بشتى الوسائل والأساليب . ويعتبر ابن الأثير عمدة
مؤرخى المسلمين الذين عاصروا حوادث غزو جنكيزخان ، وتم كتاباته عن
جسامة الخطب ، كما تم أيضاً عما كان يعانيه المسلمون من آلام نفسية ،
فضلاً عما تصوره من ضعف فى حالتهم المعنوية ، وكاد ابن الأثير نفسه
يقلع عن سرد حوادث هذا الغزو ، كما يتبين من هذه العبارة :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً ،
« لها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن ،
« الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ، ومن ،
« الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فيأليت أمى لم تلدنى وبأ ليتنى مت ،
« قبل هذا وكنت نسياً منسياً . إلا أنى حتى جماعة من الأصدقاء ،
« على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى ،
« نفعاً . . . هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة ،
« الكبرى . . . فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى ،
« آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ؛ فإن التواريخ لم ،
« تتضمن ما يقاربها ولا ما يبدانها . . . وهؤلاء لم يبقوا على ،
« أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون ،
« الحوامل وقتلوا الأجنة ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ،
« ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، لهذه الحادثة التى استطار شررها ،
« وعم ضررها ، وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح^(١) . .
« وقد قال السيوطى عن غزو جنشكيز خان للشرق الإسلامى ما يلى :
« هو حديث يأكل الأحاديث ، وخبر بطوى الأخبار ،
« وتاريخ ينسى التواريخ ، ونازلة تصغر كل نازلة ، وفادحة تطبق ،
« الأرض وتملؤها ما بين الطول والعرض^(٢) . »

وقد تعرض بعض الكتاب والمؤرخين من الأوربيين لحوادث الغزو
المغولى ووصفوا ما أصاب الشرق الإسلامى فى أثنائه . فشبه هارولد لام
Harold Lamb هذه القوة البدائية بالريح العاصفة والزلازل العالمى ، إذ
استطاعت هذه القوة البشرية أن تصل إلى حدود آسيا الشرقية والغربية

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٠ .

وأن تعبر سفوحها الوعرة بعقل لا يفترق عن عقل الحيوان الذى لا يكثر
لتعذيب البشر، الشره لكل ما هو جديد براق والذى يندفع اندفاع الأطفال
الذين لا يدركون معنى المسؤولية^(١) . كذلك يرجع سيكس Sykes^(٢) حب
المغول للتخريب إلى طبيعتهم البدائية ، بحيث كانوا إذا احتكوا ببلد من
البلدان المتحضرة اندفعوا إلى تدمير حضارته بسبب خوفهم منها ، وعلى هذا
الأساس نرى المغول وقد احتكوا ببلاد الصين ولمسوا طرفا من حضارتها
يندفعون إلى كراهية المخلوقات المجاورة لهم فهاجموها ونكلوا بالرجال والنساء
والأطفال ، كما أحرقوا المدن والقرى ولم يتركوا وراءهم بعد الغزو إلا بلدانا
مخرقة مكشوفة بجثث القتلى . وعن طريق هذا التعليل ، نستطيع أن ندرك
السبب الذى حدا بالمغول إلى تخريب المدن الإسلامية العامرة بسكانها
ومبانيها الفخمة التى تفنن الصناع المسلمون فى تزيينها .

بهذه الروح البربرية الغاشمة ، سار جنكيزخان لغزو البلاد الإسلامية
فبلغها سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) . ومن الخطأ أن نعتقد أنه سار إلى
هذه البلاد على غير خطة رسمها لنفسه ، بل الواقع أن خطته ونظمه
الحرية كانت من الأمور التى تسترعى نظر الباحثين . فقد أجهز أولا على
كل بلاد ما وراء النهر ثم وزع أمر الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية
المختلفة بين أبنائه وقواده ، فبينما توجه جيش إلى إقليم خوارزم ، توجه
جيش آخر إلى خراسان ، كما توجه قواد آخرون إلى أقاليم العراق العجمى
وأذربيجان وجورجيا يعيشون فيها فسادا ، وفى ذلك الوقت كان جنكيزخان
نفسه يتم إذلال المدن الواقعة فى أعالي نهرى سيحون وجيجون ويمهد
للاستيلاء على إقليم غزنة^(٣) .

وقد أحكم جنكيزخان تنظيم جيوشه ، إذ قسمها إلى فرق كبيرة تتكون
كل منها من عشرة آلاف رجل ، تنقسم بدورها إلى فرق من ألف ثم فرق

(١) H. Lamb : The Crusades ; The Flame of Islam, p. 337.

(٢) Sykes : A History of Persia, pp. 55 - 56.

(٣) انظر كتاب « الدولة الخوارزمية والمغول » المؤلف ، ص ١١٧ .

من مائة و فرق من عشرة ، وعلى رأس كل فرقة من هذه الفرق الكبيرة والصغيرة قائد يتصرف في فرقته حسب ما يراه ، على أن هؤلاء القواد جميعا كانوا يرجعون في النهاية إلى جنكيز خان^(١) . وقد جعل جنكيز خان أساس الترقية من رتبة إلى رتبة أعلى منها الكفاءة وحدها دون أى اعتبار آخر .

ولم ينس المغول أن ينظموا جيوشهم تنظيما محكما أثناء القتال فقسموها إلى وسط وجناحين أيمن وأيسر ، فتنحرك هذه الفصائل في أثناء المواقع الحربية وتحيط بالعدو كلما دعت الخطة الحربية إلى ذلك^(٢) . وكانت قوات الوسط تتكون من فرق ثقيلة أمامية وأخرى خفيفة خلفية وكانت الأخيرة مسلحة بأدوات الحرب الخفيفة ، ليتمكنها التنقل من مكان إلى آخر ومناورة العدو ، فيسهل بذلك على الفرق الثقيلة الأمامية التثكيل به .

وليس هنا مجال التحدث عن كل ما يتعلق بفن الحرب عند المغول ، ولكن لا يفوتنا أن نذكر أن أسلحتهم الحربية كانت ولا تزال من الأمور التي يقف عندها الباحثون ، فقد كانوا يستعملون خلاف القوس والنبش والسيوف والمجانيق ، آلات لقذف الرماح على الأعداء Machines à lancer des javelots وهي تستعمل في قذف السهام بكثرة ولمسافات بعيدة على الأعداء ، كما كانوا يستعملون آلات مشابهة لقذف اللهب Machines à lancer des pots de naphits تساعد على إشعال الحرائق في المدن المحاصرة^(٣) .

إذا تركنا جانب المغول ، وبحسنا العوامل الكامنة في الشرق الإسلامى والتي ساعدت المغول على اكتساحه ، نرى أن من هذه العوامل ما هو عام ومنها ما هو خاص ، وأقصد بالعام اضطراب حال الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى ، فقد كانت عوامل الانقسام تهدده من كل جانب كما رأينا حتى أصبحت هذه البلاد مفككة الأوصال تتنازعها أيدي المغتصبين في داخل

Abulgasi : Histoire Géaéologique des Tatars, pp. 348- 9. (١)

Vladimirtsov : The Life of Chingis-Khan, p. 70. (٢)

Hart : Mongol Campaigns, pp. 706-707. (Ency. Brit. vol. xv.) (٣)

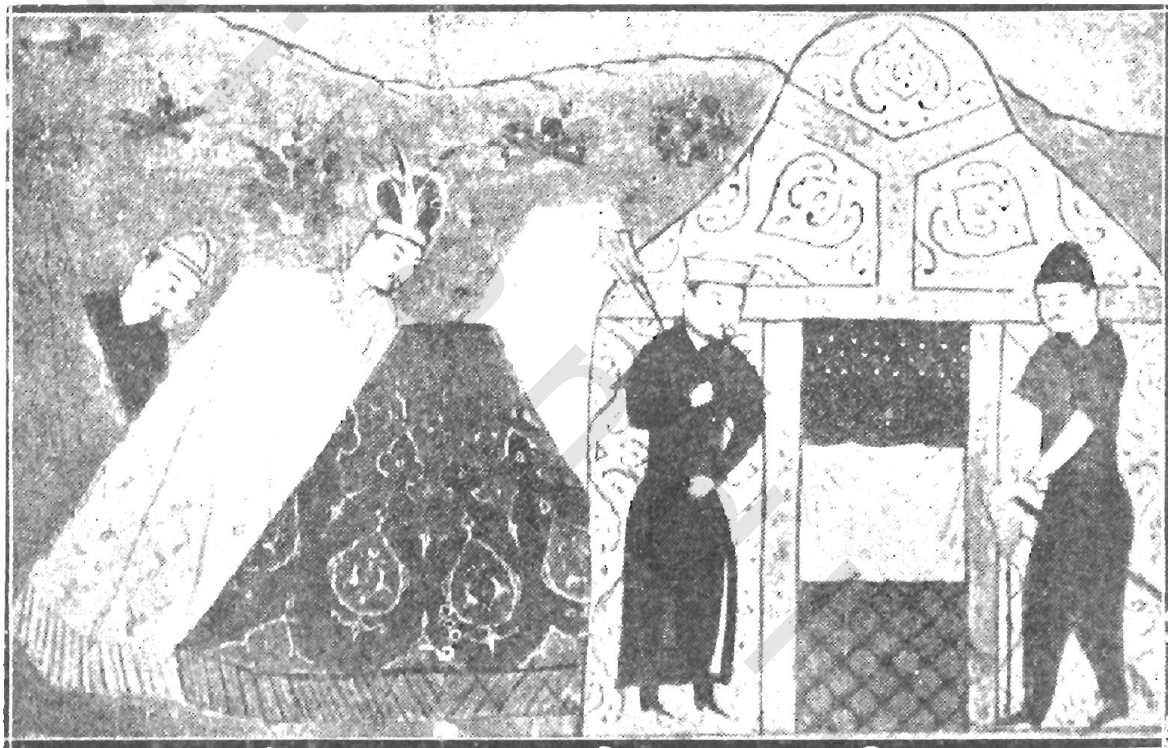
D'ohsson : Histoire des Mongols, tom. i, p. 289 - 290.

الدولة الإسلامية وخارجها . أما العوامل الخاصة فتتجصر في اضطراب الحالة السياسية والاجتماعية في الدولة الخوارزمية التي كانت أكبر قوة إسلامية في ذلك الحين ، فقد واجه المغول دولة متسعة حقا ولكن عوامل الضعف والانحلال كانت تنخر في عظامها . فلم يكن سكان هذه الدولة متحدين إلا في العقيدة الدينية ، وعلى الرغم من ذلك كانت المذاهب الإسلامية منبع عداوة مستمرة بين المسلمين أنفسهم . كذلك كان سكان هذه الدولة خليطا من عناصر متباينة ، فكانوا يتألفون من الفرس والعرب والآثراك ، واعتمد الخوارزميون في تكوين جيشهم على العنصر التركي وحده مما نتج عنه تدمير العناصر الأخرى في الدولة . وكان لرباط المصاهرة بين سلاطين الدولة الخوارزمية وبين القبائل الساكنة في السهول الشمالية أثره في هجرة كثير من أفراد هذه القبائل إلى أراضي الدولة الخوارزمية ، وانخرط كثيرون من أفراد هذه القبائل في وظائف هذه الدولة ووصل بعضهم إلى أعلى المناصب وأرقاها . وقد تضاملت قوة الخوارزميين أمام هذه الأقلية الأرستقراطية وشعر الأهليون وكذا السلطان بالحاجة إلى التحفظ في إشباع رغبات هؤلاء الجند ، فلما شعروا بنوايا السلطان نحوهم عمدوا إلى إرهاب الأهالي المسلمين ونهب سواكنهم في الطرقات ^(١) . وقد سلك هؤلاء سبلا متعددة في تعذيب الأهالي الأمنين ، فاضطرب الأمن في البلاد واضطربت معه الدولة من الناحيتين السياسية والاجتماعية ^(٢) .

وهناك أمر آخر له أهميته وخطورته ، وهو أن الكثيرين من رجال هذه القبائل عهد إليهم بحكم بعض المدن والأقاليم وكانوا مطاق اليد فيها ، فنظام الإقطاع الذي كان من أهم مظاهر العصر السلجوقي والذي ظهر بوضوح في حكم الآتابكة ، استمر في عهد الدولة الخوارزمية . ونلاحظ أن هؤلاء الآثراك على الرغم من استقلالهم ببعض أقاليم الدولة ، فإنهم لم يختلطوا

(١) D'ohsson : Histoire des Mongols, tom. i, pp. 196 - 8.

(٢) الديار بكري : تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ٣٦٨ .



رسم يمثّل جنسكيزخان واقفاً بباب خيمته الجميلة النقش ومن حولها خيام حاشيته
في مخطوط من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين

(عن كتاب Universal History of the World, vol. 5)

بالأهالي ولم يندمجوا معهم ، بل على العكس كان كل منهم نهب البلاد والاستيلاء على ما تصل إليه أيديهم من خيراتها . وكان الجيش الخوارزمي يتكون من هؤلاء الأتراك عندما هم المغول باجتياح الشرق الإسلامي عامة والدولة الخوارزمية خاصة ، ولاشك أن هؤلاء الأتراك لم يهتموا في كثير أو قليل بالدفاع عن هذه الدولة شأنهم في ذلك شأن كل جند مرتزقة يوكل إليهم أمر الدفاع عن شعب غريب عنهم . لذا انعدمت الثقة بين السلطان الخوارزمي ، علاء الدين محمد ، وبين كبار قواده في أثناء القتال ، إذ لم يكن هناك ما يحول دون تجمع عدد كبير من هؤلاء الأتراك تحت لواء قائد منهم ويشقون عصا الطاعة على السلطان الضعيف^(١) .

وهكذا نرى أن قوة الجيش المغولي وإحكام تنظيمه ، وما يقابل ذلك من اضطراب الدولة الخوارزمية وضعف جيشها ، كل ذلك كان له أثره في سرعة اكتساح المغول للبلاد الإسلامية وتخريبها حتى أصبحت هذه البلاد بعد رحيل جنكيزخان عنها أشبه ما تكون بصحراء جرداء ، إذ أباد المغول سكانها وخربوا مدنها ، كما نجح المغول أيضاً في التشكيل بالأسرة الخوارزمية الحاكمة فطاردوا السلطان علاء الدين محمد حتى مات ذليلاً معدماً في إحدى جزر بحر قزوين ، أما أبنائوه فمنهم من قتل ، ومنهم من اختبأ وتوارى عن الأعين ، ومنهم من ظل يحارب إلى أن استولى عليه اليأس ثم فر .

اشتبك جنكيزخان في حرب مع جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين محمد خوارزم شاه في موقعة حربية بالقرب من نهر السند هزم فيها واضطر إلى الفرار إلى بلاد الهند وظل فيها فترة من الزمن لا يلوى على شيء . وبعد أن عاد جنكيزخان إلى بلاده كما ذكرنا ، غادر جلال الدين منكبرتي بلاد الهند سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) عائداً إلى أقاليم الدولة الخوارزمية ، وبعد جهد

تمكن من أن يستقر على عرش أبيه . وقد قضى جلال الدين منكبرتي الفترة التي قضاها في حكم الدولة الخوارزمية إلى أن قتل سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) في صراع دائم مع الخلافة العباسية وحكام الأقاليم المجاورة ، كما حاول في هذه الفترة أن يوطد نفوذه في داخل دولته نفسها .

ظل حال الدولة المغولية في اضطراب بعد وفاة جنكيزخان سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) واستمر الحال كذلك حتى تجمع المغول وقوادهم وأمراؤهم المنتشرون في الأراضي الخاضعة لهم إلى عاصمتهم «قره قورم» لانتخاب الخاقان الجديد ، وقد انتخب أجتاي بن جنكيزخان سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) ، وكان بما أخذه على عاتقه إعادة غزو الأقاليم الإسلامية ، فجهز جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل وولى قيادته اثنين من أمهر قواده هما شيرماجون Churmagan وبيدشو Baidshu^(١) ، وقد سارت الجيوش المغولية إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية في سرعة فائقة بغية مطاردة ذلك السلطان الذي حاول أن يستعيد ملك آبائه . وقد تمكن المغول من هزيمة هزيمة منكرة في أعالي نهر دجلة اضطر بعدها إلى أن يلجأ إلى جبال كردستان^(٢) ، وهناك قتل على أيدي أحد الأكراد . وقد عادت الدولة الخوارزمية بعد هزيمة جلال الدين منكبرتي إلى حوزة المغول الذين ظلوا يحكمونها حكماً استبدادياً غايته جمع المال بالوسائل المشروعة وغير المشروعة ، رغم محاولاتهم أحياناً النهوض بهذه البلاد وإصلاح ما خربته أيديهم من قبل .

كانت البلاد الإسلامية التي أخضعها جنكيزخان وعلى رأسها الدولة الخوارزمية بمثابة حاجز منيع يحول بين الشعوب والقبائل المتبربرة في شرق نهر سيحون وبين أملاك الخلافة العباسية بوجه خاص وأقاليم غرب آسيا بوجه عام . وعلى هذا الأساس كان من السهل على المغول أن يغيروا على

(١) Howorth : History of the Mongols, part i, p. 130.

(٢) الذنوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص ٢٤٥ .

أقاليم آسيا الغربية بعد أن سقطت الدولة الخوارزمية في أيديهم . وقد عبر إدوارد براون E. Browne عن هذه الحقيقة بقوله : لم تكن الدولة الخوارزمية إلا قنطرة يجب على المغول أن يعبروها حتى يتمكنوا من القضاء على الدولة العباسية^(١) .

ولم تكن أهمية الدولة الخوارزمية بخافية على أمراء المسلمين في ذلك الوقت ، ومما يدل على ذلك أنه لما قتل جلال الدين منكبرتي كما ذكرنا ، ذهب بعض خواص الأشرف موسى صاحب دمشق يهنئونه بمقتل عدوه فقال لهم :

« تمنوني به وتفرحون ، سوف ترون غيبته ، والله لتكونن ،
« هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام . ما كان ،
« الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج^(٢) ،

وقد وضح خطر المغول على أملاك الخلافة العباسية في عهد مانجوخان (٦٤٦ - ٦٥٨ هـ = ١٢٤٨ - ١٢٥٩ م)^(٣) . فبعد أن تم انتخابه خاقاناً على المغول سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) ، جهز حملتين كبيرتين إحداهما بقيادة أخيه كوبلاي خان كان هدفها إتمام فتح بلاد الصين ، أما الثانية فقد أسند قيادتها إلى أخيه الأصغر هولاكو ، وكان الغرض منها القضاء على طائفة الإسماعيلية في فارس ثم الاستيلاء على بغداد حاضرة الخلافة العباسية^(٤) .

(١) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 436.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ص ٢٧٧ .

(٣) انتخب مانجوخان خاقاناً على المغول في مجلس السكورتاي الذي عقد لهذا الغرض في

التاسع من شهر ربيع الثاني سنة ٦٤٩ هـ (أول يوليو سنة ١٢٥١ م)

انظر Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie, p. 242.

Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 452.

وبلاحظ أن اسم مانجوخان يكتب في بعض المراجع العربية منكوخان وفي الفارسية منكوخان ومنكوقاآن .

(٤) Browne : A Literary History of Persia, vol. ii, p. 452.

ومنذ ذلك الحين بدأ هولاكو يستعد لحملة على غرب آسيا ، فجهز العتاد وجند مايلزمه من الرجال وزود جيوشه بالمهندسين الصيادين للاستعانة بهم في تنصيب المجانيق وقذف المواد الملتهبة على المدن المحاصرة ، كما أمر بإصلاح الطرق التي ستمر فيها الجيوش المغولية وإقامة القناطر على الأنهار التي ستصادفها هذه الجيوش . وفضلاً عن ذلك فقد أخذ هولاكو ومانجو خان يتقربان من الملوك والأمراء المسيحيين في غرب آسيا ، وكان كل من المسيحيين والمغول يحاول التقرب من الآخر بغية القضاء على الخليفة العباسي عدوهما المشترك ، كما كان المسيحيون يأملون أن يساعدهم المغول على استرداد بيت المقدس من أيدي المسلمين .

وصل هولاكو إلى بلاد ماوراء النهر سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) ، ثم عبر نهر جيحون في السنة التالية متجهاً إلى حصون الإسماعيلية بغية تحطيمها . وقد قضى هولاكو عام ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) متنقلاً بين مدن فارس يتابع إرسال الحملات للاستيلاء على قلاع الإسماعيلية ، وقد استطاع فعلاً في نهاية هذه السنة أن يستولى على قلعة الموت ، وأن ينكل بكل من ينتمى إلى هذه الفئة المخربة^(١) ، واتجه بعد ذلك إلى الاستيلاء على بغداد .

وقد أرسل هولاكو في التاسع من شهر ربيع الثاني سنة ٦٥٥ هـ (٢١ سبتمبر سنة ١٢٥٧ م) رسالة إلى الخليفة العباسي المستعصم يدعوه فيها إلى التسليم وتقويض حصون حاضرتة ، كما دعاه في هذه الرسالة أيضاً إلى الحضور بنفسه ليعان خضوعه . ولم يهتم الخليفة كثيراً بموضوع هذه الرسالة بل وأكثر من ذلك لم يهتم اهتماماً جدياً بأمر الدفاع عن المدينة رغم تحذير وزيره ابن العلقمي^(٢) . وكانت النتيجة أن أحاط هولاكو سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) بمدينة بغداد من جميع جهاتها ، وحاول الخليفة في هذه الأثناء ، دون جدوى ، أن يدخل في صلح مع المغول ، فلما فشل في محاولته ، لم يجد

(١) Breitschneider : Mediaeval Researches, vol. i, p. 118.

(٢) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ٢٩٢ .

أمامه بدأ من الذهاب بنفسه إلى معسكر هولاكو حيث سلم جازرته التي
أعمل المغول فيها النهب والسلب والتخريب . وكان لسقوط بغداد أثره
البالغ في مسارعة أمراء غربي آسيا إلى التسليم ، ومن هؤلاء سلاجقة الروم ،
وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . أما البلاد التي لم تسلم للمغول طوعاً فقد
خضعت كرها .

وكان هدف هولاكو بعد سقوط بغداد أن يستولى على سوريا ثم
مصر ، فأرسل إلى حكام البلاد التي ستمر فيها جيوشه رسائل كلها تهديد
ووعيد^(١) ، وبعد أن أتم استعداداته الحربية ، اتجه نحو الغرب مكتسحاً
ما بقي من بلاد ما بين النهرين ، ثم رحل إلى حلب وخرّبها سنة ٦٥٨ هـ
(١٢٦٠ م) . وقبل أن يتم إخضاع البلاد السورية ، رأى أن يعود إلى بلاده
تاركاً لقائده كتبغا إتمام هذا المشروع^(٢) . أما عن السبب الذي دفع هولاكو
إلى التفكير في العودة إلى بلاده في هذا الوقت قبل أن يتم فتوحه في سوريا
ومصر ، فهو رغبته في الاشتراك في انتخاب خلف لأخيه مانجو خان الذي
كان قد توفي سنة ٦٥٨ هـ (١٢٥٩ م)^(٣) ، بل يقال إنه كان يفكر في المطالبة
بعرش المغول بعد وفاة أخيه ، على أنه لما وصل إلى مدينة تبريز ، علم أن
أخاه كوبلاي خان قد انتخب خاقاناً فعدل عن الذهاب إلى منغوليا^(٤) .

والمهم أن نذكر أن كتبغا اتجه بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل ميمّا
شطر البلاد المصرية . ولم يهتم المصريون بتهديده ووعيده ، بل سارعوا إلى

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢) Nicholson : A Literary History of the Arabs, p. 446. (٢)

(٣) ذكر ستانلي لينبول في كتابه The M. Dynasties ص ٢١٢ ، أن مانجو خان توفي
سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) وهذا خطأ ، إذ الحقيقة أنه توفي سنة ٦٥٨ هـ (أغسطس
سنة ١٢٥٩ م) ، واستطيع أن نعتمد في ذلك على ما ورد في المراجع الصينية .

انظر Bretschneider : Mediæval Researches vol. i, p. 158, note, 418.

(٤) Howorth : History of the Mongols, part iii, p. 151. (٤)

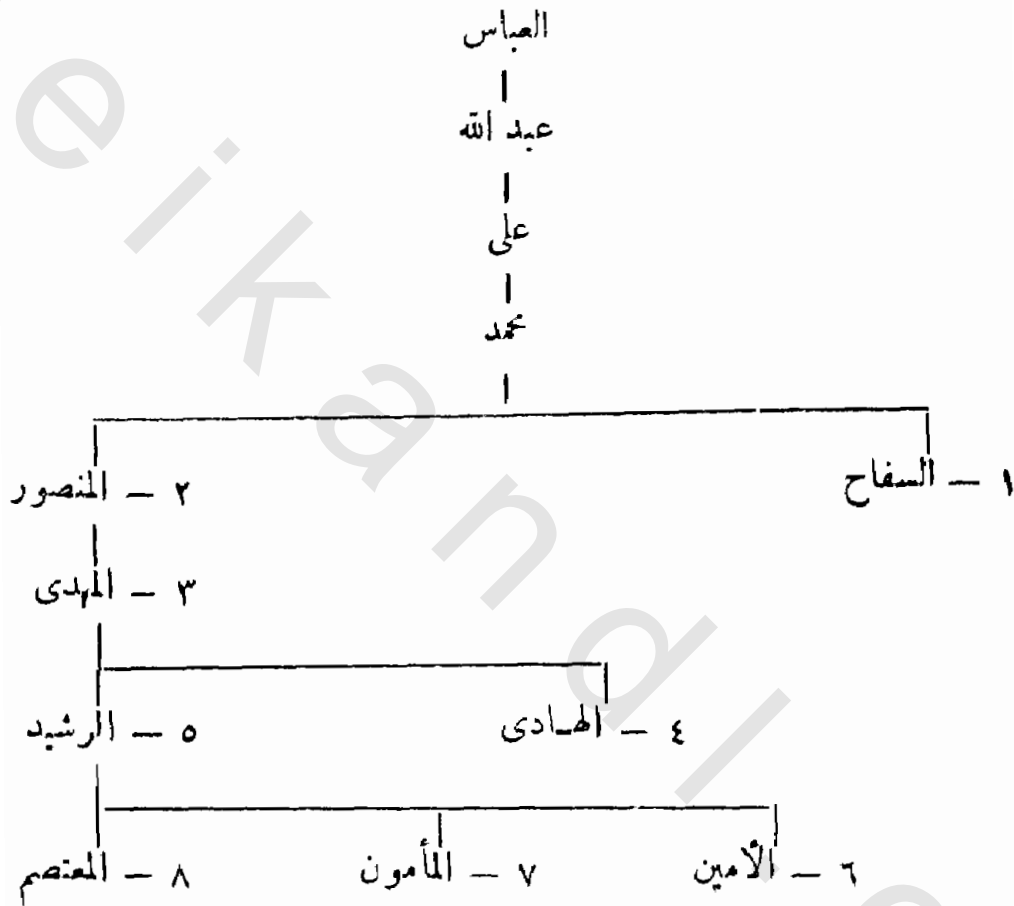
ملاقاته ، وتمكن الظاهر بيبرس من أن يوقع بالمغول هزيمة منكرة في
موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، كما تمكن المالك من قتل عدد
كبير من رجال الجيش المغولى واختطفوا البعض الآخر ، أما من نجا منهم
من القتل والأسر فقد سارع إلى الهرب . وقد استطاع الظاهر بيبرس بعد
هذا الانتصار الحاسم أن يعيد إلى حوزة المسلمين البلاد الشامية التى استولى
عليها المغول من قبل وأهمها دمشق وحلب ، فكان ذلك أول انكسار
للمغول فى الشرق الإسلامى ، ولولا هزيمتهم فى هذه الموقعة لثم لهم الاستيلاء
على مصر ، ولتغير مجرى التاريخ المصرى لعدة قرون .

obeykandi.com

المداول والمصادر والكشاف

١ - الخلفاء العباسيون

قبل انتقال مركز الخلافة إلى سامرا



- ١ - السفاح ، أبو العباس عبد الله بن محمد : ١٣٢ - ١٣٦ هـ = ٧٥٠ - ٧٥٤ م .
- ٢ - المنصور ، أبو جعفر عبد الله بن محمد : ١٣٦ - ١٥٨ هـ = ٧٥٤ - ٧٧٥ م .
- ٣ - المهدي ، أبو عبد الله محمد بن المنصور : ١٥٨ - ١٦٩ هـ = ٧٧٥ - ٧٨٥ م .
- ٤ - الهادي ، أبو محمد موسى بن المهدي : ١٦٩ - ١٧٠ هـ = ٧٨٥ - ٧٨٦ م .
- ٥ - الرشيد ، أبو جعفر هارون بن المهدي : ١٧٠ - ١٩٣ هـ = ٧٨٦ - ٨٠٩ م .
- ٦ - الأمين ، أبو موسى عبد بن الرشيد : ١٩٣ - ١٩٨ هـ = ٨٠٩ - ٨١٣ م .
- ٧ - المأمون ، أبو جعفر عبد الله بن الرشيد : ١٩٨ - ٢١٨ هـ = ٨١٣ - ٨٣٣ م .
- ٨ - المعتصم بالله ، أبو إسحق محمد بن الرشيد : ٢١٨ - ٢٢٧ هـ = ٨٢٣ - ٨٤٢ م .

٢ - الخلفاء العباسيون

في سامرا

١ - المعتصم



- ١ - المعتصم بالله ، أبو إسحاق محمد بن الرشيد : ٧١٨ — ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ — ٨٤٢ م.
- ٢ - الواثق بالله ، أبو جعفر هارون بن المعتصم : ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧ م.
- ٣ - المتوكل على الله ، أبو الفضل جعفر بن المعتصم : ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ — ٨٦١ م.
- ٤ - المنتصر بالله ، أبو جعفر محمد بن المتوكل : ٢٤٧ — ٢٤٨ هـ = ٨٦١ — ٨٦٢ م.
- ٥ - المستعين بالله ، أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم : ٢٤٨ — ٢٥٢ هـ = ٨٦٢ — ٨٦٦ م.
- ٦ - المعتز بالله ، أبو عبد الله محمد بن المتوكل : ٢٥٢ — ٢٥٥ هـ = ٨٦٦ — ٨٦٩ م.
- ٧ - المهتدي بالله ، أبو إسحاق محمد بن الواثق : ٢٥٥ — ٢٥٦ هـ = ٨٦٩ — ٨٧٠ م.
- ٨ - المعتمد على الله ، أبو العباس أحمد بن المتوكل : ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ — ٨٩٢ م.

٣ — الخلفاء العباسيون

تحت سيطرة الأتراك في بغداد

١ — المعتضد



- ١ — المعتضد بالله، أبو العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل : ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠٢ م.
- ٢ — المكتفي بالله ، أبو محمد بن المعتضد : ٢٨٩ — ٢٩٥ هـ = ٩٠٢ — ٩٠٨ م.
- ٣ — المقتدر بالله ، أبو الفضل جعفر بن المعتضد : ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ = ٩٠٨ — ٩٣٢ م.
- ٤ — القاهر بالله ، أبو منصور محمد بن المعتضد : ٣٢٠ — ٣٢٢ هـ = ٩٣٢ — ٩٣٤ م.
- ٥ — الرازي بالله ، أبو العباس أحمد بن المقتدر : ٣٢٢ — ٣٢٩ هـ = ٩٣٤ — ٩٤٠ م.
- ٦ — المتقي لله ، أبو إسحق إبراهيم بن المقتدر : ٣٢٩ — ٣٣٣ هـ = ٩٤٠ — ٩٤٤ م.
- ٧ — المستكفي بالله ، أبو القاسم عبدالله بن المكتفي : ٣٣٣ — ٣٣٤ هـ = ٩٤٤ — ٩٤٦ م.

٤ - الخلفاء العباسيون

في عصر بني بويه



- ١ - المستكنف بالله ، أبو القاسم عبد الله بن المستكنف : ٣٣٣ - ٣٣٤ = ٩٤٤ - ٩٤٦ م .
- ٢ - المطيع لله ، أبو القاسم الفضل بن المقتدر : ٣٣٤ - ٣٦٣ = ٩٤٦ - ٩٧٤ م .
- ٣ - الطائع لله ، أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع : ٣٦٣ - ٣٨١ = ٩٧٤ - ٩٩١ م .
- ٤ - القادر بالله ، أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر ^(١) : ٣٨١ - ٤٢٢ = ٩٩١ - ١٠٣١ م .
- ٥ - القائم بأمر الله ، أبو جعفر عبد الله بن القادر : ٤٢٢ - ٤٦٧ = ١٠٣١ - ١٠٧٥ م .

(١) ذكر زامبور Zambour ، ص ٥ . أن الخليفة القادر إنما هو ابن إسحاق المقتدر وهذا قول مردود إذ أن الخليفة القادر إنما هو ابن إسحاق (الخليفة المتقي) بن المقتدر . انظر ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٣٣ ، المقرئ : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢٠ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٢ ، الفخري ص ٢٥٤ .

٥ - الخلفاء العباسيون

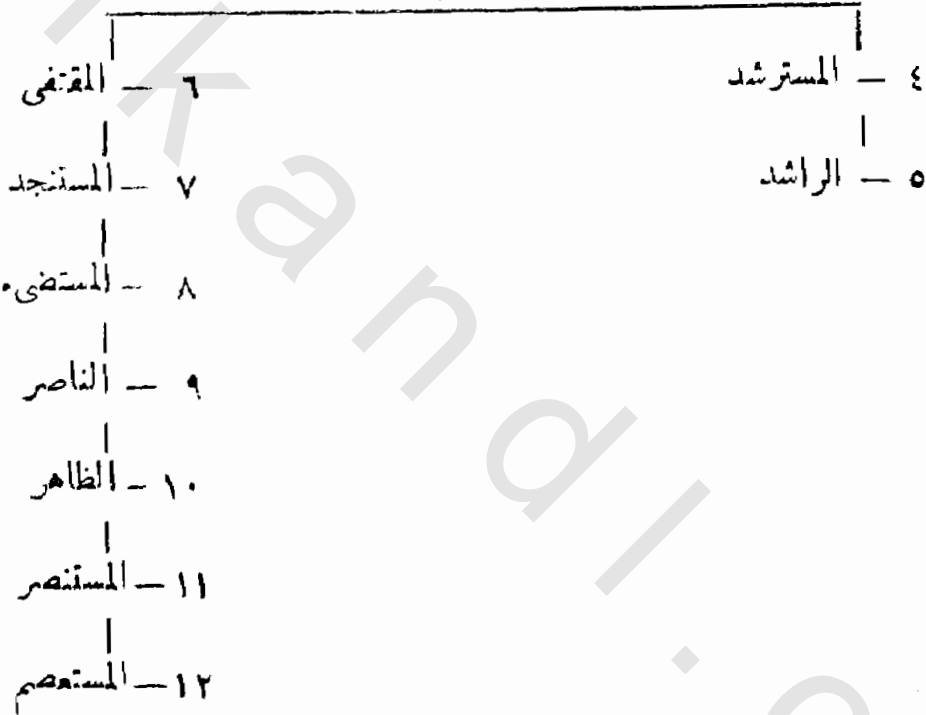
منذ العصر السلجوقي حتى سقوط بغداد

١ - القائم

محمد

٢ - المقتدى

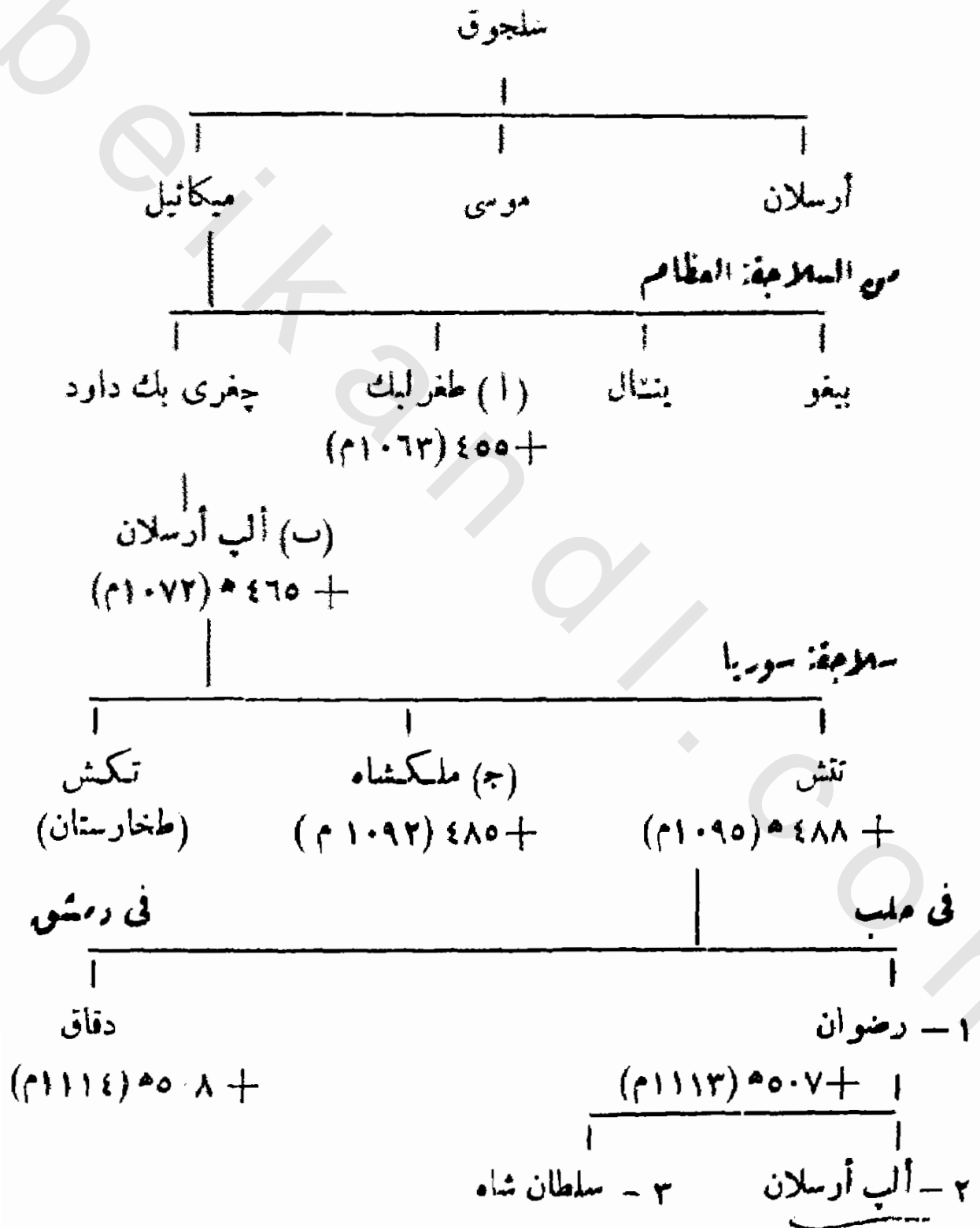
٣ - المستظهر



- ١ - القائم بأمر الله، أبو جعفر عبد الله بن القادر: ٤٢٢ - ٤٦٧ = ١٠٣١ - ١٠٧٥ م.
- ٢ - المقتدى بأمر الله، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القائم: ٤٦٧ - ٤٨٧ = ١٠٧٥ - ١٠٩٤ م.
- ٣ - المستظهر بالله، أبو العباس أحمد بن المقتدى: ٤٨٧ - ٥١٢ = ١٠٩٤ - ١١١٨ م.
- ٤ - المسترشد بالله، أبو منصور الفضل بن المستظهر: ٥١٢ - ٥٢٩ = ١١١٨ - ١١٣٥ م.
- ٥ - الراشد، أبو جعفر المنصور بن المسترشد: ٥٢٩ - ٥٣٠ = ١١٣٥ - ١١٣٦ م.
- ٦ - المقتضى بأمر الله، أبو عبد الله محمد بن المستظهر: ٥٣٠ - ٥٥٥ = ١١٣٦ - ١١٦٠ م.
- ٧ - المستنجد بالله، أبو المظفر يوسف بن المقتضى: ٥٥٥ - ٥٦٦ = ١١٦٠ - ١١٧٠ م.
- ٨ - المستضيء بأمر الله، أبو محمد الحسن بن المستنجد: ٥٦٦ - ٥٧٥ = ١١٧٠ - ١١٨٠ م.
- ٩ - الناصر لدين الله، أبو العباس أحمد بن المستضيء: ٥٧٥ - ٦٢٢ = ١١٨٠ - ١٢٢٥ م.
- ١٠ - الظاهر بأمر الله، أبو نصر محمد بن الناصر: ٦٢٢ - ٦٢٣ = ١٢٢٥ - ١٢٢٦ م.
- ١١ - المستنصر بالله، أبو جعفر المنصور بن الظاهر: ٦٢٣ - ٦٤٠ = ١٢٢٦ - ١٢٤٢ م.
- ١٢ - المستعصم بالله، أبو أحمد عبد الله بن المستنصر: ٦٤٠ - ٦٥٦ = ١٢٤٢ - ١٢٥٨ م.

٦ - الأسرة السلجوقية

وفرعها في سوريا

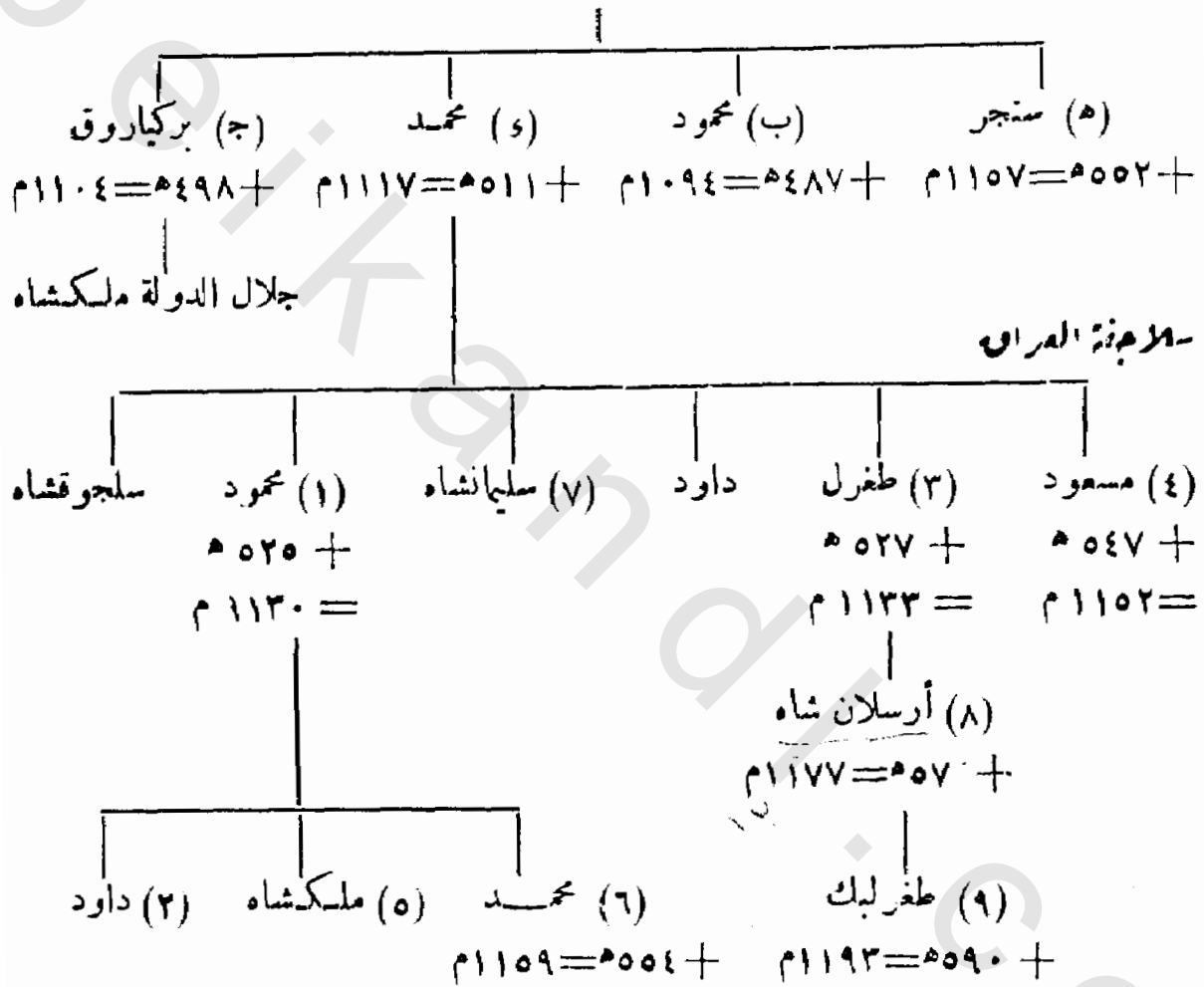


٧ - سلاجقة العراق وفارس

منذ عصر ملكشاه (*)

(١) ملكشاه

من السلطنة النظام ٤٦٥ - ٥٤٨٥ = ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م



(*) مما هو جدير بالملاحظة أن حواضر سلاطين السلاجقة كانت تختلف من سلطان لآخر ، فتلا اتخذ طغرل بك الأول مدينة نيسابور حاضرة له ، واتخذ ألب أرسلان مدينة مرو ، بينما حكم ملكشاه وأبناءؤه ، محمود وبركياروق ومحمد ، في أصفهان ؛ أما سنجر فقد اتخذ من مدينة مرو كبرى مدن خراسان ، حاضرة له ، انظر Sannullah: The Decline of the Saljuqid Empire, p. 39. وقد ذكر دوسون أن ملكشاه اتخذ من مدينة مرو حاضرة له وربما كان ذلك في بداية عهده ، أي عقب وفاة أبيه ألب أرسلان الذي كان يقيم في هذه المدينة .

٨ - الإسماعيلية في فارس^(١)

محمد يوسف الخيري

حسين

جعفر

محمد

علي

الصباح

الحسن

بزرگيد

محمد الأول

الحسن الثاني

محمد الثاني

جلال الدين حسن الثالث

علاء الدين محمد الثالث

ایران شاه | رکن الدین خورشاه | شاهنشاه

- ١ - الحسن بن الصباح^(٢) : ٤٨٣ - ٥١٨ هـ = ١٠٩٠ - ١١٢٤ م.
- ٢ - کيا بزرگيد الرودباري : ٥١٨ - ٥٣٢ هـ = ١١٢٤ - ١١٣٧ م.
- ٣ - محمد الأول بن بزرگيد : ٥٣٢ - ٥٥٧ هـ = ١١٣٧ - ١١٦١ م.
- ٤ - الحسن الثاني بن محمد : ٥٥٧ - ٥٦١ هـ = ١١٦١ - ١١٦٥ م.
- ٥ - نور الدين محمد الثاني بن الحسن الثاني : ٥٦١ - ٦٠٧ هـ = ١١٦٥ - ١٢١٠ م.
- ٦ - جلال الدين حسن الثالث بن محمد الثاني : ٦٠٧ - ٦١٨ هـ = ١٢١٠ - ١٢٢١ م.
- ٧ - علاء الدين محمد الثالث بن حسن الثالث : ٦١٨ - ٦٥٣ هـ = ١٢٢١ - ١٢٥٥ م.
- ٨ - رکن الدین خورشاه^(٣) : ٦٥٣ - ٦٥٤ هـ = ١٢٥٥ - ١٢٥٦ م.

(١) تعرف الإسماعيلية في فارس بالزارية نسبة إلى نزار بن الخليفة المستنصر الفاطمي .

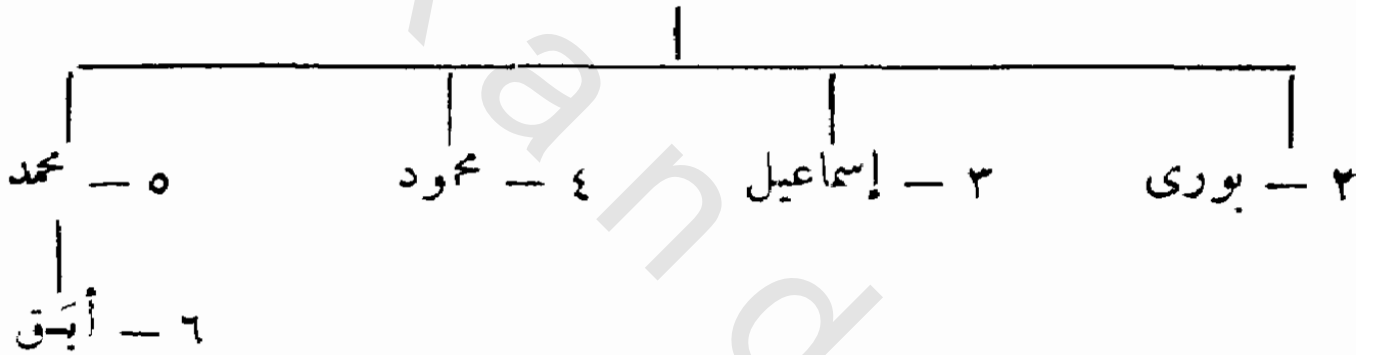
(٢) ينتسب أباخان زعيم الإسماعيلية في بلاد الهند إلى الحسن بن الصباح .

(٣) قتل رکن الدین خورشاه علی يد هولاکو في ٢٩ شوال سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦م) .

٩ — أتابكة دمشق

٤٩٧ — ٥٥٤٩ (١١٠٣ — ١١٥٤ م)

١ — طغتكين



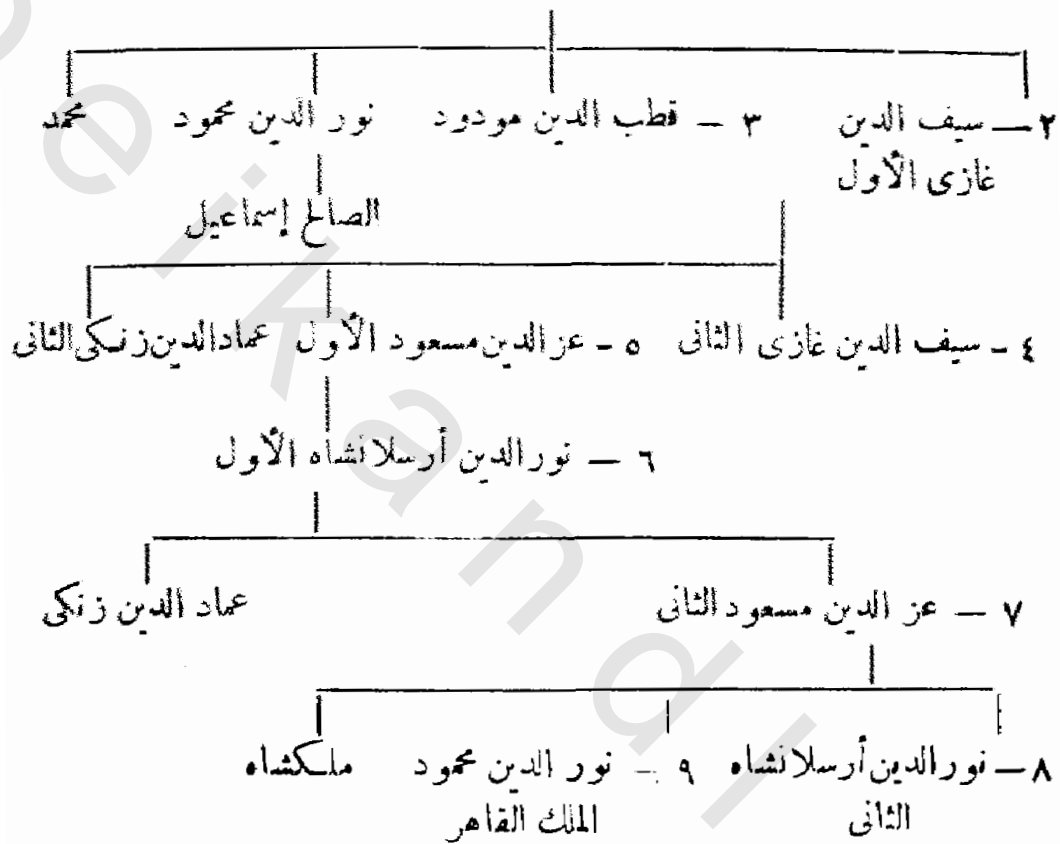
- ١ — أبو سعيد ، سيف الإسلام ، ظهير الدين ، معتمد الدولة ، طغتكين ، أتابك دقاق بن تمش : ٤٩٧ — ٥٢٢ = ١١٠٣ — ١١٢٨ م .
- ٢ — تاج الملك بوري بن طغتكين : ٥٢٢ — ٥٢٦ = ١١٢٨ — ١١٣٢ م .
- ٣ — شمس الملك إسماعيل بن طغتكين : ٥٢٦ — ٥٢٩ = ١١٣٢ — ١١٣٤ م .
- ٤ — شهاب الدين محمود بن طغتكين : ٥٢٩ — ٥٣٣ = ١١٣٤ — ١١٣٨ م .
- ٥ — جمال الدين محمد بن طغتكين : ٥٣٣ — ٥٣٤ = ١١٣٨ — ١١٣٩ م .
- ٦ — مجير الدين أبى : ٥٣٤ — ٥٥٤٩ = ١١٣٩ — ١١٥٤ م .

١. — أتابكة الموصل

٥١٦ — ٥٦٠ = ١١٢٢ — ١٢٦٢ م

قسم الدولة آقسنقر الحاجب

١ — عماد الدين زنكي



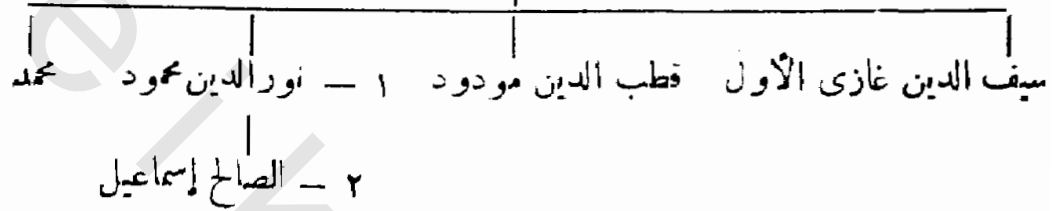
- ١ — عماد الدين زنكي بن آقسنقر: ٥١٦ — ٥٤١ = ١١٢٢ — ١١٤٦ م.
 - ٢ — سيف الدين غازي الأول: ٥٤١ — ٥٤٤ = ١١٤٦ — ١١٤٩ م.
 - ٣ — قطب الدين مودود: ٥٤٤ — ٥٦٥ = ١١٤٩ — ١١٦٩ م.
 - ٤ — سيف الدين غازي الثاني: ٥٦٥ — ٥٧٦ = ١١٦٩ — ١١٨٠ م.
 - ٥ — عز الدين مسعود الأول: ٥٧٦ — ٥٨٩ = ١١٨٠ — ١١٩٣ م.
 - ٦ — نور الدين أرسلان شاه الأول: ٥٨٩ — ٦٠٧ = ١١٩٣ — ١٢١٠ م.
 - ٧ — عز الدين مسعود الثاني: ٦٠٧ — ٦١٥ = ١٢١٠ — ١٢١٨ م.
 - ٨ — نور الدين أرسلان شاه الثاني: ٦١٥ — ٦١٦ = ١٢١٨ — ١٢١٩ م.
 - ٩ — ناصر الدين محمود، الملك القاهر: ٦١٦ — ٦٣١ = ١٢١٩ — ١٢٣٣ م.
 - ١٠ — بدر الدين أولو: ٦٣١ — ٦٥٧ = ١٢٣٣ — ١٢٥٩ م.
 - ١١ — ركن الدين إسماعيل بن أولو: ٦٥٧ — ٦٦٠ = ١٢٥٩ — ١٢٦٢ م.
- سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م): الحكم المغولي.

١١ - أتابكة حلب

٥٤١ - ٥٧٩ = ١١٤٦ - ١١٨٣ م

قسيم الدولة آقسنقر الحاجب

عماد الدين زنكي



١ - الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي (١) : ٥٤١ - ٥٦٩ = ١١٤٦ - ١١٧٣ م .

٢ - الصالح نور الدين اسماعيل : ٥٦٩ - ٥٧٧ = ١١٧٣ - ١١٨١ م .
في ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) : الاتحاد مع الموصل .
في ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) : الخضوع للحكم الايوبي .

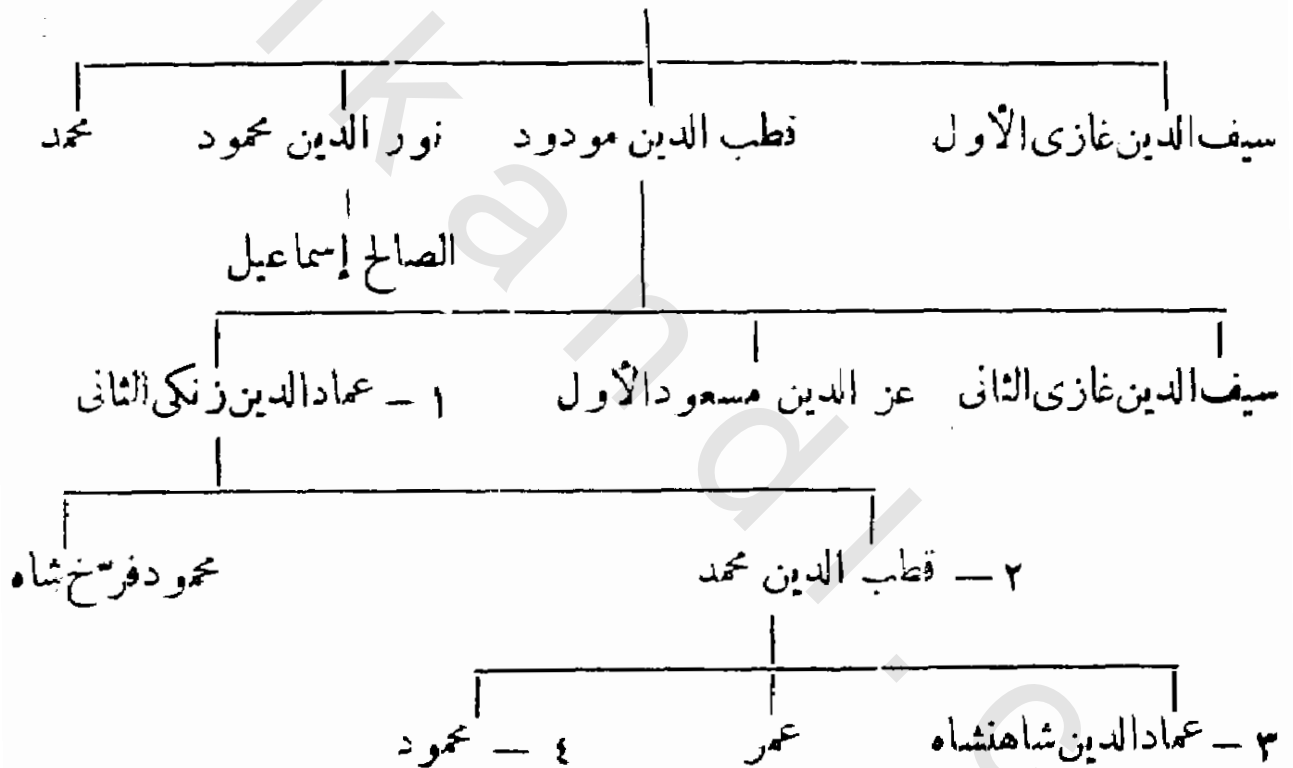
(١) ولد سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) وتوفي سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م)

١٢ - أتابكة سنجار

٥٦٦ - ٦١٧ هـ = ١١٧٠ - ١٢٢٠ م

قسم الدولة آقسنقر الحاجب

عماد الدين زنكى



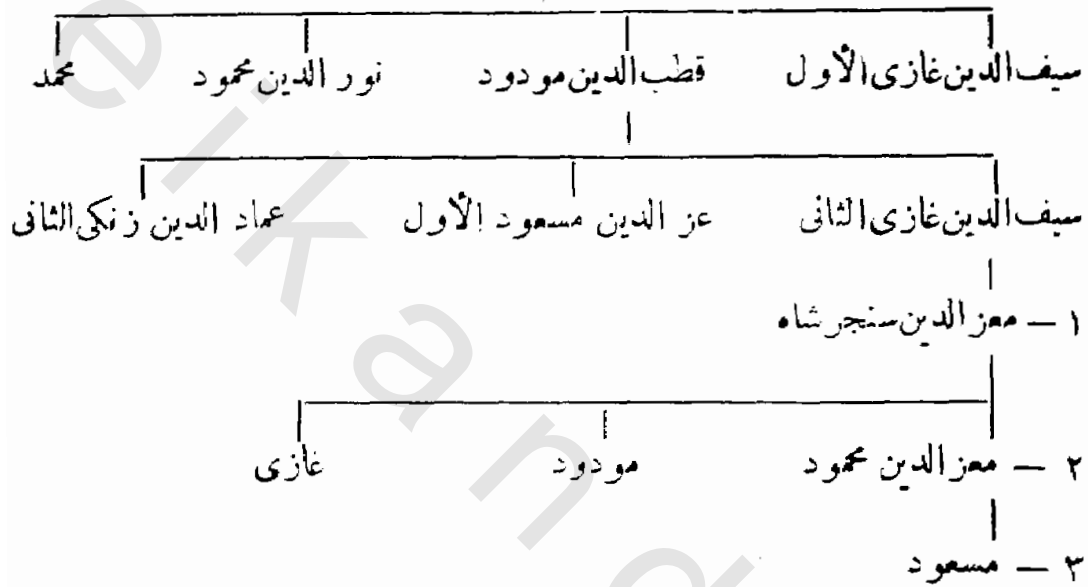
- ١ - عماد الدين أبو الفتح زنكى الثانى بن مودود : ٦٦٠ - ٥٩٤ هـ = ١١٧٠ - ١١٩٧ م.
 - ٢ - قطب الدين محمد بن زنكى الثانى : ٥٩٤ - ٦١٦ هـ = ١١٩٧ - ١٢١٩ م.
 - ٣ - عماد الدين شاهنشاه بن محمد : ٦١٦ هـ = ١٢١٩ م.
 - ٤ - جلال الدين محمود بن محمد : ٦١٦ - ٦١٧ هـ = ١٢١٩ - ١٢٢٠ م.
- سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) - حكم الأيوبيين .

١٣ — أتابكة الجزيرة

٥٧٦ — ٦٤٨ هـ = ١١٨٠ — ١٢٥٠ م

قسم الدولة آقسنقر الحاجب

عماد الدين زنكى



- ١ — موز الدين سنجر شاه : ٥٧٦ — ٦٠٥ هـ = ١١٨٠ — ١٢٠٨ م .
٢ — موز الدين محمود بن سنجر (١) : ٦٠٥ — ٦٣٩ هـ = ١٢٠٨ — ١٢٤١ م .
٣ — مسعود بن محمود : ٦٣٩ — ٦٤٨ هـ = ١٢٤١ — ١٢٥٠ م .
سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) حكم الأيوبيين .

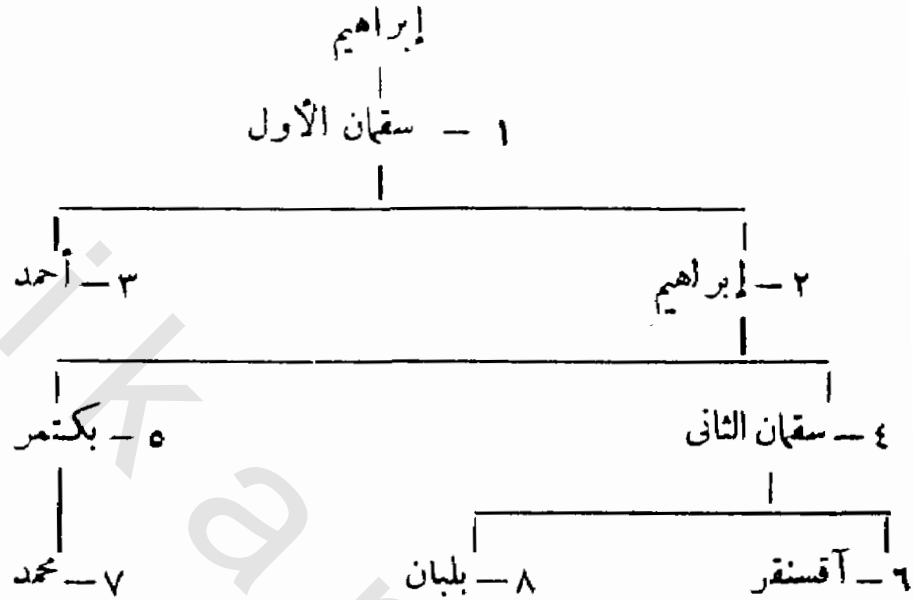
(١) يلاحظ أن موز الدين محمود بن سنجر ، كان تابعا للأيوبيين . انظر

Zambour: Manuel de Généalogie et de chronologie, p. 226.

Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 207.

١٤ - أتابكة أرمينية

٤٩٣ - ٥٦٠٤ = ١١٠٠ - ١٢٠٧ م



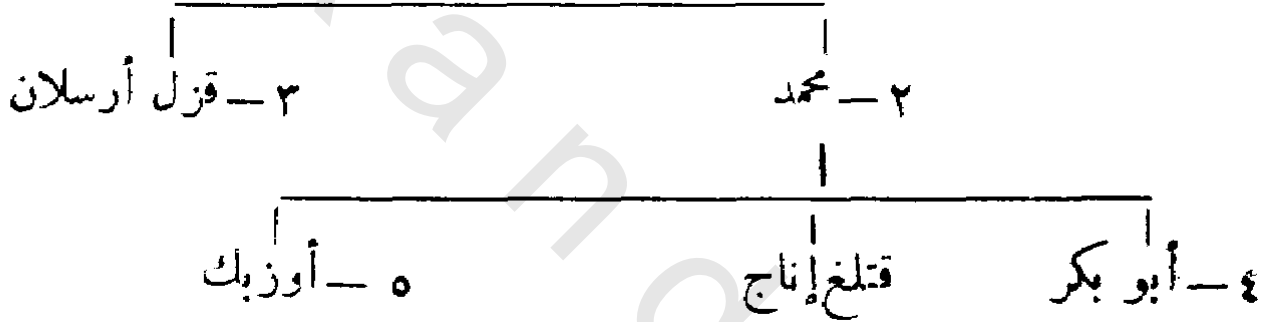
- ١ - سقمان القطبي : ٤٩٣ - ٥٠٦ = ١١٠٠ - ١١١٢ م .
- ٢ - ظهير الدين إبراهيم : ٥٠٦ - ٥٢١ = ١١١٢ - ١١٢٧ م .
- ٣ - أحمد بن سقمان : ٥٢١ - ٥٢٢ = ١١٢٧ - ١١٢٨ م .
- ٤ - ناصر الدين سقمان الثاني : ٥٢٢ - ٥٨١ = ١١٢٨ - ١١٨٥ م .
- ٥ - سيف الدين بكتمر (١) : ٥٨١ - ٥٨٩ = ١١٨٥ - ١١٩٣ م .
- ٦ - بدر الدين آقسنقر : ٥٨٩ - ٥٩٤ = ١١٩٣ - ١١٩٨ م .
- ٧ - الملك النصور محمد : ٥٩٤ - ٦٠٣ = ١١٩٨ - ١٢٠٦ م .
- ٨ - عز الدين بلبان : ٦٠٣ - ٦٠٤ = ١٢٠٦ - ١٢٠٧ م .
- سنة ٥٦٠٤ (١٢٠٧ م) : حكم الأيوبيين

(١) حدد ستانلي لينيول سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) كبداية لحكم بكتمر وهذا خطأ . انظر ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

١٥ — أتابكة أذربيجان

٥٣١ — ٦٢٢ هـ = ١١٣٦ — ١٢٢٥ م

١ — إيلدكز

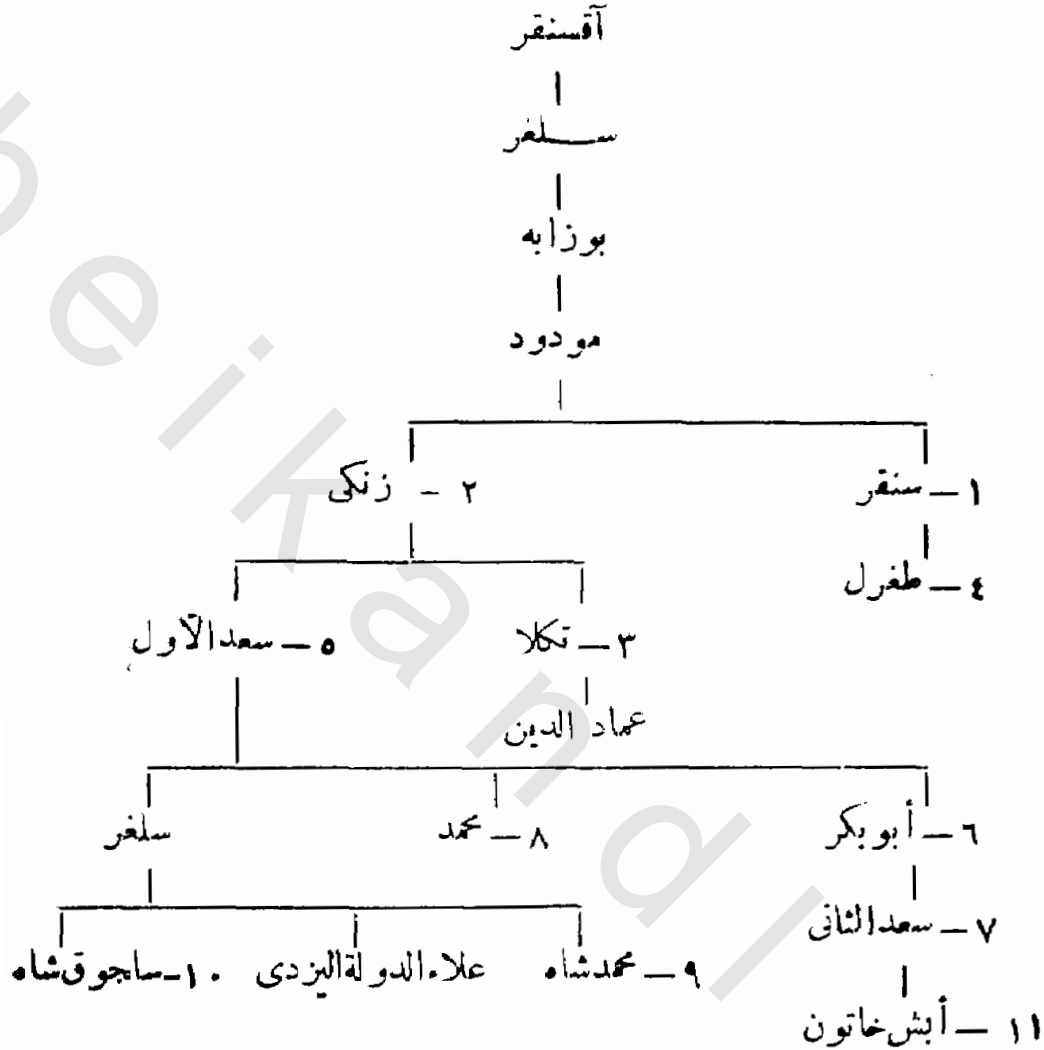


- ١ — شمس الدين إيلدكز : ٥٣١ — ٥٦٨ هـ = ١١٣٦ — ١١٧٢ م .
- ٢ — شمس الدين أبو جعفر محمد جهان پهلوان : ٥٦٨ — ٥٨١ هـ = ١١٧٢ — ١١٨٥ م .
- ٣ — مظفر الدين قزل أرسلان عثمان : ٥٨١ — ٥٨٧ هـ = ١١٨٥ — ١١٩١ م .
- ٤ — نصر الدين أبو بكر : ٥٨٧ — ٦٠٧ هـ = ١١٩١ — ١٢١٠ م .
- ٥ — مظفر الدين أوزبك : ٦٠٧ — ٦٢٢ هـ = ١٢١٠ — ١٢٢٥ م .

سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٧ م) : حكم الخوارزميين .

١٦ - اتابكة فارس

٥٤٣ - ٥٦٨٦ = ١١٤٨ - ١٢٨٧ م



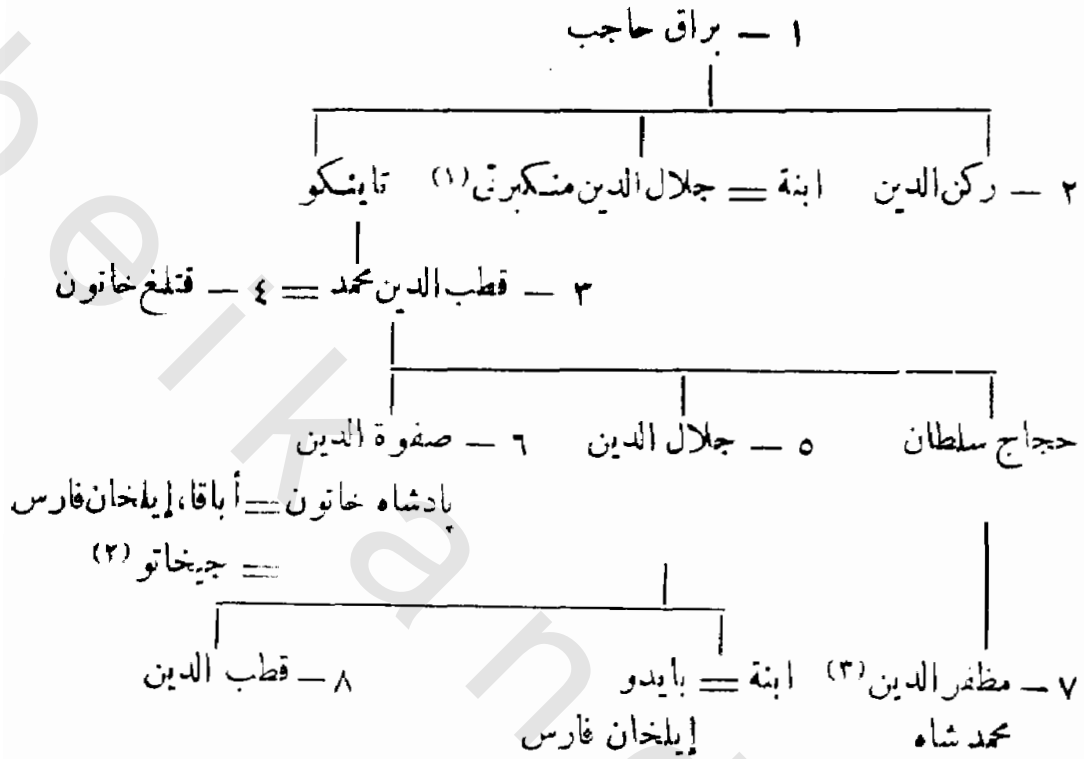
- ١ - مظفر الدين سنقر بن مودود : ٥٤٣ - ٥٥٦ = ١١٤٨ - ١١٦٠ م .
 - ٢ - مظفر الدين زنكى بن مودود (١) : ٥٥٦ - ٥٧٠ = ١١٦٠ - ١١٧٤ م .
 - ٣ - تكلا بن زنكى : ٥٧٠ - ٥٩٠ = ١١٧٤ - ١١٩٣ م .
 - ٤ - طغرل بن سنقر : ٥٩٠ - ٥٩٩ = ١١٩٣ - ١٢٠٢ م .
 - ٥ - سعد الأول بن زنكى : ٥٩٩ - ٦٢٣ = ١٢٠٢ - ١٢٢٥ م .
 - ٦ - أبو بكر بن سعد : ٦٢٣ - ٦٥٨ = ١٢٢٥ - ١٢٥٩ م .
 - ٧ - سعد الثانى بن أبى بكر : ٦٥٨ (٢) = (١٢٥٩ م) .
 - ٨ - محمد بن سعد الأول : ٦٥٨ - ٦٦٠ = ١٢٥٩ - ١٢٦١ م .
 - ٩ - محمد شاه بن سلفر شاه : ٦٦٠ - ٦٦١ = ١٢٦١ - ١٢٦٢ م .
 - ١٠ - ساجوق شاه بن سلفر شاه : ٦٦١ - ٦٦٣ = ١٢٦٢ - ١٢٦٤ م .
 - ١١ - أبش خاتون بنت سعد الثانى : ٦٦٣ - ٦٨٦ = ١٢٦٤ - ١٢٨٧ م .
- سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) : حكم الممولى .

(١) كان تابعا لأرسلان بن طغرل السلطان الساجوقى .

(٢) توفى سعد الثانى بعد اثنى عشر يوما من وفاة أبيه .

١٧ — أتابكة كرمان

٦١٩ — ٧٠٣ هـ = ١٢٢٢ — ١٣٠٣ م



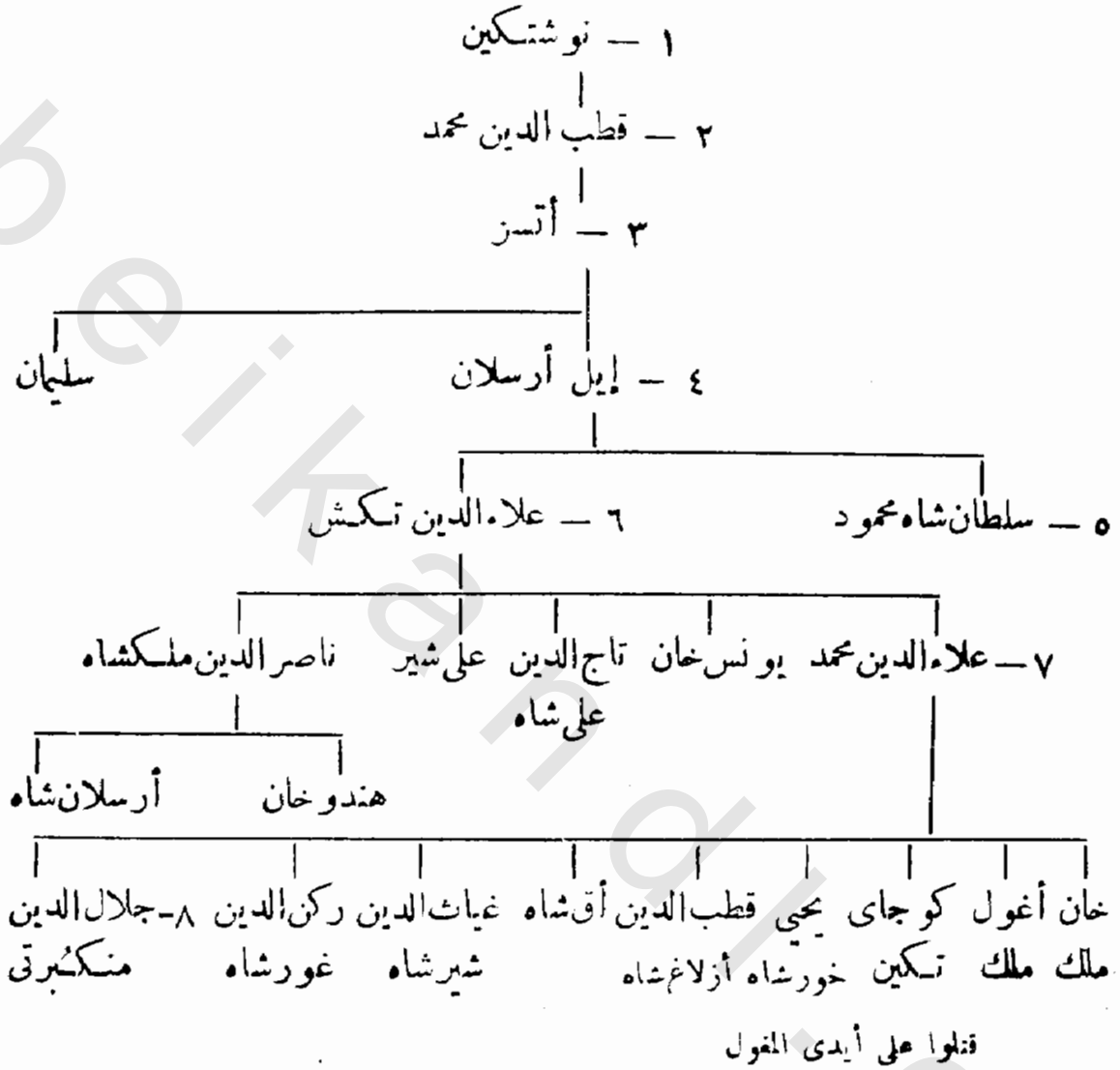
- ١ — براق حاجب ، قتلغ خان : ٦١٩ — ٦٣٢ هـ = ١٢٢٢ — ١٢٣٤ م .
- ٢ — ركن الدين حجة الحق : ٦٣٢ — ٦٥٠ هـ = ١٢٣٤ — ١٢٥٢ م .
- ٣ — قطب الدين محمد : ٦٥٠ — ٦٥٥ هـ = ١٢٥٢ — ١٢٥٧ م .
- ٤ — قتلغ نركان خاتون : ٦٥٥ — ٦٨١ هـ = ١٢٥٧ — ١٢٨٢ م .
- ٥ — جلال الدين بن محمد : ٦٨١ — ٦٩٣ هـ = ١٢٨٢ — ١٢٩٣ م .
- ٦ — صفوة الدين بادشاه خاتون بنت محمد : ٦٩٣ — ٦٩٤ هـ = ١٢٩٣ — ١٢٩٤ م .
- ٧ — مظفر الدين محمد شاه : ٦٩٤ — ٧٠١ هـ = ١٢٩٤ — ١٣٠١ م .
- ٨ — قطب الدين شاه جهان : ٧٠١ — ٧٠٣ هـ = ١٣٠١ — ١٣٠٣ م .
- سنة ٧٠٣ — ٧٤١ هـ = ١٣٠٣ — ١٣٤٠ م : حكم المغول .

(١) يلاحظ أن علامة = معناها الزواج من .

(٢) يكتب هذا الاسم في المراجع الفارسية كـ «جينخاتو» وفي بعض المراجع العربية كـ «جينخاتو» .

(٣) يسمى أيضا جلال الدين .

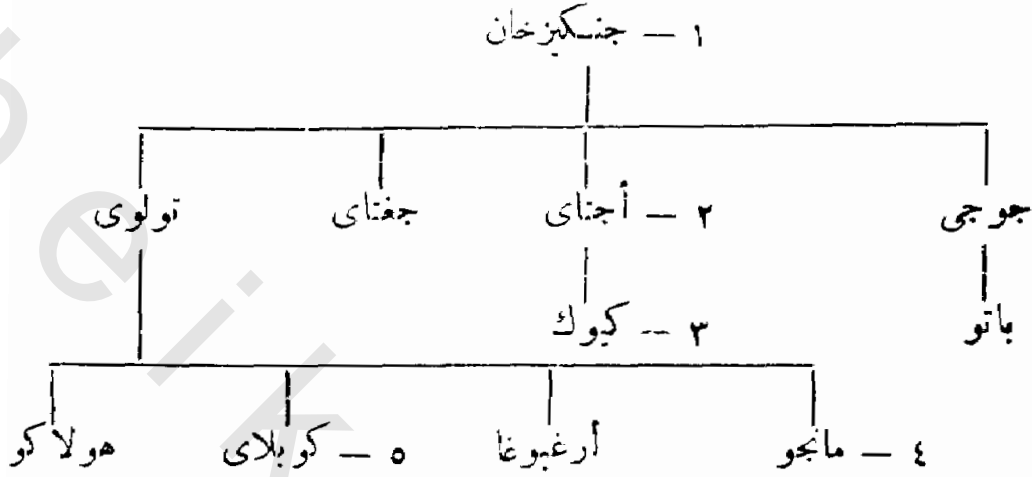
۱۸ — شاهات خوارزم



- ۱ — نوشتکین : ۴۷۰ — ۵۴۹۰ = ۱۰۷۷ — ۱۰۹۶ م.
- ۲ — قطب الدین محمد : ۴۹۰ — ۵۵۲۱ = ۱۰۹۶ — ۱۱۲۷ م.
- ۳ — اتسر : ۵۲۱ — ۵۵۵۱ = ۱۱۲۷ — ۱۱۵۶ م.
- ۴ — ایل أرسلان : ۵۵۱ — ۵۵۶۸ = ۱۱۵۶ — ۱۱۷۲ م.
- ۵ — سلطان شاه محمود : عزل سنة ۵۵۶۸ = ۱۱۷۲ م. وتوفی سنة ۵۵۸۹ = ۱۱۹۳ م.
- ۶ — علاء الدین تکش : ۵۶۸ — ۵۵۹۶ = ۱۱۷۲ — ۱۱۹۹ م.
- ۷ — علاء الدین محمد : ۵۹۶ — ۵۶۱۷ = ۱۱۹۹ — ۱۲۱۹ م.
- ۸ — جلال الدین منکبرتی : ۶۱۷ — ۵۶۲۸ = ۱۲۱۹ — ۱۲۳۱ م.

١٩ — خانات المغول منذ جنكيز خان

حتى كوبلاي خان^(١)



١ — جنكيز خان : ٦٠٣ — ١٢٢٤ = ١٢٠٦ — ١٢٢٧ م.

٢ — أجتاي : ٦٢٤ — ١٢٣٩ = ١٢٢٧ — ١٢٤١ م.

٣ — كيوك : ٦٣٩ — ١٢٤٤ = ١٢٤١ — ١٢٤٦ م.

حكم تركينا Turakina أرملة أجتاي .

٣ — كيوك : ٦٤٤ — ١٢٤٦ = ١٢٤٦ — ١٢٤٨ م.

٤ — مانجو : ٦٤٦ — ١٢٥٨ = ١٢٤٨ — ١٢٥٩ م^(٢)

٥ — كوبلاي : ٦٥٨ — ١٢٩٥ = ١٢٥٩ — ١٢٩٥ م.

(١) يلاحظ، أن خانات المغول كانوا يتولون الحكم في الفترة التي تتحدث عنها بطريق الانتخاب لا بطريق الوراثة ، ولذا كانت تمر فترة من الوقت قبل أن يجتمع كبار القواد والأمراء المغول المنتشرون في أطراف الإمبراطورية المغولية لانتخاب الخاقان الجديد ، فإذا ما تكامل عددهم أجريت عملية الانتخاب في مجلس عام يعقد لهذا الغرض يسمى السكورتاي (القورلتاي) Kuriltai . وقد درجنا في الجدول السابق على اعتبار الفترة التي تمر بين وفاة الخاقان وانتخاب الخاقان الجديد ضمن حكم ثانيهما . ويمكننا ترتيب هذا الجدول حسب تاريخ انتخابهم ، وعلى هذا الأساس يرتب كما يأتي :

١ — جنكيز خان : ٦٠٣ — ١٢٢٤ = ١٢٠٦ — ١٢٢٧ م.

٢ — أجتاي : ٦٢٦ — ١٢٣٩ = ١٢٢٩ — ١٢٤١ م.

٣ — كيوك : ٦٤٤ — ١٢٤٦ = ١٢٤٦ — ١٢٤٨ م.

٤ — مانجو : ٦٤٩ — ١٢٥٨ = ١٢٥١ — ١٢٥٩ م.

٥ — كوبلاي : ٦٥٩ — ١٢٩٥ = ١٢٦٠ — ١٢٩٥ م.

(٢) ذكر ستانلي لينبول في كتابه The M. Dynasties ص ٢١٢ ، أن مانجوخان توفى سنة ١٢٥٧ م (١٢٥٥) وهذا خطأ ، إذ الحقيقة أنه توفى سنة ١٢٥٩ م (١٢٥٨) ، يؤيد هذا ما جاء في المراجع الصينية المعروفة باسم Yüan shi ، T'ung kien kang mu .

انظر Bretschneider ج ١ ص ١٥٨ ، حاشية ٤١٨ .

المصادر العربية

ابن الأثير : (+ ٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م) .

(١) الكامل في التاريخ (الطبعة الأزهرية ، ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٤ م) .

(٢) تاريخ الدولة الأتابكية - ملوك الموصل . (طبعة Rec. Hist. Or. Gr. L. II) .

البندارى :

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق . (القاهرة ، ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م) .

حافظ أحمد حمدي :

(٤) الدولة الخوارزمية والمغول . (القاهرة ، ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م) .

(٥) المغول والعالم الإسلامى ، بحث فى كتاب " مجموعة الإذاعات الثقافية " ، نشرته وزارة المعارف العمومية سنة ١٩٤٧ .

حسن ابراهيم حسن ، دكتور :

(٦) النظم الإسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور على ابراهيم حسن .

(القاهرة ، ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م) .

(٧) تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٢ . (القاهرة ، ١٣٦٥ هـ = ١٩٤٥ م) .

(٨) ، ، ، ج ٣ . (القاهرة ، ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٦ م) .

ابن خلدون : (+ ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م) .

(٩) العبر وديوان المبتدا والخبر . (القاهرة ، ١٢٨٤ هـ = ١٨٦٧ م) .

ابن خلكان : (+ ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م) .

(١٠) وفيات الأعيان . (بولاق ، ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م) .

الديار بكري : (+ ٩٦٦ هـ = ١٥٥٨ م) .

(١١) تاريخ الخنيس فى أحوال أنفيس نفيس . (القاهرة ، ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م) .

رضا زاده شفق . دكتور :

(١٢) تاريخ الأدب الفارسي . نقله من الفارسية إلى العربية الدكتور محمد موسى هندأوى . (القاهرة ، ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م) .

زكي محمد حسن ، دكتور :

- (١٣) فنون الإسلام . (القاهرة ، ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م) .
(١٤) الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي . (القاهرة ، ١٣٥٥ هـ = ١٩٤٠ م) .
(١٥) الصين وفنون الإسلام . (القاهرة ، ١٣٦٠ هـ = ١٩٤١ م) .
(١٦) التصوير في الإسلام عند الفرس . (القاهرة ، ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م) .
(١٧) التصوير وأعلام المصورين في الإسلام ، بحث في كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية » ، هدية المقتطف في أكتوبر سنة ١٩٣٨ .

السيوطي : (+ ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م) .

(١٨) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله .
(القاهرة ، ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م) .

ابن شاکر الکتبی : (+ ٧٦٤ هـ = ١٢٦٢ م) .

(١٩) فوات الوفيات . (القاهرة ، ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م) .

أبو شامة : (+ ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م) .

(٢٠) تراجم رجال القرنين السادس والسابع . (القاهرة ، ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م) .

ابن طباطبا :

(٢١) الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية .

(القاهرة ، ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) .

عبد الوهاب عزام ، دكتور :

(٢٢) الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهلية والإسلام ، بحث
في كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية » ، هدية المقتطف في
أكتوبر سنة ١٩٣٨ .

ابن العبري : (+ ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م) .

(٢٣) تاريخ مختصر الدول . (بيروت ، ١٣٠٨ هـ = ١٨٩٠ م) .

على ابراهيم حسن ، دكتور :

(٢٤) مصر في العصور الوسطى . (القاهرة ، ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م) .

(٢٥) دراسات في تاريخ الممالك البحرية . (القاهرة ، ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م) .

ابن العميد : (+ ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م) .

(٢٦) تاريخ المسلمين . (لندن ، ١٠٣٥ هـ = ١٦٢٥ م) .

أبو الفدا : (+ ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) .

(٢٧) المختصر في أخبار البشر . (القاهرة ، ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ م) .

قدري حافظ طوقان :

(٢٨) الأثر العلى للحضارة الإسلامية وأعظم علمائها ، بحث في كتاب « نواح

مجيدة من الثقافة الإسلامية » ، هدية المقتطف في أكتوبر سنة ١٩٣٨ .

القلقشندي : (+ ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) .

(٢٩) صبح الأعشى في صناعة الإنشا . (القاهرة ، ١٣٣٣ هـ = ١٩١٤ م) .

ابن القلانسي : (+ ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) .

(٣٠) ذيل تاريخ دمشق . (بيروت ، ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م) .

أبو المحاسن : (+ ٨٧٤ هـ = ١٤٩٦ م) .

(٣١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . (القاهرة ، ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م) .

محمد جمال الدين سرور ، دكتور :

(٣٢) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره . (القاهرة ، ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) .

(٣٣) دولة بني قلاوون في مصر . (القاهرة ، ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م) .

المقريزي : (+ ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) .

(٣٤) السلوك لمعرفة دول الملوك . نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة .

(القاهرة ، ١٣٥٣ - ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٤ - ١٩٣٩ م) .

(٣٥) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار .

(القاهرة ، ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣ م) .

الزسوى : (+ ٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م) .

(٣٦) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي . (باريس ، ١٣٠٩ هـ = ١٨٩١ م) .

النظامي العروضي السمرقندي :

(٣٧) چهار مقاله ؛ نقله من الفارسية إلى العربية الأستاذين عبدالوهاب عزام

ويحيى الخشاب . (القاهرة ، ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م)

ابن الوردي : (+ ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ م) .

(٣٨) تكملة المختصر في أخبار البشر . (القاهرة ، ١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨ م) .

المصادر الأجنبية

Abulgasi :

1. Histoire Généalogique des Tatars. (Leyde, 1726)

Ameer Ali, Sayed :

2. A Short History of the Saracens. (London, 1916)

Arnold, T. W. :

3. The Preaching of Islam. (London, 1935)

Atiya, A. S. :

4. The Crusade in the Later Middle Ages. (London, 1938)

Barker, E. :

5. The Crusades. (London, 1925)

Barthold :

6. Turkestan down to the Mongol Invasion. (London, 1928)

Bloch, E. :

7. Introduction à l'Histoire des Mongols de Fadlallah Rashid Ed Din. (Leyden, 1910)

Boulger, D. C. :

8. The Mongols and the Court of Kublai Khan. (Universal History of the World, vol. 5. pp. 2847-2860)

Bretschneider, E. :

9. Mediæval Researches From Eastern Asiatic Sources. (St. Petersburg, 1857)
10. Recherches Archéologiques et Historiques sur Pékin et ses Environs. (Paris, 1879)

Browne, E. G. :

11. A Literary History of Persia. (London, 1906)
12. Account of a Rare Manuscript History of Seljuqs. (London, 1906)

Cahun, L. :

13. Introduction à L'Histoire de L'Asie, Turcs et Mongols des origines à 1405. (Paris, 1896)
14. Gengis-Khan et L'Empire Mongol. (Lavis et Rambaud : Histoire Générale, tom. ii, pp. 917-953). (Paris, 1893.)

Curtin, J. :

15. *The Mongols' History.* (Boston, 1908)

Czaplicka :

16. *The Turks of Central Asia, in History and at the Present Day.*
(Oxford, 1918)

Defremery, M. :

17. *Histoire des Seldjoukides; Extraits du Tarikhi Guzideh, ou Histoire Choisie d'Hamdullah Mustaufi.*
(Journal Asiatique : Avril-Mai, 1848, pp. 417-468)
18. *Histoire des Seldjoukides. (Suite)*
(Journal Asiatique : Septembre-Octobre, 1848, pp. 259-376)
19. *Fragments de Géographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits.* (Journal Asiatique: Novembre-Décembre, 1849, pp. 447-513)

De Gulnaes, J. :

20. *Histoire Générale des Huns, des Turcs, des Mongols et des autres Tartares Occidentaux.* (Paris, 1757)

D'ohsson, M. Le Baron :

21. *Histoire des Mongols depuis Tchinguiz-Khan jusqu'a Timour Bey ou Tamerlan.* (Paris, 1824)

Douglas, R. K. :

22. *The life of Jenghiz-Khan, Translated from Chinese.* (London, 1877)
23. *China, The Story of Nations.* (London, 1912)
24. *Jenghiz-Khan.* (Encyclopædia Britannica, vol. 12, pp 1000-1001)
(New York, 1929)

Duboux, M. L. :

25. *La Perse.* (Paris 1841)

Eileen Power :

26. *Medieval People.* (London 1939)
27. *The Guilds and Medieval Commerce.*
(Universal History of the World, vol. 5, pp. 2897-2926)

Fitzgerald :

28. *China, A short Cultural History.* (London, 1935)

Fraser, J. B. :

29. *Historical and Descriptive Account of Persia.* (London, 1833)

Gibbon, E. :

30. The History of the Decline and Fall of the Roman Empire.
(New York, 1927)

Giles, A. H. :

31. The Civilization of China. (Cambridge, 1911)

Grenard, F. :

32. Gengis-Khan, (Paris, 1935)
33. Mongol Campaigns.

Hart, B. H. L. :

(Encyclopædia Britannica, vol. 15, pp. 705—7.) New York, 1929.

Heyd, W. :

34. Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age.
(Leipzig, 1886)

Hirth, J. :

35. China and the Roman Orient. (Leipzig, 1885)

Hirth & Rockhill, W. W. :

36. Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries.
Translated from Chinese. (St. Petersburg, 1911)

Hitti, Philip :

37. The History of the Arabs, (London, 1937)

Howorth, H. H. :

38. History of the Mongols (London, 1875)

Huntington, E. :

39. The Pulse of Asia. (Washington, 1919)

Huzayyin, S. A. :

40. Arabia and the Far East. Their Commercial and Cultural Relations
in Graeco-Roman and Irano-Arabian Times. (Cairo, 1942)

Jacobs, Joseph :

41. The Story of the Geographical Discovery.
How the World Became Known. (London)

Lamb, Harold :

42. Genghis-Khan ; The Emperor of All Men. (London, 1934)
43. The Crusades ; The Flame of Islam. (London, 1931)

Lane-Poole, Stanley :

- 44. *History of Egypt in the Middle Ages* .(London, 1925)
- 45. *Mediæval India Under Mohammedan Rule*. (London, 1917)
- 46. *The Mohammadan Dynasties*. (Paris, 1925)
- 47. *Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo*. (London, 1897)

Le Strange :

- 48. *Baghdad During the Abbasid Caliphate* (Oxford 1900)

Little, A. :

- 49. *The Far East*. (Oxford, 1905)

Loewe, H. M. J. :

- 50. *The Seljuqs*.
(Cambridge Medieval History, vol iv. pp. 299 – 317). Cambridge, 1927.
- 51. *The Mongols*.
(Cambridge Medieval History, vol. iv. pp. 627 – 652). Cambridge, 1927.

Malcolm, J. :

- 52. *The History of persia, from the Most Early Period to the Present Time*. (London, 1829)

Marcel, M. J. :

- 53. *L’Egypte Depuis la Conquête Des Arabes Jusqu’a la Domination Française*. (Paris 1848)

Muir, Sir William :

- 54. *The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall*. (Edinburgh, 1924)

Nicholson, Reynold:

- 55. *A Literary History of the Arabs*. (London, 1923)

Nidhami-l-Arudi-l-Samarquandi :

- 56. *The Chahâr Maqala*. Translated by E. G. Browne. (London, 1899)

Nizam Al-Mulk :

- 57. *Siyâsat Namah*. (Paris, 1891)

Nöldéke, Theodor :

- 58. *The Abbasids*.
(*The Historians’ History of the World*, vol. viii. pp. 209 – 232)
(New York 1926)

Rashid-Eldin :

59. Histoire des Mongols de la Perse. Edit. par M. Quatremere. (Paris 1833)

Reinaud et Favé M. M. :

60. Du Feu Grégeois, Des Feux De Guerre, et Des Origines De la Poudre a Canon chez les Arabes, les Persans, et les Chinois.
(Journal Asiatique : Octobre 1849, pp. 257—327)

Sanaullah, Mawlawi Fadil :

61. The Decline of the Saljûqid Empire. (Calcutta, 1938)

Ross, E. D. :

62. The Empire of the Seljuk Turks.
(Universal History of the World, vol. 5. pp. 2779—96)

Skrine, F. H. & Ross, E. D. :

63. The Heart of Asia. (London, 1899)

Stevenson, W. B. :

64. The Age of Eastern Imperialism : 1216—1303.
(Universal History of the World, vol. 5.)

Sykes, Sir Percy :

65. The Quest For Cathay. (London, 1936)
66. A History of Persia. (Oxford, 1922)

Vambery, A. :

67. History of Bokhara from the Earliest Period down to the Present.
(London, 1873)

Vladimirtsov :

68. The Life of Chingis-Khan. (London, 1930)

Von Hammer :

69. Histoire de L'Ordre des Assassins. (Paris, 1833)

Wells, H. G. :

70. The Outline of History.

Wiet, Gaston :

71. Précis de l'Histoire d'Egypte. (Le Caire, 1932)

Zambour :

72. Manuel de Généalogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam.
(Hanovre, 1927)

كشاف

١- أسماء الرجال والنساء ، والقبائل والشعوب ، والفرق الدينية .

الأيوبيون — الدولة الأيوبية : ٩٨ ،	(١)
١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،	الأتراك : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ،
١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ،	٢٧ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٧ ، ١٤٤ ،
إبراهيم بن سقمان ، أتابك أرمينية : ١٦٦ ،	١٤٥ ، ١٥٥ ،
إبراهيم بن شاه رخ : ١٠٩ ،	الإخشيد ، محمد بن طغج : ٢٦ ، ٢٨ ،
أتسر ، خوارزم شاه : ١١٢ ، ١٧٠ ،	١١٧ ،
أجتاي ، خاقان المغول : ١٤٦ ، ١٧١ ،	الإخشيدون — الدولة الإخشيدية :
أحمد بن بويه — انظر معز الدولة .	٢٦ ، ١١٧ ،
أحمد بن سقمان ، أتابك أرمينية : ١٦٦ ،	الإدارة : ٢٥ ،
أحمد بن طولون : ٢٦ ، ١١٧ ،	الإسكندر الأكبر : ١٣٢ ،
أرتاق بن أكسب : ١٠٦ ،	الإسماعيلية : ٢٧ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١٥٠ ،
أرغون أرسلان ، أخو ملكشاه : ٥٥ ،	٥٩ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ ،
٥٦ ، ٥٧ ،	٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
أسد الدين شيركوه : ١٠٢ ، ١٢٢ ،	٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،
١٢٩ ، ١٣٠ ،	٨٧ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٤٧ ،
إسماعيل بن جعفر الصادق : ٦٧ ،	١٤٨ ، ١٦٠ ،
أغاخان : ١٦٠ ،	الأشرف موسى : ١٠٥ ، ١٣٠ ، ١٤٧ ،
آقسنقر ، أحد المقربين إلى ملكشاه :	الأغالبة : ٢٥ ،
٥٦ ، ٥٧ ، ٨٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٦٢ ،	الأفضل ، بن بدر الجمالي : ١١٩ ،
١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،	الأفضل ، بن صلاح الدين الأيوبي : ٩٨ ،
أب أرسلان : ٣٥ ، ٣٧ ، ٥١ ، ٦٩ ،	١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
٧١ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٨ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،	الأكراد : ١٢٥ ، ١٤٦ ،
ألتشكين Alptigin : ٣٠ ،	الأمويون : ١٨ ،
ألكسيوس كومنين ، الإمبراطور البيزنطي :	الأمين ، أبو موسى — الخليفة العباسي : ١٥٣ ،
١١٩ ،	الإيطاليون : ١٢٠ ،
أوربان الثاني ، البابا : ١١٩ ،	

أوزبك بن البهلوان ، أتابك أذربيجان :

١٠٨ ، ١٦٧

إيل أرسلان ، شاه خوارزم : ١٧٠

إيلدكر Ildigiz ، أتابك أذربيجان : ١٠٨ ،

١٦٧

(ب)

بابك الخرمي : ٢٠

باتو ، حفيد جنكيز خان : ١٧١

الباطنية ، انظر الإسماعيلية .

أبو بكر بن سعد ، أتابك فارس : ١١٠ ، ١٦٨

أبو بكر بن محمد : ١٠٨

أبو بكر نصر الدين ، أتابك أذربيجان :

١٦٧

بدر الجمالي : ٧١ ، ١١٩

بدر الدين أولوق : ١٠١ ، ١٤٩

براق حاجب ، مؤسس أتابكية كرمان :

١١١ ، ١٦٩

البرامكة : ١٨

بركياروق ، بن ملكشاه : ٣٧ ، ٤٠ ، ٥٤ ،

٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧٧ ،

٧٨ ، ٩٧ ، ١١٢ ، ١٥٩

برمك : ١٨

البساسيري : ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨

البطالة : ١١٧

بكتمر ، أتابك أرمينية : ١٦٦

بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه : ٣٣

البويهيون : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ،

٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٦٣ ،

٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١١٣ ، ١٥٦

بيدشو Baidshu ، القائد المغولي : ١٤٦

(ت)

تاج الدين ، الوزير : ٥٤

تاج الملك ، الوزير : ٥٥

تنش ، أخو ملكشاه : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ،

٥٨ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٨ ، ١٥٨

تركان خاتون ، زوجة ملكشاه : ٥٤ ، ٥٥

تكش ، علاء الدين خوارزم شاه : ٤٧ ،

٤٨ ، ٦٤ ، ١١٢ ، ١٧٠

تسلا بن زنسكي ، أتابك فارس : ١٦٨

تمجين ، انظر جنكيز خان .

توران شاه : ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،

تولوي ، بن جنكيز خان : ١٧١

(ج)

جعفر البرمكي : ١٨

جغتاي ، بن جنكيز خان : ١٧١

جلال الدين حسن ، داعي دعاة الإسماعيلية :

٨٥ ، ٨٦ ، ١٦٠

جلال الدين منكبرتي : ٨٧ ، ٩٣ ، ١٠٧ ،

١٠٨ ، ١١١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،

١٧٠

جنكيز خان : ٨٦ ، ٨٧ ، ١١٠ ، ١١١ ،

١٢٣ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،

١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٧١

جوجي ، بن جنكيز خان : ١٧١

جيخانو ، إيلخان فارس : ١٦٩

(ح)

الحسن بن بويه ، انظر ركن الدولة .

الحسن بن الصباح : ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ،

٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ،

٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٦٠

الحسن الثاني بن محمد، داعي دعاة الإسماعيلية :
١٦٠

الحشيشية ، انظر الإسماعيلية .

الحدانيون : ٢٨ ، ١١٧

(خ)

خرلق ، خرخ ، خلیخ ، قبائل : انظر الكارلوك

خرّما ، إمراة مزدك : ٢٠

الخرمية ، حركة دينية ظهرت في فارس :

٢٠ ، ٧٠

الخطا ، قبائل : ٤٦ ، ٤٧ ، ٩٦ ، ١١١

١١٢ ، ١١٣ ، ١٣٨

الخوارزميون ، الدولة الخوارزمية : ٤٧ ،

٤٨ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٨٦ ، ٨٧

٨٨ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨

١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤

١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٢

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧

(د)

داود بن محمد بن ملكشاه : ٤٣ ، ١٥٩

داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه :

٦١ ، ١٥٩

دقاق ، الأتابك : ٥٧ ، ٩٧ ، ١١٨

١١٩ ، ١٥٨

الدولة الدلفية ، دولة بكرستان : ٢٧

(ر)

الراشد أبو جعفر ، الخليفة العباسي :

٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٥

٨٣ ، ٨٤ ، ٩٥ ، ١٥٧

الراضي بالله ، الخليفة العباسي : ٢٤

٢٥ ، ٢٦ ، ١٥٩

الراوندية ، حركة دينية ظهرت في فارس :
١٩ ، ٢٠ ، ٧٠

الدولة الرسية ، دولة في اليمن : ٢٧

الرشيد أبو جعفر هارون ، الخليفة العباسي :

١٨ ، ١٩ ، ١٥٣

رضوان ، الأتابك : ٥٧ ، ١١٨ ، ١٥٨

ركن الدولة بن بويه : ٢٨

ركن الدين خورشاه ، داعي دعاة الإسماعيلية

في فارس : ٨٨ ، ١٦٠

ريتشارد قلب الأسد ، ملك إنجلترا :

١٢٦ ، ١٢٧

ريموند Raymond ، صاحب طرابلس :

١٠٢ ، ١٢٤

(ز)

زبيدة ، زوجة ملكشاه : ٥٤

الزنادقة ، حركة دينية ظهرت في فارس :

٢٠

زنكي بن مودود ، أتابك فارس : ١٦٨

الدولة الزيدية ، دولة في طبرستان : ٢٧

زين الدين علي بن بكتكين : ١٠٦

(س)

الدولة الساجية ، دولة في أذربيجان :

٢٧

السامانيون ، الدولة السامانية : ٢٦ ،

٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢

سبكتكين : ٣٠

سعد بن زنكي ، أتابك فارس : ١١٠ ،

١٦٨

السفاح ، أبو العباس : ١٥٣

سقمان القطبي الأول : ١٠٧ ، ١٦٦

سلمان الثاني ناصر الدين ، أتابك أرمينية :
١٦٦

سلجوق : ١٥٨
سلجوقشاه ، أحد أمراء السلاجقة :
١٥٩ ، ٦٢ ، ٦١

سلطان شاه محمود ، شاه خوارزم : ١٧٠
سلمغر ، تنسب إليه أتابكية فارس : ١٠٩
سليمانشاه ، السلطان السلجوقي : ٤٥ ، ١٥٩

سنجرشاه ، معز الدولة : ١٠٥
سنجر بن ملكشاه : ٤٦ ، ٤٢ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ٩٦ ، ٨٤

سنقر بن مودود : ١٦٨ ، ١٠٩
سيف الدولة الحمداني : ١١٧
سيف الدين غازي : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥

(ش)

شاهنشاه : ١٣٠
أبو شجاع ، الوزير : ٣٩
شيرماجون Churmagan ، القائد المغولي : ١٤٦

(ص)

الصالح إسماعيل : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٠٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤
الصالح أيوب : ١٢٩ ، ١٣٣

الصفاريون ، الدولة الصفارية : ٢٦ ، ٣١

صلاح الدين الأيوبي : ٤٦ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٢٨

الصلبيديون : ٣٦ ، ٤٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ٩١ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤

(ط)

الطائع لله ، الخليفة العباسي : ١٥٦
طاهر بن الحسين : ٢٦
أبو طاهر بن محمد : ١٠٩
الطاهريون ، الدولة الطاهرية : ٢٦
طغتكين : ٩٧ ، ١٣٠ ، ١٦١

طغرل بك ، أول سلاطين السلاجقة في العراق : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ١٠٩ ، ١٥٨

طغرل بك ، آخر سلاطين السلاجقة في العراق : ٦٣ ، ٦٤ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٥٩

طغرل بن محمد بن ملكشاه : ٦٢ ، ٦٤ ، ١٥٩
الطولونيون ، الدولة الطولونية : ٢٦ ، ١١٧

(ظ)

الظاهر بأمر الله ، الخليفة العباسي : ١٥٧
الظاهر بيبرس : ١٥٠
الظاهر ، بن صلاح الدين الأيوبي : ١٠٣ ،
١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩

(ع)

العاذل ، أخو صلاح الدين الأيوبي :
١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
١٣٢ ، ١٣٨

العاذل الثاني : ١٢٩
العاذل ، الخليفة الفاطمي : ١٢٢
عبد الملك بن صالح : ١٨
عبد الملك بن عطاش : ٧١ ، ٧٩
العثمانيون : ٩٦

عز الدين مسعود ، أتابك الموصل :
١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٦٢ ، ١٦٥
العز ، بن صلاح الدين الأيوبي :
١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩
علاء الدين محمد ، داعي دعاة الإسماعيلية :
٨٦ ، ١١٠ ، ١٦٠

علاء الدين محمد خوارزم شاه : ٨٦ ،
٨٧ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ،
١٧٠

علي بن أبي طالب : ١٣٩
علي بن بويه ، انظر عماد الدولة .

عماد الدولة بن بويه : ٢٨
عماد الدين زنكي الأول : ٤٣ ، ٥٧ ،
٦٢ ، ٦٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢

١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥

عماد الدين زنكي الثاني : ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥

ابن العلقمي ، الوزير العباسي : ١٤٨
عمرو بن العاص : ١٣٢
عموري ، ملك بيت المقدس : ١٢٤ ،
١٣٢

عميد الدولة ، الوزير : ٣٩

(غ)

الغز ، قبائل : ١١ ، ٣٢
الغزنويون ، الدولة الغزنوية : ٣٠ ،
٣١ ، ٣٣ ، ٤٧
الغوريون ، الدولة الغورية : ٣١ ، ٤٧ ،
١١٢ ، ١١٣

(ف)

الفاطميون ، الدولة الفاطمية : ٢٦ ،
٣٠ ، ٣٥ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٢ ، ١٢٣

فخر الدين عبد المسيح : ١٠٤

الفراغة : ١١٧

فردريك بربروسا

Frederick Barbarossa

إمبراطور ألمانيا : ١٢٦

فردريك الثاني ، إمبراطور ألمانيا وملك

جنوب إيطاليا : ١٣٢ ، ١٣٣

الفرس : ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٩٢ ، ١٤٤

فيليب أغسطس ، ملك فرنسا : ١٢٦

(ل)

لويس السابع Louis VII ، ملك فرنسا :
١٢٠

(م)

المأمون ، أبو جعفر — الخليفة العباسي :
١٥٣

ماركوپولو : ٧٥
مانجو خان ، خاقان المغول : ٨٧ ، ٨٨ ،
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٧١

المانوية ، ديانة فارسية قديمة : ٢٠
المتقي لله ، الخليفة العباسي : ١٢٨ ، ١٥٥
المتني ، الشاعر : ١١٧

المتوكل على الله ، الخليفة العباسي : ٢٣ ،
١٥٤

محمد بن إيلدكز ، أتابك أذربيجان :
١٠٨ ، ١٦٧

محمد بن بزرگيد ، داعي دعاة الإسماعيلية :
١٦٠

محمد بن رائق : ٢٥
محمد بن شيركوه : ١٢٩

محمد بن ملكشاه : ٣٧ ، ٤٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٥

٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٥٩
محمد بن فوشتكين ، خوارزم شاه :

١١٢
محمود بن سبكتكين : انظر يمين الدولة.

محمود الغزنوي : ٣١ ، ٣٢
محمود بن محمد بن ملكشاه : ٤١ ، ٤٢ ،

٤٩ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥ ،
٨٠ ، ٨٢ ، ١٥٩

(ق)

القائم بأمر الله ، الخليفة العباسي : ٣٣ ،
٣٤ ، ٣٨ ، ١١٨ ، ١٥٦ ، ١٥٧

القادر بالله ، الخليفة العباسي : ٢١ ، ١٥٦
القارلوق ، قبائل : انظر السكارلوك .

القاهر بالله ، الخليفة العباسي : ١٥٥
قبلاي خان : انظر كوبلاي خان .

القراخانية Kara Khanids ، قبائل : ٢١
قره خطا ، قبائل : انظر الخطا .

قزل أرسلان ، مظفر الدين — أتابك
أذربيجان : ١٦٧

قطب الدين إسماعيل : ١٠٧
قطب الدين محمد خوارزم شاه : ١٧٠

قطب الدين مودود : ١٠١ ، ١٠٣ ،
١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣

١٦٤ ، ١٦٥
القفجاق ، قبائل : ٩٣ ، ١٠٨

قلج أرسلان : ٦٠
قمبيز : ١٣٢

(ك)

السكارلوك ، قبائل : ٢١
الكامل ، صاحب مصر : ١٢٩ ، ١٣٠ ،

١٣٢ ، ١٣٣
كتبه ١ ، القائد المغولي : ١٤٩

كوبلاي خان ، خاقان المغول : ١٤٧ ،
١٤٩ ، ١٧١

كونراد الثالث Conrad III ، إمبراطور
ألمانيا : ١٢٠

كيا بزرگيد ، داعي دعاة الإسماعيلية : ١٦٠
كيخانو ، إيلخان فارس : انظر جيخاتو .

كبكوك ، خاقان المغول : ١٧١

- محمود بن ملكشاه : ٣٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ١٥٩
مزدك : ١٩ ، ٢٠
المزدكية ، حركة دينية ظهرت في فارس : ٢٠
المسترشد بالله ، الخليفة العباسي : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤
٦٥ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٥ ، ١٥٧
المستضيء بأمر الله ، الخليفة العباسي : ١٢٢ ، ١٥٧
المستظهر بالله ، الخليفة العباسي : ٥٨ ، ١٥٧
المستعصم بالله ، الخليفة العباسي : ١٤٨ ، ١٥٧
المستعلي ، بن الخليفة المستنصر الفاطمي : ٦٧ ، ٧١ ، ١١٨
المستعين بالله ، الخليفة العباسي : ١٥٤
المستكفي بالله ، الخليفة العباسي : ٢٨ ، ٢٩ ، ١٥٦ ، ١٥٥
المستنجد بالله ، الخليفة العباسي : ٣٩ ، ١٥٧
المستنصر ، الخليفة الفاطمي : ٣٤ ، ٦٧ ، ١٥٧
مسعود ، السلطان السلجوقي : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٨٣
٨٤ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٨ ، ١٥٩
المطيع لله ، الخليفة العباسي : ١٥٦
المعز بالله ، الخليفة العباسي : ٢٣ ، ٢٤ ، ١٥٤
المعتصم بالله أبو إسحق ، الخليفة العباسي : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ١٥٢ ، ١٥٤
المعتضد بالله ، الخليفة العباسي : ٢٤ ، ١٥٥
المعتمد على الله ، الخليفة العباسي : ٢٦ ، ١٥٤
معز الدين سنجر شاه ، أتابك الجزيرة : ١٦٥
معز الدولة بن بويه : ٢٨ ، ٢٩
معز الدين محمود : ١٠٦ ، ١٦٥
المعظم ، صاحب دمشق : ١٢٢ ، ١٣٣
المقتدر بالله ، الخليفة العباسي : ١٥٥
المقتدى بأمر الله ، الخليفة العباسي : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١١٨ ، ١٥٧
المقتنى لأمر الله ، الخليفة العباسي : ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٨٤ ، ٩٥ ، ١٥٧
المقنعية : حركة دينية ظهرت في فارس : ١٩ ، ٢٠ ، ٧٠
المكتنى بالله ، الخليفة العباسي : ١٥٥
الملاحدة ، انظر الإسماعيلية .
ملكشاه : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩
١١٢ ، ١١٨ ، ١٥٨ ، ١٥٩
المنتصر بالله ، الخليفة العباسي : ٢٣ ، ١٥٤
المنصور أبو جعفر ، الخليفة العباسي : ١٩ ، ١٥٣
المنصور ، بن صلاح الدين الأيوبي : ١٢٩
منكوخان ، منكوقاآن : انظر مانجوخان .
المهتدي بالله ، الخليفة العباسي : ١٥٤

١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
١٦٤ ، ١٦٥

نوشتكين، تنسب إليه الدولة الخوارزمية:

٩٣ ، ١١٢ ، ١٧٠

(هـ)

الهادي أبو محمد موسى ، الخليفة العباسي :

١٥٣

هنري الثالث : ٨٨

هنري السادس : ١٣١

هنري شامبين : ١٣٠

هولاكو : ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،

١٠٩ ، ١١٠ ، ١٣٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٤٩ ، ١٦٠ ، ١٧١

(و)

الوائق بالله ، الخليفة العباسي : ١٥٤

(ى)

يحيى بن خالد البرمكي : ١٨

اليغفرية ، دولة في صنعاء : ٢٧

يعقوب بن الليث الصفار : ٢٦

عين الدولة : ٣١

في لوشوتساي Ye-lu Ch'u ts'ai : ٤٦

المهدي أبو عبد الله ، الخليفة العباسي :

١٩ ، ٢٠ ، ١٥٣

(ن)

الناصر ، صاحب حلب : ١٠٣

الناصر لدين الله الخليفة العباسي : ٤٧ ،

٤٨ ، ٦٤ ، ٨٦ ، ١١٣ ، ١٢٧ ، ١٥٧

نجم الدين أيوب : ١٠٧

نزار ، بن الخليفة المستنصر الفاطمي :

٦٧ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٦٠

النزارية ، اسم يطلق على الإسماعيلية في فارس ،

نسبة إلى نزار بن الخليفة المستنصر

الفاطمي .

نصر بن أحمد الساماني : ٢٧

أبو نصر أحمد بن الفضل ، الوزير : ٨٢

نصرة الدين هزارسب : ١٠٩

نظام الملك ، الوزير : ٣٦ ، ٤٦ ، ٥٢ ،

٦٩ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٩٨

نور الدين محمد الثاني ، داعي دعاة الإسماعيلية

في فارس : ١٦٠

نور الدين محمود : ٥٧ ، ٩٧ ، ١٠٠ ،

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٥ ، ١٢١

٢ - أسماء المدن ، والأقاليم ، والأنهار ، والبحار .

أران : ١٠٨

أربيل : ٨٩ ، ١٠٦ ، ١٢٥

أرمينية : ٣٥ ، ٦٠ ، ٨٩ ، ١٠٧ ،

١٠٩ ، ١٣١ ، ١٦٦

أرمينية الصغرى : ١٢٥

آسيا : ١٧ ، ٢١ ، ٣٧ ، ٤٦ ، ٥٣ ،

(١)

إبريم : ١٢٤

أذربيجان : ٢٧ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ،

٧١ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،

١٠٩ ، ١٤٢ ، ١٦٧

١١٨ ، ١٠٢ ، ١٠٠ ، ٩٩ ، ٩٧

١٢٢ ، ١٢١ ، ١٢٠ ، ١١٩

١٣٠ ، ١٢٩ ، ١٢٨ ، ١٢٧

١٥٠ ، ١٤٧ ، ١٣٨ ، ١٣٢

١٦١ ، ١٥٨

دمياط : ٧١ ، ١٣٢

ديار بكر : ٥٦ ، ٦٠ ، ٨٩ ، ٩٧

١٢٨ ، ١٠٦

(ر)

راوند ، مدينة بالقرب من أصفهان : ١٩

الرحبة : ٣٤

الرملة : ١٢٧

الرها : ٦٠ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٢١

الري : ٢٧ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٥٤ ، ٦٩

١١٠ ، ١٠٨

(س)

سامرا : ٢٣ ، ٢٤ ، ١٥٣ ، ١٥٤

ساوة : ٦٠

سجستان : ٢٧ ، ٣١

سمرقند : ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٥

سنجار : ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤

١٦٤ ، ١٢٥ ، ١٠٦ ، ١٠٥

السودان : ١٢٣ ، ١٢٤

سوريا : ٢٦ ، ٣٥ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٢

٨٦ ، ٩٢ ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٤٩

١٥٨

(ش)

الشام : ٣٠ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧

٥٩ ، ٦٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٨ ، ٩١

٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٠

١٦٥ ، ١٢٥

جنوة : ١٣١

جوني ، صحراء : ١٣٧

جوزجيا : ٣٥ ، ١٠٩ ، ١٤٢

(ح)

الحجاز : ٣٠ ، ١١٨

الحديثة ، قلعة : ٣٣

حران : ١٠٦ ، ١٢٥

خطين : ١٢٦

حلب : ٣٥ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٨٩

٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٧

١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤

١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٦٣

حماه : ٥٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢٥ ، ١٢٧

١٣٠

حمص : ٩٩ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠

(خ)

خراسان : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣

٣٧ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠

٨٤ ، ١٠٩ ، ١٥٩

خلاط : ١٠٧

الخليج الفارسي : ١١٠ ، ١١٣

خوارزم : ٣٣ ، ٣٥ ، ٨٩ ، ١١٢

١٤٢ ، ١٧٠

خوزستان : ٦٠ ، ٧٢ ، ٩٧

(د)

دمشق : ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٨٩

(غ)

غزاة ، غزنين : ١٤٢ ، ١١٣ ، ٤٧ ، ٣١ ، ٣٠

(ف)

فارس : ٣١ ، ٣٠ ، ٢٨ ، ٢٦ ، ٢١

٣٢ ، ٢٢ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٨

٦٩ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٩ ، ١١١

١١٢ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٩

١٦٠ ، ١٦٨

فاس : ٢٥

فرغانة : ٢٢

فرنسا : ٨٨ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١

فلسطين : ٢٦

(ق)

القاهرة : ٦٨ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣

قبرص : ١٢٦

قرون حماء : ١٠٣ ، ١٢٥

قره قورم : ١٣٨ ، ١٤٦

قزوين : ٨٧

القسطنطينية : ٣٥ ، ١١٩ ، ١٣١

قوهستان : ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦

القيروان : ٢٥

(ك)

كاشغر : ٢١ ، ٣٥ ، ٤٦

کردستان : ٢٧ ، ١٠٩ ، ١٢٥ ، ١٤٦

کردكوه : ٨١

السكرك ، حصن : ١٠٣

كرمان : ٢٧ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٨٩ ، ١١٠

١١١ ، ١١٣ ، ١٦٩

كنجان ، جبال : ١٣٨

٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١

١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١١٧

١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤

شاه ذر* ، قلعة قريبة من أصفهان : ٧٨ ، ٧٩

شيراز : ١١٠

(ص)

صقلية : ١٣٣

صنعاء : ٢٧

صور : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦

صيدا : ٢٠ ، ٧٩ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠

١٤٢ ، ١٤٧

الصين : ٢٠ ، ٧٩ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠

١٤٢ ، ١٤٧

(ط)

طبرستان : ٢٧ ، ٢٣

طبرية : ٥٦

طنخارستان : ٣١

طرابلس : ٦٠ ، ١٠٢ ، ١١٩ ، ١٢٠

١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣١

(ع)

العراق : ٣٣ ، ٢٤ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٢

٤٥ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٦٢

٦٣ ، ٦٤ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٩٥

٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١٣٤ ، ١٥٩

العراق العجمي : ٣١ ، ١١٣ ، ١٤٢

عسقلان : ١١٩ ، ١٢٢

عكا : ٧١ ، ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨

عين جالوت : ١٥٠

منغوليا : ٨٧ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٩
الموصل : ٢٨ ، ٤٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦١ ،
٨٢ ، ٨٩ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ،
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،
١٤٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣
مولتان : ٣١

ميافارقين : ٥٦ ، ٧١ ، ١٠٧ ، ١٢٥

(ن)

نصيبين : ٢٨ ، ٥٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
النمسا : ١٣١
نهر جيحون : ١٤٢ ، ١٤٨ ،
نهر دجلة : ١٢٦ ، ١٤٦ ،
نهر السند : ١١٣ ، ١٤٥ ،
نهر سيحون : ٢١ ، ٣٥ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ،
نهر الفرات : ١٠٣ ،
نيسابور : ٢٦ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ١٥٩

(هـ)

همدان : ٣٣ ، ٤٢ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ،
٩٧ ، ١٠٨ ،
الهند : ٢٦ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٨٧ ،
١١٣ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ،
هنغاريا : ١٣١

(و)

واسط : ٢٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
ونشستر Winchester : ٨٨

(ي)

يافا : ١٣٢ ،
آلمين : ٢٧ ، ١٢٤

كيفا ، حصن : ١٠٧ ، ١٢٥ ،
كين شان Kin-Shan : ٢٠

(ل)

اللاذقية : ٥٦ ، ٩٨ ،
لاهور : ٣١ ،
لورستان : ٨٩ ، ١٠٩

(م)

ما بين النهرين : ٥٢ ، ٩٨ ، ١٠٦ ،
١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ،
١٢٩ ، ١٣٠ ،
ماردين : ١٠٧ ، ١٢٥ ،
مازندران : ٢٧ ، ٨٥ ،
ما وراء النهر : ٢١ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ،
٣٢ ، ٤٧ ، ١١٣ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ،
١٤٩ ،
المحيط الهندي : ٥٢ ، ١١٣ ،
المدينة : ٢٦ ، ٣٥ ، ١١٧ ،
مراكش : ٢٥ ،
مرند Marand : ١٠٧ ،
مرو : ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ١٥٩

مصر : ١٩ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٥٧ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ،
١٠٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٩ ،
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،
١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
١٤٩ ، ١٥٠

مكران : ١٠٨ ، ١١٣ ،
مكة : ٢٦ ، ٣٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
ملاز كرد : ٣٥ ، ١١٩ ،
منبج : ٥٦ ، ٩٨

استدراك

رغم الجهد الذى بذل فى إخراج هذا الكتاب ، وقعت بعض الأخطاء المطبعية
أعتذر للقارىء عنها وأرجو أن يفضل بتصحيحها قبل قراءة الكتاب .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦١	١٩	ابنى ملكشاه	ابنى محمد بن ملكشاه
٦٢	٧	بن السلطان محمود	بن السلطان محمد
١١٢	٧	لقب	لقب
١٢٩	١٨	بين	بين

Wiet : Lampes

؛

Wiset : Lampe

لوحة ١١

Harold Lamb

؛

Harol Lamb

لوحة ١٥

THE EASTERN ISLAMIC TERRITORY BEFORE THE MONGOL INVASION

By

H. A. HAMDI

B.A., M.A.(Hons.), Dip. in Ed.

Published by

Dar El-Fikr El-Arabi, Cairo.

1950